قصة الزير سالم

أبو ليلى المهلهل الكبير

حرب البسوس



قصة الزير سالم
{ أبو ليلى }

قصة الزير سالم

أبو ليلى المهلهل الكبير

وهى قصة بديعة جرى فيها من الحروب
العجيبة والوقائع المهولة المريعة، وأشعار
العرب أهل الفضل والأدب، وما كان من
كليب وحسان اليمانى وجساس بن مرة،
وما وقع بينهم من حرب البسوس،
وبرجيس وغيرهما
من الأهوال

الناشر
مكتبة مدبولى
ميدان طلعت حرب القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد ،،

حمداً لله، والصلاة والسلام على رسله وأنبيائه.

وبعد: فهذه سيرة الكرار والبطل المغوار الذى شاع ذكره فى الأقطار وأذل بسيفه كل عدو جبار المهلهل بن ربيعة، صاحب الأشعار البديعة والوقائع المهولة المريعة مما جرى له فى تلك الأيام مع ملوك الشام وفرسان الصدام من الحوادث والوقائع التى تطرب القارىء وتلذ السامع.

ولكن قبل الشروع فى هذه السيرة الغريبة وأخبارها المطربة الغريبة رأينا أن نذكر طرفاً من أخبار العرب أهل الفضل والأدب إفادة للطالعين ونزهة للسامعين فنقول والله المستعان:

إن أصل العرب من قديم الزمان وسالف العصر والأوان ولد نزار بن معد بن عدنان وكان قد ولد لنزار المذكور أربعة أولاد من الذكور كل منهم بالفضل والبأس مشهور وهم: مضر أنمار وإبار وربيعة وفارس الطرار ومنهم تشعبت قبائل العرب وملأت البرارى والهضاب فمن نسل إياد ملوك التابعة الذين أخبارهم بين الناس شائعة ، ومن نسل ربيعة ومضر وإنمار عرف الحجاز ونجد والعراق، وسكان القفار وكانت العرب

فى ذلك الزمان منقسمة إلى قسمين وهما: قيس ويمن فكان اليمن هم اليمنيون وباقى العربان هم القيسيون وما زالت العرب تنمو وتكثر وتمتد فى البر الأفقى حتى اشتهرت العشائر والقبائل وظهر الأمير ربيعة وأخوة مرة وأبناء وائل وربيعة المذكور هو أبو الزير الفارس المشهور صاحب هذه السيرة ووقائعها الشهيرة.

(قال الراوى) وكان ربيعة فى ذلك الزمان من جملة ملوك العربان وأخوه عروة من الأمراء والأعيان وكانت منازلهم فى تلك الأيام فى أطراف بلاد الشام وكانا يحكمان على قبيلتين من العرب وهما: بكر وتغلب وولد لربيعة خمسة أولاد مثل الأقمار وهم: كليب الأسد الكرار، وسالم البطل الشهير الملقب بالزير، وعدى ودرعيان وغيرهم من الشجعان، وكان له بنت جميلة الطباع شديدة الباع تعارك الأسود والسباع اسمها أسما وتلقب بضباع، وأما الأمير مرة له عدة أولاد أبطال أمجاد وقد اشتهروا بالشجاعة وقوة البأس منهم: همام وسلطان وجساس وله بنت جميلة فاضلة نبيلة، يقال لها الجليلة، فاتفق فى بعض الأيام أن الأمير مرة دخل على أخيه ربيعة فى الخيام وخطب ابنته ضباع لابنه همام وخاطبه بهذا الشعر والنظام:

يقول أمير مرة في قصيدة　　معانيه حكت درر الجوار
ربيعة يا أخي اسمع كلامى　　أيا قهار فرسان الجبابر

أريد ضـبـاع بنتك يا ربيـعـة إلى همـام يافـخـر الأكـابر
ولما ينشى ابنك كليـبـا ويركب يا أخي الخيل الضوامر
وتكـبـر يا ملك بنتي الجليلة مر فخذها له وزوج لا تشاور
وهذا يا أخي أقـصى مـرادى أيا صـدام آساد الكواسـر
تبـدي له ربيـعـة ثم قـال له كـلامك يا أخي مثل العنابر
تريد ضـبـاع خذها يا مـسـمى وزوِّجـهـا لابنك لا تشـاور
ومعها مائة خادم يخدمونها ومـائة جارية غيـر السـرائر
ومعها مائة حـر كـالعـرائس ومائة قعود مع مـائتين جوائر
ومعها محمل الفاخر وأطلس زياد ومسك فـايح ودم عـاطر
وهمـام ابن مـرة مـثل ابني لغـيـرك من أناسب أو أطاهر
هلم انهض وزوجنها بسـرعة وافـرح فيـه واعمل عرس فاخر

فلما فرغ ربيعة من كلامه وشعره ونظامه اعتنقه أخوه وشكره على حسن اهتمامه ثم باشر القوم بأمر العروس من ذلك اليوم وعقدوا عقد الأمير همام على ضباع بنت الكرام كما جرت عادة الملوك العظام؛ فأولموا الولائم وذبحوا الذبائح وأطعموا كل آت ورائح وما زالوا فى سرور وأفراح وبسط وانشراح، فدقت طبول ولعب خيول وشرب مدام مدة عشرة أيام ثم زفوا ضباع على الأمير همام فكانت ليلة عظيمة لم يسمع بمثلها فى الأيام القديمة حضر فيها كثير من سادات العرب وأهل المناصب

والرتب ودخل همام على ضباع وحظى بحسنها وجمالها ونالت منه غاية آمالها ؛ لأنها كانت تحبه محبة شديدة وتوده مودة أكيدة وسوف يظهر لهما ولدان وهما شيبون وشيبان وسيأتى حديثهما بعد الآن.

هذا ما كان من خبر بنى قيس المدعوين بالقيسية ولنتكلم الآن عن حديث اليمنية وما جرى لهم فى تلك الأيام من الأمور والأحكام والحروب والأهوال فى ميادين القتال فنقول وعلى الله الاتكال.

إنه كان فى قديم الزمان فى بلاد اليمن ملك عظيم الشأن صاحب جند وأعوان وأبطال وفرسان يقال له الملك حسان ويكنى بالتبع اليمانى، ولم يكن له بين الملوك ثانى وهو أول اليمنية كما كان ربيعة أول القيسية، وكان شديد البأس قوى المراس طويل القامة عريض الهامة لا يعرف الحلال من الحرام ولا يحفظ العهد والزمام وكان يحب النساء الملاح والمزاح منهن فى المساء والصباح، ومن أعماله العجيبة واصطلاحاته العجيبة كما ذكر أصحاب الرايات أنه كان فى كل ليلة يتزوج بصبية من بنات الملوك والسادات وكانت الملوك تخافه وتخشاه وتحسب حسابه وتترضاه وتحمل له الخراج وتعلل له الخاطر والمزاج وكان عنده من الأبطال والفرسان ألف ألف عنان وهم عشرة كرات مستعدين للحرب والغارات وكان يشرب المدام فى الليل والنهار ولا يبالى فى الأهوال والأخطار وكان له وزير عاقل خبير قوى الجنان اسمه نبهان قد امتاز على الأقران بفعل الخير

والإحسان وكان كثير ما ينهى الملك حسان عن ارتكاب الظلم والعدوان فاتفق فى بعض الأعوام ويوم من الأيام التقى الملك تبع فى نبهان وقال له فى الديوان بحضور الأمراء والأعيان هل سمعت أيها الوزير والعاقل الخبير عن ملك كبير عنده رجال كرجالى أو أموال كعدد أموالى فقبل الوزير الأرض ووقف فى مقام العرض وقال أعطنى الأمان يا ملك الزمان وأنا أحدثك بأخبار ملوك الأمم أصحاب البطش والهمم وما عندهم من الجيوش والعساكر والمهمات والذخائر.

فقال قل وعليك الأمان من نوائب الزمان.

فقال اعلم أيها الملك المعظم أنه لا يوجد مثلك فى هذه الأقطار من الملوك الكبار أصحاب الدين والأمطار ولكن يوجد خارج البحار عرب من أهل الشجاعة والاقتدار عددهم كثير وجيشهم غفير يقال لهم بنو قيس وسيدهم اسمه ربيعة ولهم فى الحرب والغارات وقائع مهولة مريعة وهم من أولاد مضر الأسد الغضنفر وقد امتلكوا أكثر جهات الأرض فى الطول والعرض وهم أعظم منا وأكثر وأشد بأساً، فلما انتهى الوزير من هذا الكلام وسمعه من حضر فى ذلك المقام اغتاظ الملك وتأثر، وكان عليه أشد من ضرب السيف الأبتر، فصاح على الوزير وزعق وقال له بكلام الحنق هكذا ياتيس تفضل علىَّ بنى قيس وما دام الأمر كذلك لابد أن أقدهم بفرسان المعارك وأقتل ملكهم ربيعة وأردهم موارد المهالك وأخرب

بلادهم وديارهم وأمحو بالسيف آثارهم وأتملك الديار بالقوة والاقتدار، ثم أنشد هذه الأبيات على مسامع الأمراء والسادات:

يقول النبي اليمني المسمى بحسان فما للقول زورا
ملكت الأرض غصبا واقتدارا وصرت على ملوك الأرض سورا
وطاعتني الممالك والقبائل وفرسان المعامع والنورا
لقد أخبرت عن بطل عنيد شديد البأس خبيرا جسورا
وقالوا: إنه يدعى ربيعة أمير قد حوى مدناً ودورا
تولى الأرض في طول وعرض فكم أخرب وكم شيّد قصورا
فقصدي اليوم اغزوه بجيشي وأترك أرضه قفرا وبورا
أيا نبهان أجمع لي العساكر فيأتوا فوق خيل كالنسورا
وجهز ألف مركب يا وزيري وأوسقهن في وسط البحورا
ثلاث شهور أسرع لا تطول يكون كل ما قلته حضورا
أسير بهم إلى تلك الأراضي وأملك القلاع والقصورا
ويغنم عسكري منهم مكاسب وأزوجهم بنات كما البدورا
ويبقى لي الحكم براً وبحراً ويصفى خاطري بعد الكدورا

(قال الراوى) فلما انتهى السبع من شعره ونظامه وفهم الوزير فحوى حديثه وكلامه ندم وتكدر الذى أعلمه بهذا الخبر ولم يعد يمكنه إلا الامتثال وتجهيز الفرسان والأبطال إلى الحرب والقتال فنزل من الديوان

وهو مقهور غضبان وأمر بدق الطبل والنحاس لاجتماع العساكر، وباقى الناس، وكان هذا الطبل يقال له الرضوح وهو من أعظم الطبول وكانت تدقه عشرة من العبيد الفحول وهو من صنعة ملوك التبايعة العظام وكانت الناس تسمع صرته عن مسافة ثلاثة أيام وكان الملك حسان إذا غزا قبيلة من العربان يأخذ ذلك الطبل معه وأين ما ذهب يتبعه، ولم يزل هذا الطبل فى ذلك الزمان يتصل من ملك إلى ملك حتى اتصل إلى الأمير حسن سيد بنى هلال المشهور بالإحسان والأفضال، فلما دقت العبيد الطبل وسمعت صوته قواد الفرسان أقبلت على الوزير من كل جهة ومكان فسلموا عليه ومثلوا بين يديه وسألوه عن سبب دق الطبل الرجوج فحدثهم بذلك الإيراد والمسير إلى تلك البلاد للغزو والجهاد، ثم بعد ذلك فرق عليهم السلاح وآلات الحرب والكفاح ولم تمكن إلا مدة قصيرة حتى تجهزت المراكب وتجمعت العساكر من كل جانب وكان من جملتهم عشرة من ملوك كبار كل ملك يحكم على ألف بطل مغوار فحضروا إلى أمام الملك تبع حسان فسلموا عليه وقبلوا الأرض بين يديه وقالوا له نحن بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك فشكرهم وخلع عليهم الخلع الفاخرة والتحف الباهرة ووعدهم بالمال الجزيل وبكل خير جميل، ثم أمر الوزير بالاستعداد والرحيل على غزوة بنى قيس وتلك البلاد وطلبت منه أن يأتى بالعساكر من تحت القصر وهى نازلة إلى البحر ليشاهد أحوالها ويرى صلاحها وأثقالها فامتثل الوزير لما أمر وفعل كما ذكر فانشرح صدر الملك

عند العساكر والجحافل وهى فى السلاح الكامل والاستعداد للحرب والقتال وقال:

يقول التبع الملك اليماني	صفا عيشي وقد طاب فؤادي
أتني عساكر كالأسد تسري	ألوف راكبين على جياد
عليهم كل درع من حديد	له زرد كما عين الجراد
وبهم كل جبار عنيد	يقال ألف ليث في الطراد
برؤيتهم فقد زاد انشراحي	وزال ألهم عني بابتعادي
أسير بهم لذاك البر حالا	وأقتل كل من يطلب عنادي
وأرجع غانماً في طيب عيش	ولا يبقى لتبع من يعادي
ألا ياعسكر قروا وطيبوا	على نيل المقاصد والمرادى
ومنى أبشروا فيما تريدون	مهما تطلبوه بازدياد

فلما فرغ من شعره ونظامه صرخت الأمراء وأكابر القواد والجيوش والعساكر والأجناد ودعوا للملك بالنصر وطول العمر وقد استبشروا فى غزوة تلك البلاد وأيقنوا بالنجاح وبلوغ المراد ثم نزلت العساكر والأجناد فى المراكب مع الأمراء والقواد، وكان الملك حسان قبل خروجه من الأوطان قد سلم زمام ملك اليمن إلى الصحصاح بن حسان وهو ملك كبير وفارس شهير كان يميل إليه ويعتمد عليه فأوصاه أن يجمع له المال

فى كل عـام ويرسله إلى بلاد الشـام ثم نزل مع الـوزير فى مـركب كبـيـر وأقلعوا مـن الأوطان وقصدوا بلاد الحـبش والسودان وعند وصـولهم إلى ذلك الجـانب ألقـوا المراسى ونزلوا إلى الـبر بالـقوارب ونـصبـوا الخـيـام والمضـارب وفى الحال أرسل الملـك تبع وزيرا اسمـه زيد بن عـقبـة بألف فارس منتـخبة ليعلم ابن أخـته الرعينى بقدومـه إلى تلك الأقطار لأنه كان ملك هاتيك الديار ويـأمره بسـرعة الحـضـور وتقديـم الذخر إلى الجـيش والعسكر فلما علم الرعينى بذلك الخـبر بادر فى الحال بالفرسان والأبطال والمهـمـات الثـقـال، إلى أن التـقى به فى الصيـوان ومن حـوله الوزراء والأعيان، فـدخل وسلم عليه وقبّله بين عـينيه وقدم له الذخائر والمـهمات لتلك الجـهـات فأعلمـه بواقـعة الحـال وإنه قـاصد غـزو بنى قـيس وتلك الأطلال ثم يأتوا تلك الليلة فى الخيام وفى الصباح أمر الملك العشرة الملوك العظام أن يتـأهبـوا للرحـيل إلى بلاد الشـام وأن ينقـسـموا إلـى قسـمـين ويتفرقـوا إلى فرقتين فـخمسة تسيـر من اليمين وخمسة مـن على الشمال وأوصاهم أنهم كل مـا أقبلوا إلى مدينة يملكوها فى الحـال ويقيمون فـيها نائباً من سادات الرجـال فأجابوا أمره بالخضوع والامتـثال فعند ذلك دقت الطبـول والزمور وركـبت الفـرسان ظـهور الخـيول وارتـفع الصياح ولمع السلاح وترتـبت الكتائب وسارت المـواكب فى تلك البرارى والسبـاسب وكانوا كـلما وصلوا إلى مـدينة أو بلد امتلكوها بحـد السيف المهنـد حتى

ملكوا أكثر البلاد وطاعتهم العباد وما زال تبع يتقدم حتى أقبل إلى مدينة الشام فأحاط بها من جميع الجوانب بالمواكب والكتائب وكان نائب الملك ربيعة فى دمشق الشام يدعى يزيد بن علام وكان ربيعة وأخوه مرة فى وادى الأنعمين، وهو مكان بعيد عن المدينة مسافة يومين، فأرسل الملك تبع إلى نائب الأمير ربيعة أحد الوزراء العمد يطلب منه الخضوع لأمره وتسليمه.

فلما وصل إليه ودخل عليه وأعلمه بالخبر وما قال تبع وأمره فأجاب بالسمع والطاعة، ونهض مسرعاً فى تلك الساعة، وأخذ معه الأموال والذخائر وخرج فى جماعة من الأكابر حتى التقى بتبع فى الخيام فحيًاه بالسلام فترحب به غاية الترحيب، وأمر له بالجلوس فجلس بمكان قريب منه فقال تبع هل أنت حاكم الشام قال: نعم، أيها الملك الهمام فسأله عن حكم ربيعة فقال له: ظالم على قومه وكل الرعايا تشكو من ظلمه وتتمنى له الأذى والضرر والموت الأحمر، والحمد لله رب البرية الذى أعاننا بك حتى نتخلص من نير العبودية فنستخدمك خدمة مرضية، ونصير لك من جملة الرعية وما قوله ذلك لتبع إلا من الخوف والفزع فتبسم تبع من هذا الكلام وقال أبشر ببلوغ المرام فإنك ستكون نائبى فى بلاد الشام، وتحمل لى الخراج فى كل عام، فقال سمعاً وطاعة ياملك الزمان وجوهرة هذا الأوان ثم عرض عليه الذخائر وما جاء به من نفيس الجواهر فانشرح صدر تبع وخلع عليه الخلع وقال له: أذهب الآن وجوه أهل المدينة وباشر فى

الضيافات والزينة فإننا سنحضر إلى عندك بعد ثلاثة أيام ونتفرج على الشام ثم نرجع إلى المضارب والخيام فقال أهلا وسهلا الأرض أرضك والبلاد بلادك ثم ودع الملك وسار بمن معه من الأكابر والتجار وأخذ يسعى فى أمر الوليمة وقد خامرت معه أهل الشام خوفاً من السبى والهزيمة.

هذا ما جرى لهؤلاء من الأخيار وأما ما كان من ربيعة وبنى قيس الأخيار فإنهم لما سمعوا بقدوم الملك تبع إلى الديار وافتتاحه المدن والأمصار أخذهم القلق والافتكار وكان قد بلغ ربيعة قول زيد إلى تبع حسان وكيف أنه نسبه إلى الظلم والعدوان مع أنه كان من أعدل ملوك الزمان أخذه الغضب والقلق وزاد به الحنق فجمع أكابر قومه وأخيه مرة ومن يعتمد عليهم من أهل الشجاعة والقدرة وجعل يخاطب الأمراء والسادات بهذه الأبيات:

غنا ربيعة شعراً من ضمايره ودمع العيون على الوجنات طوفان
ياقومنا اسمعوا وامتثلوا قولي أنتم بنو قيس أبطال وشجعان
كنا بخير والسعد يخدمنا نقري الضيوف ونكسي كل عريان
والجوخ والخز السمور يأتي لنا من ساير الأرض والملبوس ألوان
جاءنا من البحر ذا التبع يحاربنا صعب المراس شديد البطش سلطان
معه رجال عوابس ألف ألف بطل من كل درغام قلبه مثل صوان
جاز البلاد وما أمير خالفه الكل طاعته القاصي مع الدان

أتي إلينا وما حسب حساب لنا | منا ومن غيرنا هو ليس فزعان
معاه عسكر كثير ما له عدد | أبطال حرب وفرسان شجعان
أنا بقيت كبير السن ياعربى | مالي جَلَدٌ في اللقا وسط ميدان
مرة أخوي بهذا الرأي ساعدني | همام يا بن أخي ما كنت كسلان
ما يترك الكاس من يديه ولا ساعة | إلا بوقت اللقا أو بعض أحيان
كيف العمل ننهزم أو نقابله | شوروا للصواب إخوتي وخلان

فلما فرغ ربيعة من شعره قالت السادات والفرسان عن فرد لسان: إن هذا الأمر لا يطاق وعلقم مر المذاق، وليس لنا غير الهزيمة فهى أوفر غنيمة وإلا حكم سيفه ولاشانا عن بكرة أبينا وبعد مداولة طويلة وجلسة مستطيلة استقر رأى الجمهور على أن يذهبوا إلى عند تبع المذكور فيسلموا عليه ويقبلوا يديه ويطلبون لأنفسهم الأمان ويقدموا له التحف الحسان لعلهم يتخلصون بهذه الوسيلة من تلك الورطة الوبيلة، هذا ما كان من أمر بنى قيس وأما الملك تبع فإنه فى اليوم الثالث ركب فى وجوه قومه وتوجه إلى مدينة الشام لأجل الزيارة كما تقدم الكلام.

فلما بلغ الغاية ووصل السراية التقاه زيد بالتعظيم والإكرام وأجلسه فى أعز مقام وصنع له وليمة عظيمة ذات قدر وقيمة فأحسن إليه وخلع عليه وفرق التحف الثمينة على أكابر أهل المدينة ثم رتب الخراج فى كل عام وبعد ذلك رجع إلى المضارب والخيام وهو مسرور الفؤاد على المرام

وأما بنو قيس فإنهم جمعوا التحف الحسان والأموال التى يكل عن وصفها اللسان من عقود وجواهر ومهمات وذخائر وقماش فاخر وحملوها على مائة جمل، وركب ربيعة مع أخيه مرة فى مائة بطل وسار معهما جماعة من الأمراء والقواد الذين عليهم الاعتماد وجدا فى قطع البرارى والقفار، حتى وصلوا إلى تلك الديار وعند وصولهم إلى المضارب نزلوا عن ظهور النجائب واجتمعوا بخزندار الملك تبع وكان اسمه ثعلبة بن الأبشع فقدموا له التحف الحسان ليقدمها إلى الملك تبع حسان ويعلمه بقدومهم إلى الديار فقدمها الخزندار وأعلم بمجىء القوم فى مثل ذلك اليوم مرادهم الدخول عليه ليتشرفوا بتقبيل يديه ورجليه ويحصلوا على أمانه ويكونوا من حملة خدامه وأعوانه فتبسم تبع والتفت إلى وزيره نبهان وقال له: أين ملوك قيس العظام؟ الذين كنت قلت عنهم ه' هو كذا وكذا من الكلام وإنى لا أصلح أن أكون من جملة خدامه وهم قد حضروا الآن لتقبيل أقدامى ليكونوا من جملة أعوانى وخدامى فقال الوزير: وقاك الله من كل شر وضير، وجعل عافية هذا الأمر إلىَّ فبينما هم فى الحديث والكلام إذ دخل على الملك أمراء بنو قيس الكرام فقبلوا الأرض بين يديه ووقعوا على رجليه فأخذ تبع ينظر إليهم ويتأمل فيهم فحانت منه التفاتة فنظر الأمير ربيعة واقف فى باب الصيوان وهو مثل الأسد الغضبان وكان الأمير ربيعة لم يدخل مع قومه على الملك حسان لأن نفسه ما كانت تطاوعه

على الذل والهوان فالتفت الملك تبع إلى الترجمان وقال: من يكون هذا الإنسان؟ فإنى أراه معجب بنفسه غاية الإعجاب ولا حاسب لى أدنى حساب فسأل الترجمان عنه فقالوا العشمشم سيد بنى قيس الأمير ربيعة المعظم.

فلما سمع تبع هذا الخبر شخر ونخر وتبدل عيشه بكدر واحمرت عيناه حتى صارت مثل الجمر ثم ناداه فحضر وقد تعجب من عظم هيبته وبياض لحيته فسلم ربيعة عليه ووقف بين يديه فقال تبع أأنت سيد بنى قيس الكرام؟ فقال: نعم أيها البطل الهمام وقال: ولماذا أسأت الأدب واحتقرتنى دون باقى أمراء العرب الذين تمثلوا أمامى وقبّلوا يدى وأقدامى، فتقدم الآن وقبّل رجلى يامهان وإلا قتلتك بحد الحسام وجعلتك عبرة بين الأنام.

فقال ربيعة وقد استعظم ذلك الأمر واحمرت عيناه من الغيظ حتى صارت مثل الجمر؛ لأنه كان من أشرافهم حسباً وأعلاهم نسباً ثم قال: اعلم يا ملك الزمان بأننى ملك من ملوك العربان صاحب قدر وشان وما ذلت نفسى لإنسان وهذه هى بلادى وملك آبائى وأجدادى وأنا ما تعديت عليك وما أوصلت أذيتى إليك بل أنت شنيت علينا الغارة وامتلكت بلادنا وألحقت بنا الخسارة وذلك بدون سبب من الأسباب فكفى الذى فعلته أيها الملك المهاب وقد بلغت منا قصدك فلا أنت تقبّل يدى ولا أنا أُقبّل يدك فلما سمع منه هذا المقال خرج عن دائرة الاعتدال وقال يا ندل بنى قيس

ومن هو أذل من التيس إني ما أتيت من بلادي بهذا الجمع المتزايد إلا لأجعل زمام الدنيا في قبضة ملك واحد ثم بعد هذا الكلام صاح على الأعوان والخدم بصوت كالرعد في الغمام يا ويلكم اقبضوا على هذا الشيخ الكبير ومن معه من بني قيس الطناجير وقيدوهم في الجنازير فامتثلوا أمره في الحال وقيدوا ربيعة وباقي الرجال وبعد أن قيدوه وأوثقوه أمر الملك بشنقه فشنقوه وهكذا انتهت حياته وانقضت أيامه وساعاته وبقي معلقاً ثلاثة أيام حتى جاء نائبه الأمير زيد إلى الشام فغسله وكفنه ثم واراه التراب ودفنه ثم جاء في باقي الرجال وأرادوا أن يفعلوا بهم مثل تلك الفعال فانهزم الأمير مرة من بين أيدي الفرسان وتقدم إلى عند الملك تبع حسان وقال الأمان يا ملك الزمان نحن الآن عبيد وطوع يديك وجميع أمورنا راجعة إليك فاعفو عنا فقد حضرت لنا ملك ثم إنه بعد هذا الحديث والكلام أشار يخاطبه بهذا الشعر والنظام.

مقالات لمرة في بيوت	صروف الدهر قد جارت علينا
ألا يا أمير تبع يا مسمى	أيا ملك الورى في العالمينا
أنا في جيرتك يا فخر قومك	أجيرنا لا تشفي الضد فينا
قتلت أخي ربيعة يامكني	وأسقيت العدا والحاسدينا
وتقتلني أنا يا أمير بعده	تهد رجالنا طول السنينا
نحن يا ملك حكام مثلك	على كل القبائل حاكمينا

فليس بواجب تهدم بيوتي ولا هذه فعال الماجدينا
وقد حاربنا وحكمت فينا ونحن اليوم في حكمك رضينا
وبعد اليوم صرنا لك رعايا على طول الليالي والسنينا
وندفع كل عام عشر المال كله فاحكم ما تريد اليوم فينا

(قال الراوي) فلما سمع تبع شعره ونظامه وعرف قصده ومرامه عفا عنه وأعطاه الأمان، وكذلك صفح عن باقى الأمراء والأعيان وجعلهم من جملة الرعايا والخدام، يدفعون له الخراج فى كل عام، وقال لمرة: ياسيد القوم قد صممت أن أتخذ مدينة كرسى مملكتى بعد هذا اليوم فسر أنت وأهلك من هذه الديار وتفرقوا فى سائر الأقطار وكونوا لأوامرى طائعين ولحكمى خاضعين سامعين.

ثم إنه قسمهم إلى عدة فرق وأقام على كل فرقة ملك من سادات بنى قيس الأعيان، فجعل الأمير مرة على الفرقة الأولى وأمره أن يسكن مع قومه فى نواحى بيروت وبعلبك والبقاع، وجعل الأمير عدنان على الفرقة الثالثة وأمره أن يقيم فى بلاد العراق وتلك المنازل والآفاق وكان الملك تبع قد شتّت بنو قيس بهذه الوسيلة خوفاً من أن يقع فى مكيدة أو حيلة، ثم إنه التفت على الأمير مرة وباقى السادات وأشار إليهم بهذه الأبيات:

يقول التبع المدعو اليماني أيا مرة لكم مني الأمان
ألا ياقيس روحوا لا تخافوا فقد سدتم على أهل الزمان

ربيعة أنت يامرة بداله كبير القوم من قاصٍ ودان
وأولادهم لهم موضع أبوهم وأنت أكبرهم فيهم تعاني
ولكن خلق لا تسكنوها وكونوا في أمان مدى الزمان

فلما فرغ تبع من كلامه وشعره ونظامه أجابت بنو قيس أمره بالامتثال وتفرقت جموعهم فى البرارى والتلال وهم يبكون على ما جرى عليهم وما وصل من الأذى إليهم لأنهم كانوا فى أرغد عيش وأهناه وفى عز وجاه، كلمتهم بين الناس مسموعة وروايتهم فوق هام المجد مرفوعة لا يعرفون الهم والكدر ولا يأخذهم يأس ولا ضجر إلى أن أصابتهم البلية وحلت بهم تلك الرؤية فبكوا على تفرق بعضهم البعض وتشتتهم فى أقطار الأرض.

ومن غريب الاتفاق المستحق التسطير فى الأوراق هو مما جرى للأربعة إخوة الذين اشتهروا من بنى قيس بالحمية والنخوة ، وذلك أنه كان لزوجة الأمير ربيعة المذكور والد كليب والزير الفارس المشهور أربعة إخوة من الذكور وهم جوشن وناجد وجودر والأمير منجد والأسد الغضنفر وكانوا من أجود الناس قد اتصفوا بالشجاعة وقوة البأس.

فلما رأوا أفعال تبع الشنيعة وكيف أنه قتل صهرهم ربيعة ساءهم ذلك الأمر وتوقد قلبهم من الغيظ بلهيب الجمر ولكنهم أخفوا الكمد وأظهروا الصبر والجلد فحملوا بيوتهم وعيالهم وساقوا غنمهم وجمالهم وجدوا

فى قطع البرارى والآكام حتى وصلوا إلى بلاد الشام فنزلوا بقرب صيوان تبع حسان فقال لهم: من تكونوا من العربان؟ فقال له ناجد: اعلم أيها السيد الماجد أننا من خيار العرب أصحاب الحسب والنسب وكان الأمير ربيعة متزوجاً بأختنا جميلة وكنا على زمانه فى نعم جزيلة، والآن قد أمسينا فى ذل وهوان ليس لنا قَدْر ولا شان وقد قصدناك وأتينا إليك وجعلنا اعتمادنا بعد الله عليك لعلك ترحمنا وترثى لحالنا وتبلغنا غاية آمالنا وتجعلنا من جملة الأعوان والعبيد والغلمان فتستقيم أمورنا بعد الذل والكدر ونحظى بالشرف الرفيع وبلوغ الوطن فأعجبه كلامهم وبلغهم مرامهم وجعلهم من جملة وزرائه وأكابر أمرائه وكأن يستشيرهم فى أكثر الأوقات ويفضلهم على الرؤساء والسادات وكانوا يترقبون الفرص؛ ليأخذوا بالثأر ويزيلوا عن قلوبهم الغصص ولما بلغ تبع الغاية دخل إلى مدينة الشام ونزل بالسراية، فطاعته العباد وخضعت له جميع البلاد وشاع ذكره فى الأقطار وتحدث به الملوك الكبار واستمر على هذه الحالة مدة ثلاثين سنة تهاديه الملوك الأكاسرة وتهابه الملوك القياصرة.

وكان قد بنى له قصراً مرتفع البنيان مشيد الأركان وجعل أبوابه من الفضة والذهب ورصع حيطانه بالجواهر والدر المنتخب فكان من عجائب الزمان وذلك لما فيه من التحف الحسان التى تدهش النواظر وتحير العقول والبصائر.

فاتفق ذات يوم بينما هو جالس فى الديوان ومن حوله الأكابر والأعيان وهم يتحدثون بذكر نساء العرب اللواتى اشتهرن بالفضل والأدب والحسن والجمال واللطف والكمال إذ قال بعض الوزراء: إنه لا يوجد فى هذا الزمان بين بنات العربان فى المحاسن والأوصاف البديعة أجمل من الجليلة ابنة أخى ربيعة وأخذ الوزير يطيب فى أوصافها وآدابها وألطافها: ثم قال فى آخر الكلام: إن هذه الصبية التى كأنها البدر التمام مخطوبة لابن عمها الأمير كليب ومراده أن يتزوج بها فى هذه الأيام فهنيئاً لمن كانت هذه زوجته وقرينته وحبيبته.

فلما سمع تبع بذكرها وأنها من أجمل بنات عصرها اشتد غرامه بها وتعلق قلبه بحبها وكتب إلى أبيها مرة كتاباً بالحال يأمره أن يرسل له الجليلة بدون إهمال؛ لأن مراده أن يتزوج بها ويكون صهره وبهذه الوسيلة يعلو بين الناس قدره ،ثم ختم الكتاب بهذا الشعر والنظام وبه يتهدده بالانتقام إن لم يمتثل إلى هذا الكلام وأشار يقول:

يقول التبع الملك اليماني ملكت الأرض والسبع البحار
ألا ياغادياً مني لمرة على فرس تشابه ريح ساري
بحال وصول مكتوبي إليه فأعلمه بحالي وانتظاري
أيا مرة فأرسل لي الجليلة بلا إهمال من بين السراري
سمعت بأنها زينة مليحة ويخجل حسنها ضوء النهار

وحين سمعت بها طار عقلي وقل اليوم مني اصطباري
أريد تكون باكر وسط قصري وتتسلطن على كل الجواري
وأرسل جزية السبع المواضي خزين في صناديق كبار
واحضر يامك مرة عندي واخضع لي بذل وانكساري
وأدخل على الجليلة وسط قصري وأتمتع بها وأطفى لنازي
وإن كانت كما وصفوا وقالوا سأمضي الليل معها مع نهاري
وأعطيك البقاع إلى بعلبك وأرفع لك مقاماً في جواري
وإن لم تمتثل قولي وأمري تراني جئتكم مثل الضواري
وأمحى جمعكم في حد سيفي وأنهب ما لكم وأنال ثاري

ثم أمر تبع وزيره نبهان أن يركب فى جماعة من الفرسان ويقصد تلك القبيلة ويسلم الكتاب إلى مره ويأتيه بالجليلة فامتثل أمره وسار وجد فى قطع القفاز حتى وصل إلى تلك الديارفرأى القوم فى سرور وأفراح وشرب مدام وانشراح؛ لأنهم كانوا مهتمين فى تلك الأيام فى جواز كليب بالجليلة بدر التمام.

فلما سمع مرة بقدوم وزير تبع خفق قلبه من شدة الخوف والفزع فنهض فى الحال واستقبله أحسن استقبال ثم أتى به إلى الخيام واحترمه غاية الاحترام وأمر الخدام أن يأتوا بسفرة الطعام وآنية المدام فامتثلوا إلى أمره كما ذكر وبعد أن أكلوا شربوا ولذوا وطربوا قال الأمير مرة إلى

الوزير: اعلم أيها السيد الخطير لقد زاد سرورنا الآن وتزينت بقدومك الأوطان ثم سأله عن سبب زيارته وما هى غاية حضرته فقال: قد أتيتك بكتاب من تبع ملك الأعارب وبه يطلب ابنتك امرأة له وأنت تعلم بطش هذا الجبار وفعله فقد قال المثل: «**لا تعاند من قال فعل**» وأنا والله فى غاية الحياء والخجل وليس لى إرادة بهذا العمل ولكننى أتيتكم فى زى رسول لأعلمك بالخبر اليقين وليس على الرسول إلا البلاغ المبين، ثم أخرج الكتاب وسلمه إياه ففتحه الأمير مرة وقرأه ولما وقف على حقيقة فحواه انقطعت أمعاه وضل عقله وتاه، لأنه أبى وامتنع بقتل الملك تبع وإن أجابه إلى ما طلب يصير معيرة بين قبائل العرب وتشتمه الناس وتزدريه حيث كان قد أنعم بزواج ابنته إلى كليب ابن أخيه فانهار وحار وأخذ يتأمل فى عاقبة هذا العمل فلم يجد سوى الخضوع والامتثال لأوامر تبع فى الحال خوفاً من العواقب وحلول النوائب فالتفت إلى الوزير نبهان وقال له أمام الأمراء والأعيان ومن حضر فى ذلك المكان: لقد أجبت الملك إلى ما طلب وبلغته من ابنتى غاية الأرب؛ لأن ليس لنا بعد الله سوى أمره ورضاه؛ لأنه الملك الأكبر وبمصاهرته نحظى على الشرف الرفيع والحظ الأوفر وبعد ثلاثة أيام يكمل جهازها بالتمام فنضعه بالصناديق ثم

نحمله على ظهور الجمال مع باقى الأمتعة والأحمال وتركب الجليلة فى هودجها وتسير أمام الفرسان وتذهب أنت معانا إلى عند الملك تبع حسان فانشرح صدره بهذا الكلام وأيقن بالنجاح وبلوغ المراد والحصول على الخلوع والأنعام وبات تلك الليلة وهو فرحان.

(قال الراوي) فهذا ما كان من الوزير نبهان وأما الأمير مرة فإنه استدعى سراً وقص ذلك الحديث عليه، وقال: اعلم يا ثمرة فؤادى ومن هو عندى أعز من أولادى إن الضرورة أحوجتنى إلى ذلك خوفاً من الوقوع فى المهالك وقد أعلمتك بما جرى وتجدد فما رأيك أيها البطل الأمجد فلما سمع هذا الكلام صار الضيا فى عينيه كالظلام، وقال: أرجوك أن تمهل الوزير ثلاثة أيام عن المسير حتى أنظر فى هذا الأمر العسير.

(قال الراوي) وكان لكليب صديق يتمنى له النجاح والتوفيق يدعى العابد نعمان وكان كثير ما يوعده بالخير والإحسان فقصده تلك الليلة وأخبره بما جرى وما كان من أمر الملك تبع حسان فقال له: أبشر بالخير يانور العين فإن الرأى عندى أن تجهز مائة صندوق يكون كل واحد بطبقتين فى الطبقة الواحدة تضع فارساً من أبطال المكافحة والمجادلة وفى الثانية جهاز الجليلة وأنت تكون مهراجاً لها أمام سادات الجليلة وبهذه الوسيلة تتم الحيلة وتنال المراد من رب العباد.

واعلم لا خفاك أنه عند وصولك إلى هناك تجد سلسلة من النحاس الأصفر معلقة فوق الباب الأكبر وهى مرصدة من سحر هذا الزمان لهلاك من أراد الضرر للتبع حسان فتقع عليه بالحال وتذيقه الوبال فخذ لنفسك الحذر واتكل على الله إله البشر فهو يحفظك ويحميك وينصرك على جميع أعاديك، فإذا بلغت الإرادة وفزت بالسعادة بنيت مسجدى برسم العبادة، وخذ لك هذا السيف الخشب وبه تنال القصد والأرب وأشار يقول:

قال عمران يا ابن ربيعة	أتاك الخير وسعدك تم
روح لقومك بشرهم	وقول لعمك وابن العم
وبشر المسمى همام	بأن الشمل اليوم يلتم
وقول للسعد آتي لقيس	واستوفى ثأرك والدم
تأخذ ثارك من التبع	وتسقيه الخمر بكاس السم
هذا السيف تقلد فيه	وفي كفك ياأمير يتم
والبس قموعه سموطه	تبقي تضرب فيه بعزم
وحط بعينك عرق الشب	تبقي أحمر مثل الدم
حط عروسك في هودج	وقودهم بها زمام مذم
وسوى عرضك فشمرها	احذر منه في حقك ذم
وإن واحد قال لك ما تكون؟	فاعجل واعمل حالك صم

والـعب وارقـص واتـهـــــرج واحـــفـظ مـــا يخــرج مــن الفم
عـــملـت مـــرة والفـــرســـان بـاكــــــــــر لـعـنـدي تـلـتـم
وأنـــــا دبـــرت هــــل رأى من خــــالف قـــولـي ينـدم
وســــيـــر لعنده بـالأبطـال قـــبـل مــــا يغــــضب وينسم
سلسلة مـــعـــمـــولة هـناك يعلم الســـحـــر مـع الطلسم
تبين كل ســــاعـــة أعـــداء احــــذر منهـــا لا تعـــدم
طيب قلبك لا تـغـــتـــاظ من ذات الـعــــايق لا تهـــتـم
ســـألت المولى ينصـــركم ويـزيـل عـنـكـم كـل الـهــم

فلما فرغ العابد من كلامـه وعده كليب ببناء المقام على أحسن نظام ثم رجع على الأثر وأعلم عـمه بذلك الخبر وقـال له: يقتضـى الآن أن نبادر بإتمام هذا الشـأن ونتتخب مـائة من الفرسـان ونضعـهم فى الصناديق على ظهور الجمال مع باقى الجهاز والأموال فى صفـة أمتعة وأحمال على عيون الرجال ويكونوا جميعـاً بالأسلحة الكاملة والعدد الشاملة وتركب الجليلة هودجهـا وهى مزينة بالجواهر ويكون فى صـحبتـها جماعـة من السرارى يدقون أمامها بالـدفوف والمزامير وأنا أجعل نفسى مهرجـاً لحضرتها وقائد لزمام نافتها وندخل على تبع بهـذه الوسيلة فإن تمت عليه الحيلة نلت المرام وأخذت ابنة عـمى بحد الحسام وأكـون قد بلغت أربى وأخـذت بثار أبى ومتى قتل الملك تبع يقع فى قلب قومه الخوف والفزع.

(قــال الراوي) فاستصوب الأمير مرة كـلام كليب وعلم أنه سينال المراد بدون أدنى شك ولا ريب فقـال لقد بالصواب أشـرت وبالأمر الذى لا يعاب فافعل ما تريد أيها الفارس الصنديد.

وكان قـد أمهل الوزير ثلاثة أيام حتى تتم هذه الأمور والأحـكام وقد أطلع مرة ابنته الجليلة على ما تقدم ذكـره وعلى قصد كليب فعله فلما كان يوم الارتحال انتـخب كليب مائة من الأبطال وقص على مسامعهم واقـعة الحال ثـم وضعـهـم فى صناديق الأحمـال وحملوهم على ظـهور الجـمال وكان من جملتهم الأمير جساس وجماعة من عظماء الناس.

وركبت في هودجهـا الجليلة وركب أيضاً الوزير والأمير مرة وجـماعة من فرسـان القبيلة وتقلد كليـب بالسيف من تحت الثيـاب ولبس فرواً من جلود الثـعـالب والذئـاب وأرخى له سـوالف طوال مـن أذناب الكدش والبغال وركب على قطعة من قصب وحـمل دبوساً من خشب وكان يقود بزمام ناقة الجليلة أمام فرسان القبيلة.

فلما رآه الوزير نبهـان قال لبعض الفرسـان: من يكون هذا الإنسان فإن زيه عجـيب وحاله غـريـب؟! فقـالوا هذا مهـرج الجليلة بنت مرة واسـمه قـشـمـر بن غـمـرة زاد عـجـبـه وتبـسم وهو لم يعلـم بأنه كليب الأسـد الغشمشم.

وكانت السـرارى تدق أمام الجليلة بالمزاهر والدفوف والفـرسان تلعب

بالرماح والسيوف وما زالوا يقطعون البرارى والآكام مدة ثلاثة أيام حتى اقتربوا من مدينة الشام فنزلوا هناك ونصبوا الخيام ورفعوا الرايات والأعلام.

﴿انتهى الجزء الأول ويليه الجزء الثاني من قصة الزير سالم﴾

★★★★

الجزء الثانى

من قصة الزير أبو ليلى المهلهل

وأرسلوا رجلاً من أكابر العمد لكى يعلم تبع بوصولهم إلى البلد فسار على الأثر وأعلم الملك بذلك الخبر ففرح واستبشر وزال عنه القلق والضجر وأحضر الرمال وكان عنده رمال شاطر فحضر بين يديه فقال له التبع: اضرب لى تخت الرمل فجلس وضرب الرمل فرأى جميع ما فعلته بنو قيس وقال الصناديق فيها رجال وأشار يقول:

قال الفتى الرمال صادق ... سقاني الدهر كاسات المرارا
تبعت الرمل أنا كنت طفلا ... وقبلته يمين مع يسارا
ولا أحد مثلي بالرمل عارف ... ولا غيري يعرف كيف سارا
أحط الرمل بأربع أمهات ... وولد الصغارا مع الكبارا
ألا يا أمير تبع يا ملكنا ... يا عز العذارى يوم غارا
أقول لك عن التقادير والجنايب ... وتحسب إن جابوا لك تجارا
جوا ياملك هم يقتلوك ... ويدعوا القصر بعدك دشارا

صناديق التي لك حملوها بها أبطال بالعدد أمارا
يريدون قتلك يا ملك عاجل لهم ثار عليك وأي ثارا
هذا قد أعلمك يا مسمى وبالدنيا يشيع لها خبارا

(قال الراوي) فلما فرغ من كلامه وتبع يسمع نظامه نادى على لعبيد فحضروا مائة عبد وقال لهم روحوا إلى العمارة وكل صندوق تلاقوا فيه رجال اكسروه فانطلق العبيد إلى العمارة وهم أسد وسعيد وبقية المائة عبد هذا فى يده عصا والآخر فى يده بلطة والثانى فى يده دبوس حديد ولما وصلوا إلى العمارة ابتدءوا بكسر الصناديق وكسروا الأول والثانى إلى العشرة فصاحت الجليلة يا عبد السوء لماذا تكسروا صناديقي فقال لها العبيد الرمال قال: إن فى هذه الصناديق رجالات فتقدمت وفتحت لهم عشرة صناديق فما وجدوا فيها غير جهازها والقماش فقالوا: إن الرمال كذاب وعادوا يردون الجواب يقع كلامهم ثم يرجع الحديث إلى عجوز يقال لها حجلان وكانت رمالة وهى التى علمت الرمال بأن لها جميع ما فعلوه بنى قيس وتباين لها أن الصناديق طبقتين فى السفلى رجال وفى العليا قماش فافتكرت ساعة من الزمان وضربت ثانى رمل رأت بنى قيس يقتلون التبع لا محالة فقالت خيراً لى أخذ الوجه الأبيض عند بنى قيس فقامت أخذت عصاتها بيدها وسارت إلى أن وصلت عند بنى قيس وهم فى ارتباك عظيم فقالت لهم: أنا أتيت من عند

تبع فقالوا لها: وما قصدك؟ قالت: قصدى كشف الصناديق لأن الرمال قال إن فيها رجال ففتحوا لها أول صندوق والثانى فقالت: إنى أرى الصناديق من الظاهر ذات عمق ومن الداخل بخلاف ذلك وضربت على الطبقة السفلى فلما رأوها عارفة قالوا: استرى على ما ستره الله وفتحوا صندوقاً وأعطوها ثلاث بدلات حرير فقالت من الآن وصاعداً أساعدكم على قتل تبع ثم إن العجوز طلعت إلى عند تبع والرمال بين يديه وعمال يضرب الرمل؛ لأن العبيد أخبروا تبع بما شاهدوا وكذلك العجوز أخبرته كما أخبروه العبيد فقال تبع ياعجوز الرمال كذاب قالت: إن الرمال عَمِيَ من أكل الثوم والبصل فأمر الملك بضرب عنقه وراحت روحه إلى الوادى الأحمر وتقدمت العجوز إلى الملك وأشارت توصف حسن الجليلة وما أعطاها الله من الحسن والجمال:

تقول العجوز التي شاهدت	مليحة تريح العنا والصدود
يا أمير تبع يهنيك فيها السعد	وأقبل الخير لك والسعود
أتوك بنو قيس أهل السماح	وجابوا لك الخيل ثم النقود
وجابوا الجليلة لشخصك حليلة	بخدين حمر وعينين سود
وقامة طويلة كعود القنا	فوق الكتاف ترخى الجعود
بشعر طويل وشعر كحيل	بلا جرميل تصيد الأسود
حواجب كما قوس ترمى الهزوم	وذات حزام الذهب على النهود
وذات شفاف رقاق نطاف	عقايل طرايف تزيل النكود

ولهـا وجه كـبـدر بليلة قـدر	وجنات حـمـر كـمـا الورد
وجـسم رقـيق وريق رحـيق	وسنان لولـو سـبت الـورود
لهـا عنق كـعـنق الغـزال	وطوق الـذهب يوقـد وفـود
كـاكتـاف كـالعاج مـثل الزجـاج	والنـقش مـواج فـوق الـزنود
وكـفين أطرى مـن اليـاسـمين	من قـد حـواها ينال السـعـود
وصـدر كـاللوح خلقـه الإله	وقـد زين الصـدر جـوز النهـود
وأعطاف وأرداف مـثـل العـجين	خلـق الإله مـهـيـمن ودود
أمـا الحـجـول تزيل الـعقـول	حب الـطرف يطـفي الصـدود
أمـا الـقـلائـد مناسـل ذهوب	من الرأس مكعـوب مـثل البنود
وملبـوسهـا مليح حـرير مقـصب	مطـيب بمسك وزهـر وعـود
وإن شـافـهـا رجل عـابد فـقـيـه	غـدا العـقل مـنه شـارد شـرود
قـد زينوا بنو قـيس لك عـروساً	تجلى لأجلك كـل هم وكـود
للملك حـقـاً قـد أحـضـروا	مليـحـة حلالـهـا يزيل النـقـود
فـأرسل وراها وخـلى المحـال	واسـمع كـلامي واجلى الصـدود
وادخل عـلى بـنت مـرة وكن	لطيـفـاً بقطـف ثمـار النهـود

(قـال الراوي) فلما فرغـت العجوز من كلامهـا والملك تبع يسمع نظامها فـراح عقله من وصف العجوز ونادى على الوزير يأمـره أن يحضر الجليلة بالتـبجيل والتكريم وخلفـها السراري بموكـب عظـيم فدخلت على

تبع وكان جالساً على كرسى المملكة وعلى رأسه تاج من الذهب الفاخر مرصعاً بأنواع الجواهر فسلمت عليه ووقفت بين يديه فرد عليها السلام وآنسها بالحديث والكلام وقال لها: أهلا وسهلا بالسيدة الكريمة والدرة التى ليس يقدر لها قيمة ثم أجلسها بمكان قريب منه وترحب بها غاية الترحيب وقد انبهر من فرط جمالها وعذوبة ألفاظها وفصاحة مقالها؛ لأنها كانت متصفة بالأدب ومن أجمل نساء العرب فأخذ الملك يسألها عن أهلها وعشيرتها فقالت له بكلام الدلال: اعلم أيها الملك المفضال أن اتصالى بجانبك وتشريفى بساحة بابك جعل لقبلتنا اسما كبيراً وذكراً بين الناس شهيراً كيف لا وأنت ملك هذا الزمان والجوهرة الثمينة فى هذا الأوان، الله يحفظك لنا ويبقيك وينصرك على جميع حسادك وأعاديك فإن كنت تعظم شأنى وترفع مرتبتى على أقرانى لا تترك أبى وأعمامى وسادات أهلى وأقوامى بعيداً عن فضلك وإحسانك لأنهم قد صاروا من جملة أتباعك وأعوانك فأمر لهم بمكان ينزلون فيه وأمر بصناديق جهازى وباقى الأحمال تحضر إلى هنا فى الحال لأنها مملوءة من التحف والجواهر والقماش ومع كل ذلك فنحن أولاد عم.

(قال الراوي) فأمر تبع وزيره نبهان يذهب فى جماعة من الأعيان ويعد للأمير مرة أبى الجليلة ومن معه من بنى عمه قصراً من القصور الجميلة وأن ينزل بقية الفرسان فى غير مكان ويقدمون لهم الطعام

والشراب وما يلزم من الثياب فأجاب الوزير بالسمع والطاعة وفعل كما أمر مولاه من تلك الساعة وبعد أن نفذ الوزير الأمر ووضع الصناديق فى داخل القصر والتفت الملك تبع إلى مرة وقال له: ياعمى ما بقى من بعدى إلا أنت من مقامى فإن غبت أنا تكون أنت حاكم مكانى ثم إنه قربه إليه وأخذ يترحب بالجليلة ويقول:

يقول التبع اليمن الكباري	أنا يا قيس زال الهم عني
ألا يا مرحبا يا أمير مرة	أنا منكم وأنتم اليوم مني
ترى لولا الجليلة لي تعانب	وجابت لي الحسب والنسب مني
فما علمت أننا يمنا وقيساً	بني جدين أخوين بظني
فلا تعتب على بقتل أخيك	ما قد صار ما بالعلم مني

(قال الراوي) فلما فرغ تبع من كلامه والحاضرين يسمعون نظامه أخذوا بالكاس والطاس وقال للجماعة حلت البركة فيكم فقعدت تشرب معه المدام وشرب الملك تبع إلى أن سكر وغنت البنات ورقصت فقال تبع للجليلة: ياسيدة الملاح وكوكب الصباح قد أجرينا المطلوب طبق المرغوب فهل لك غرض آخر تقضيه حتى نفعل ما ترغبينه وتشتهيه؟ وكانت الجليلة تخول أفكارها لأجل أن تستدعى كليباً إلى عندها وقد سمعت صوته عند القصر وهو يصرخ من جوانب القصر لأنه راكب على فرسه القصب

وبيده دبوس من الخشب وكان يرقص فى البستان وينتقل من مكان إلى مكان فقالت نعم أيها السيد الماجد باقى لى غرض واحد وهو أن لى نديم اسمه قشمر لا يوجد مثله بين البشر حلو الصفات سريع الحركات يضحك الأحجار بأفعاله ويزيل الهموم بغرائب أعماله قد أحضرته هذه المرة فى خدمتى ليسلينى عند حزنى فإن حسن لديك أمر أن يدخل إليك ويلعب بين يديك فيزداد سرورك وانشراحك وتزول أحزانك وأتراحك فضحك من كلامها وأجابها إلى مرامها وأمر الخدام بإدخاله ليرى طرفاً من أعماله وعند وصوله إلى باب الإيوان نظر السلسلة التى ذكرها العابد نعمان فامتنع عن الدخول وأخذ يتكلم بكلام مجهول ويقول ما هذه الحيلة التى أراها وأنا خايف من شرها وأذاها فقال: ادخل وما عليك من بأس فما هى إلا سلسلة من نحاس فأبى وامتنع وهو يظهر على نفسه الخوف والفزع ولما طال المطال التفتت الجليلة إلى تبع فى الحال وقالت له بكلام الدلال: اعلم أن قشمر من أخوف البشر فإن حسن لديك ولم يصعد عليك أمر الخدام والحجاب برفع السلسلة عن الباب فرفعوها وأتوا بقشمر إليه فلما صار بين يديه سلم عليه ودعا له بطول العمر والبقاء ودوام العز والارتقاء وأخذ كليب يمزح أمامه ويلعب بسيفه قدامه وهو فى تلك الثياب التى ذكرناها والصفة المضحكة التى وصفناها فكان تارة يبحلق عينيه ويرفص الأرض بيديه ورجليه وتارة يقول: أين الفرسان الفحول؟

وأين أبو عطبول؟ وأحياناً يرقص ويضحك بلا سبب وهو راكب الفرس القصب ويسوقها بذلك الدبوس الخشب كان من أعجب العجب فاندهش تبع من أعماله واستغرب من أحواله وأقواله.

ثم قال للجليلة والله ياكاملة المعانى وشريكة عمرى وزمانى لقد أصبت فى خدمة هذا البهلول الذى يدهش بأفعاله العقول فإنه من كثرة هزله وخفة عقله جميل الصورة فصيح الخطاب سريع الكلام والجواب فقالت له: صدقت فيما نطقت فإننى لم أر رجلاً مثله بين الأنام فى الزلافة وفصاحة الكلام ومتى بقى عندك عشرة أيام يقوم بمنادمتك حق القيام ويدعوك مشروح الخاطر على طول الزمان ثم قال قشمر وهو كليب للتبع حسان إن كنت تريد أن تطرب الآن فأمر سيدتى الجليلة أن تغنيك بأبيات من الشعر فإن صوتها مليح ولفظها فصيح فقال لها هل تحسنين الغناء ياسيدة النساء؟ فقالت أى وأبيك فإن كنت تريد منى أن أغنيك وأطربك وأسليك فأمر قشمر أن يقفل الباب لئلا يسمعنا أحد الخدام والحجام فاستصوب كلامها الملك تبع وأمر قشمر أن يقفل باب المخدع فقفله وعاد بالعجل وقد أيقن ببلوغ الأمل وأنشدت الجليلة تقول من فؤاد متبول:

لقد قالت الجليلة بنت مرة شربت الخمر ما بين الأمارة
شربنا الخمر في كاسات جوهر فزال العقل وأصبحنا سكارة
بحضرة تبع الملك المسمى بحسان إذا ما شن غارة

وقد أمسيت في قبضة يديه ومن حبه شعل قلبي ناره
ألا يا حارس البستان صنه وإن فرطت الطير طاره

(قال الراوي) فلما انتهت الجليلة من هذا الشعر والنظام زاد بالتبع الوجد والغرام وسكر من غير مدام وقال: مثلك من تكون من النساء؟ فقد زاد سرورنا فى هذا المساء فلما رآه زاد به الطرب وأخذ يرقص أمامه ويلعب بالسيف الخشب فقال له تبع: عيب عليك يا قشمر أن ترقص بهذا السيف أمام الملك الأكبر فقال اعطينى إذن حسامك وأنا ألعب به أمامك فقالت له الجليلة بحياتى عليك أن تبلغه الأرب وتعطيه ما طلب فإنك ترى منه العجب فأمره أن يدخل إلى قاعة السلام فيأخذ السيف ويرجع بالعجل فأجاب كليب وامتثل وكانت الجليلة أرمت إليه أن يسرع فى العمل وعند دخوله إلى ذلك المخدع وجد سلاح تبع فلبس الدرع وتقلد بالسيف ووضع الخوذة على رأسه وخرج بالعجل كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من جبل بعد أن فتح صناديق الأحمال وأخرج الفرسان والأبطال فبقوا فى ساحة الدار وقاموا له بالانتظار وكان قد سل الحسام من غمده وهو يهزه فى يديه ثم دخل على الملك وقد احمرت عيناه وتذكر أباه فصال وجال ولعب بالسيف كما تلعب الأبطال فى ساحة القتال وبعده تقدم وهجم عليه فعرفه حينئذ الملك تبع وقد انقطع من الخوف وأيقن بالهلاك والقلعان فقال: بالله عليك ياسيد الشجعان وفارس الميدان أن تعفو

عني وتسمح عما فرط منى فقال: لابـد من قتلك كما قتلت أبى وأكون قد أخـذت ثارى وبلغت أربى فـقـال تبـع: إذا كـان لابد لك من هذا الشـأن فأمـهلنى ساعـة من الزمن حتى أفـيدك عن جـميع الأمـور والأحوال التى تحدث إلى آخر الأجـيال فقد اتضح لى الحال ووقعت فى شـرك العقال ثم أنشد وقال:

الملحمة الكبرى للتبع حسان

يقـول الـتـبـع الملك الـيـمـاني — لهـيب النار تشـعل في فـؤادي
أمـيـر كـليـب يافـارس ربـيـعـة — ويـاحـامي النـسـاء يوم الـطراد
أريد اليـوم أن أعلمـك شيـئـاً — لتـعـرف حـال أخـبـار العـبـاد
فـموسى كـان في الدنيا نبـياً — له الـتـوراة أعطت للـرشـاد
وداود النبي قـد جـاء بعـده — يبـشـر بالزبـور أهل الفـسـاد
وعـيسى ابن مـريم جاء أيضـاً — بإنجـيل الخـلاص لكي ينـادي
نبي لم يكـن في النـاس مـثـله — لأن الله اخـتـاره يـفـادي
فكم مـيت بكلمـتـه أقـامـه — وسقـوم شـفـاء من الأمـراض
وعـندي قـد تـبين بالملاحـم — بأنـك قـاتل دون العـبـاد
وبعـده شـاعـر تنزل عليكم — وتفـتن بين قـيـس في البـلاد
وأنت برمح حـسـاس سـتطعن — وعـبـدي يذبحـك بين الجـمـاد

وتكتب بدمائك على البلاطة ... لمن بعدك لتشتيت الأعادي
ويأتي أبو ليلى المهلهل ... فيصلي الحرب في كل البلاد
ويقهر كل جبار عنيد ... يضرب بالسيف في يوم الجلاد
وتأخذ للجليلة لك قرينا ... وتحظى بالمسرة والمراد
ويظهر لك غلام بعد موتك ... يسمى الجرو قهار الأعادي
يقتل إلي جنساس خاله ... وأما الزير تقتله الأعادي
وسيف ذو يزن بعدك سيظهر ... وتصحبه السعادة في العباد
ويبقى ملكه سبعون عاماً ... وبعد ذلك يطوي في الوهاد
ويظهر له ولد يدعي بدمر ... شديد البأس مرفوع العماد
فيملك في بلاد الشام بعده ... يجيب الماء من أقصى البلاد
وبعده يظهر المدعو بعنتر ... يهين الضد في يوم الطراد
وبعده يظهر الهادي محمد ... يقيم الدين ما بين العباد
وأصحابه معه عشرة كوامل ... كرام الناس سادات البلاد
أبو بكر وسعد مع سعيد ... وطلحة والزبير ابن الجياد
وعثمان مع عمر وعلي ... وعامر مع حسين أهل الرشاد
يموت الهاشمي ويصير خلف ... على الأحكام بعده بالعباد
أبو بكر يموت بلسع حية ... وبعده عمر يقتل بالطراد
علي بالسيف يرديه ابن ملجم ... يتيما انتشى بين الولاد

ولا يعــرف له قــبــر مــحــقق علىّ وجــه الثـرى بين العـبــاد
وتختلف الصحـابة على الحكومة ويحكـمـهــا حــسين بالبــوادي
وبعــده بنو أمــية ســوف تحكم وأولهــم مــعــاوية ابــن عـــاد
ومن بعـــده بني العــبــاس تحكم سنين كــثــيــرة بين العــبــاد
وبعــده الخــوارج ســوف تظــهــر فــواطمـــة الفــواحش والـعناد
يقــيــمـوا الـشــر في كل الأراضي ويملـوا الأرض طرا بالفـــســـاد
وتظهــر من بلاد الشر عـصــبــة لـيقـصـد جيشـهـا عرب البلاد
هلال وعـــامـــر مع آل قــيس يزيد وحــرب حــمــيــر مع أياد
حس أمـــيــر فــخــر البــرايا وبعـــد ديار قـــهـــار الأعــادي
وأبو زيد ابــن عــمــه ليث أروع شــديـد البـأس في يـوم الطراد
يطوفــون البـــلاد فــيــملـكوها ويــســبـــون العـــداد أهل الـعناد
ويمحـــوا العـــجم مع كـل طاغ بأرمـــاح وأســيـــاف حــداد
وقــبـــرص والجــزائر يملـكوها وبدريس الخـــزاعي والأعــادي
شــبــيب التـبــعي بالشـام يـقـتـل وتتــرك جـثـتــه فـوق الحـمـاد
وسركـيس بن تاذب سوف يـقتل بسـيف دياب قـــهـار الأعــادي
كـذا فـــرمند مع مــصــر العــدية ســتـــخـــرب دورها بين البــلاد
وبعـــده يظهـــر الأشطان ظالم خــبــيـث الأصل من قــوم شـداد
بنو أيوب تـظهـــر بعـــد منه ينيـمـون الذين من بعـد الفسـاد
ويظهـر ابــن عـثـمـان المسـاعـد بأرض الشـرق ويحـكم بالعـبـاد

ملوك الأرض تخشى من لقاهم	لأن جيوشهم مثل الجراد
عداد ملوكهم عشرة وعشرة	وتسعة بعدهم دون ازدياد
ويظهر تمرلنك من الأعاجم	وجنكز خان من قوم كراد
ويظهر بعده ملكاً قوياً	يثير الفتن الحرب في كل البلاد
طويل الجسم ذو همة عالية	له اسمين من ظاهر وبادي
يقيم السيف في الأقطار عمداً	ويجري الدم في كل البواد
ويظهر فارساً يدعي قطيعة	فعشر سنين يظلم العباد
ويظهر بعده الدجال حقاً	فتتبعه الورى أهل الفساد
يطوف الأرض من شرق وغرب	ويفعل معجزات في البلاد
ويظهر ضد المهدي سريعاً	ويسطع نوره في كل وادي
فهو عيسى المسمى ابن مريم	فيقتلك ويملك في البلاد
وبعده دابة تظهر شريعاً	فتفعل معجزات في البلاد
ونار من عدن تظهر وتسطع	فتشكوا الناس من هول النكاد
وبعده الشمس تظهر من مغيب	وتزداد الخلائق في الفساد
ويأجوج ومأجوج جميعاً	تحيط رجالهم كل البلاد
فلا نهر الفرات لهم يروى	ولا سيحون والدجلة المدد
ويغشى الأرض موتاً ياكليباً	وجوع وقتل في كل العباد
ونيران تعم الأرض طراً	على أعلى الجبال وفي كل واد

وبعــــده يغلق بـاب المراسم وباب الشـر يفـتح باقـتـصـاد
فـلا يصـعـد ولا يأتي جـواب فـذاك الـوقت يحتـرق العـبـاد
وبعــده يظهـــر من جـــهـنم وينفـخ ريح من أقـصى البـلاد
يموت الخـلق منه ليس يبــقى سـرى الرحـمن خـلاق العباد
وبعـــده يظهـــر الديان حـــقـاً إله الـعـــرش ديـان العــبــاد
فـعندي الخـفر قـد أخبـر مؤكـد بما أخـــبـــرتكم دون ازدياد
واسـمع يـا أمـيـر كليـب مني حـقـايق قـصـتي وافـهم مـرادي
ولا تفـرح عن حـالـي وضـعـفي أجـرنـي يا ملك واطلق قـيادي
واعلم يـاأمـيــر إني عــتـيــقك جـدي عـمري إلـى يوم الميـعاد

(قـال الراوي) ولما فرغ الملك تبع من هذه الملحمـة وسمع كليب ما فيها من الأخبـار المتقدمة والمتأخرة، تعجب غاية العـجب وقال لست أعفو عن قطع رأسك وإخماد أنفاسك لأنك افتريت وظلمت وتعديت ثم أجابه بهذا القصيد على سبيل التهكم والتهديد:

يقـول كليب قـهـار الأعـادي كـلام أشـد من ضـرب الهنادي
أنا قـد صـرت هذا اليـوم حـاكم أتانـي الـســعـــد مع نيل المراد
أيا تبـع إلينا قـد جـيت عـاجل قـتلت أبي وخـربت البـلاد
فـمـا أبقـيت قـيـمـة للأمـارة وقـد ألبـسـتـهم ثوب الـسـواد
هتكت الأرض ياتـبع بفـعـلك وصـيـــرت الأنام لك أعــادي
جـعلت رجـالـنا تشـبـه نسـانا وأذللـت الأمـــارة فـي البـــلاد
فــــــوالله ثـم والله ثـم والله إلـه خـــالق كـل الـبـــوادي
فلـست بـراجع عـن قطـع رأسك ولـو ملـكت كـل البــــوادي

(قال الراوي) فلما فرغ الأمير كليب من كلامه وفهم تبع فحوى قصده ومرامه قال: بالله عليك أيها السيد المحترم، أن تعفو عني وتجعلني من الخدام فقال كليب: لابد من قطع رأسك يامهان ولكن أسألك كيف قتلت أبي غدراً وبالميدان فقال تبع: إذا كان لابد لك من ذلك يافارس المعارك فأمهلني ساعة حتى أخبرك عن قتل أبيك وأتودع من هذه الدنيا قليلاً ثم أنه أبدى حزناً وعويلاً وأشار يقول من فؤاد متبول وعمر السامعين يطول:

قال الملك تبع حسان ... ظلمني دهري دون الناس
يابن ربيعة يامخدوم ... أنت أمير شديدالبأس
طويل الباع بيوم نزاع ... عفيف شجاع ثقيل الرأس
تسألني عن قتل أبيك ... فكل بناية لها أساس
فلما جيت لأرض الشام ... أتى للقانا كل الناس
أتاني كل أكابر قيس ... وكل أمير لدي بأس
إلا أبوك فقد خالف ... ولم يفعل كباقي الناس
فزاد الغيظ بوسط القلب ... أمر بشنقه للحراس
وهذا بأمر الله مكتوب ... فوق جبينه بأعلى الرأس
وأنا بقيت بهذا اليوم ... وحيد فريد بلا إيناس
أريد العفو عما جنيت ... بحياة عمك مع جساس
إني كنت زعيم القوم ... وحكمي نافذ بين الناس

فلما أتاني وعد الله بطل العزم وظني حاس
دعتني الجليلة بالحيلة وغابت عني كل الناس
وهذا أمر الله محتوم وأمره نافذ فوق الناس

(قال الراوي) فلما فرغ تبع من هذا الشعر والنظام قال له كليب: لابد من قتلك بحد الحسام حتى ترتاح الناس من شرك وتأمن عاقبة غدرك، ثم ضربه بالسيف على عاتقه خرج يلمع من علائقه فوقع على الأرض قتيلاً وفى دمه جديلاً فلما رأته الجليلة قد مات زادت بها الأفراح واعتنقت ابن عمها وقبلته وقالت له: مثلك من تكون الفرسان ياليث الميدان ،فشكرها كليب وهنأها بسلامتها وزاد في إعزازها وكرامتها ثم خرج من المخدع وأعلم الفرسان بقتل الملك تبع وقال لهم: لقد بلغنا المراد فكونوا على حذر واستعداد لامتلاك البلاد فقالوا: نحن بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك ثم وضع رأس الملك على رأس السنان وخرج الأبطال والفرسان وطافوا فى شوارع البلدة وضربوا من وجدوه بالسيف المهند وهم يقولون: عن فرد لسان هذا رأس سيدكم حسان فقد عدمناه وقتلناه وأرحنا الناس من شروه وبلاه فمن عصى هلكناه ومن أطاع أبقيناه فى قيد الحياة وله منا الأمان على طول الزمان.

(قال الراوي) فكانت أكثر أهل الشام تكره التبع لظلمه وجوره وتتمنى هلاكه فاجتمعت العساكر والأعيان وطلبوا من كليب الأمان

وإنهم يكونوا من جملة الرعايا والغلمان على طول الزمان فأجابهم كليب إلى ذلك الطلب ورفع عنهم السيف الأحدب ووعدهم بالجميل والخيرات وسمح لهم بخراج عشر سنوات فدعوا له بطول العمر ودوام العز والنصر ثم اجتمعت بنو مرة وأكـابر العشائر وقواد العساكر وألبسـوه تاجا مرصعا بالجواهـر ثم أجلسوه على كـرسى المملكة وجلس بقربه وزير الميـمنة وهو نبهان وزيـر التبع حسان ووقفـت أمامه الحجاب والأمـراء والنواب فحكم معـاملا الناس بالجـود والكرم ومنصفـا المظلوم ممن ظلم وفى الليلة الثـانية اجتمعت سادات القبيلة وزفوا عليه ابنة عمه الجليلة وقد كنا ذكرنا فى أول السـيرة عن أوصـاف هذه السيـدة الخطيرة ومـا احتـوت عليه من الحـسن والجمـال والفضل والكـمال فاعـتنقا اعـتناق الأحباب وزال عنهمـا الغم والاكـتئـاب وباتا فى حظ وانشـراح إلى وقت الصـباح وفى الـيوم الثـانى وردت إليه المدائح والتهانى واشتهر ذكره فى البلدان وهابته ملوك الزمان.

(قال الراوي) وكانت الجليلة قد طلبت من كليب أن يبنى لها قصرا من أجمل القصـور وينشى فيه بستـان يحوى جميع أنواع الزهور فـأجابها إلى ذلك ووعدها ببناء قـصر لا مثيل له فى جمـيع الممالك ثم إنه نزل إلى الديوان وجـميع الوزراء والأعيـان وأعلمهم بذلـك الشأن فقـال له الوزير نبهان اعلم ياملك الزمـان أنه لا يوجد فى هذه الأيام من يقدر أن يبنى لك ذلك القـصـر طبق المرام إلا مـعمـر المختـص بالريان ملك مـصـر لأنه هو

المشهور ببناء القصور الحسان وهو الذى عمر قصر تبع حسان فأرسل كليب واستدعاه إليه ولما حضر بين يديه قبل الأرض وسلم عليه فقال له كليب أريد منك أن تبنى لى قصر من القصور الحسان لا يوجد مثله فى جميع المدن والبلدان ويكون له جنينة جميلة المنظر تحتوى على جميع الأشجار والخضر فإن أتقنت الصنعة طبق المرغوب نلت المقصود والمطلوب فأجابه بالسمع والطاعة وباشر فى بناء القصر فى تلك الساعة.

(قال الراوي) ولما اشتهر قتل تبع فى اليمن تواصل الخبر إلى صنعاء وعدن هاجت الرجال وكثر القيل والقال وكان لـلملك تبع ابن عم من الأمراء المشاهير يقال له عمران القصير وكان شديد البأس قوى المراس فلما بلغته تلك الأخبار صمم على غزو بنو قيس بعسكر جرار فجمع العساكر والجنود وفرق الرايات والبنود وركب فى مائة ألف مقاتل وجد فى قطع المراحل قاصدا بلاد الشام بكل سرعة واهتمام ولما بلغ كليب هذه الأخبار استعد للحرب والقتال وخرج للقائه بالفرسان والأبطال ولما التقى الجيشان أمر كليب أن تقدم الفوارس إلى ساحة الميدان وأخذ ينشطهم بالكلام على قتال الأخصام فهاجت الشجعان وتبادرت للضرب والطعان وكان الأمير كليب أول العسكر كأنه الأسد الغضنفر وعلى رأسه البيارق والسناجق ثم التقت الرجال بالرجال واشتعلت بين الفريقين نيران الحرب والقتال حتى عظمت الأهوال فلله در الأمير كليب بطل الأبطال وما فعل

فى ذلك اليوم من الفعال فإنه هجم هجوم الأسود وانطبق على العساكر والجنود بقلب أقوى من الجلمود فبادر فرسان الكفاح وخطف المهج والأرواح وما زال الدم يبذل والرجال تقتل إلى أن ولى النهار وأقبل الليل بالاعتكار فافترقت العساكر عن بعضها البعض وباتوا فى تلك الأرض وعند الصباح رجعوا إلى الحرب والكفاح فبرز الأمير عمران إلى ساحة الميدان فصال وجال وطلب براز الأمير والأبطال فأراد كليب أن يبرز إليه فمانعه حجابه وقالوا أيها الملك أن فينا أبطالاً وفرساناً تستطيع أن تحاربه ثم برز إليه فارس من الصناديد يقال له ميمون بن الرشيد فالتقاه الأمير عمران بقلب أقوى من الصوان ولم تكن إلا ساعة من الزمان حتى استظهر عمران وطعن ميمون بالرمح فوقع قتيل وفى دمه جديل فأخذ سلبه وحصانه ثم قوم سنانه وتقدم إلى معركة الحرب وقال أين فرسان الطعن والضرب اليوم تبان الفروسية وتعرف شجاعة اليمنية والقيسية فبرز إليه آخر فأذاقه الموت الأحمر وما زالت تبرز إليه الرجال وهو يجندلها على بساط الرمال حتى قتل سبعة من الأبطال وكانوا من أكابر السادات قد اشتهروا فى الحرب والغارات واستمر القتال على هذا المنوال مدة تسعة أيام وهم فى إبراز واقتحام وفى اليوم العاشر خرج الأمير مرة لقتال عمران ولما صار فى الميدان تقنطر عن ظهر الحصان فأدركه ابنه همام وجاء به إلى الخيام فعند ذلك برز إلى عمران الأمير حساس وصدمه بقوة قلب وشدة

بأس غير أنه لم ينجح فى قتاله ورجع عند المسـاء عربه ونزاله فوقمت هيبة الأمير عـمران فى قلوب الفرسان والشـجعان فاستـعظم كليب ذلك الأمر واشتعل قلبـه بلهب الجمر وقال مـا لريد إلا عمر فإذا كـان الصباح بارزته فى معركـة الكفاح لأنه طغى وتجبر وقتل منا كل أسـد غضنفر وبات تلك الليلة وهو فى غم شـديد وقلق ما عليـه من مزيد فمـا أقبل الصـباح ركب كليب الحصـان وأعتقل بالسيف والسنان وبرز لسـاحة الميدان لقتـل الأمير عمـران الذى برز فى ذلك اليوم وهو ينادى أين الأبطال الصـناديد لا يبرز إلا كليب المحتال الذى قتل الملك تبع بالغدر والاحتيال فما تم كلامه حتى صار الأمـير كليب قدامـه وصدمه صدمـة منكرة أشد من صدمـات عنترة فقـال له عمران من تكون من الفرسـان فقال له اعلـم أيهـا التيس أنى ملك على بنى قيس فسوف ترى مني ضرباً يفك الحديد ويذهب أبصار الفرسان لما غدت تبع بالحـيلة مع ابنة عمك الجليلة فـقال كليب أمـا علمت ياقرنان بأن الرجال عند أغـراضها نسـوان وإنى ما قتلت الملـك تبع إلا لغدره وقلة حياه وكـثرة شره فإنه قـتل والدى وكان عونى ومسـاعدى وحق هذا الذى أوجب ذلك اليوم سـألحقك به وأسقيك كـأس المهالك فلما سمـع عمران من كليب هذا الكلام اشتد بينهم الخصام فكانا تارة يتقدمان وتارة يتأخران كأنهـما أسدان درغامـان فانبهرت من قـتالهما الفـرسان وأحدقت إليهـما الأبصار مـن اليميـن واليسار واسـتمـرا على ذلك الحال إلى قـرب الزوال حتى تعـجب عمران من ثبـات كليب أمامه لأنه كـان يظن أنه لا يوجد فى

الدنيا من يقدر أن يقف قدامه فعند ذلك قاربه وفاجأه وطعنه بالرمح قاصدا هلاكه وفناه فخلى كليب من الطعنة فراحت خاية بعد ما كانت صاية ثم هجم كليب وقال خذها ياعمران من فارس الميدان وليث الحرب والطعان وضربه بالسيف على عاتقه خرج يلمع من علائقه فوقع على الأرض قطعتين وحان عليه غراب البين وبعد ذلك حملت العساكر على بعضها وتقاتلت بالسيوف والخناجر فكثر القتل والجراح وجرى الدم وساح وزعقت النفوس والأرواح من ضرب السيوف وطعن الرماح وكان بعد قتل الأمير عمران تضعضعت من عساكر اليمين الأركان فولوا الأدبار وركنوا إلى الهرب والفرار فتبعهم كليب بالعسكر وقتل منهم أكثر من عشرة آلاف نفر وغنم غنائم عظيمة لها قدر وقيمة وما زال تابع آثارهم حتى دخل ديارهم فخرجت إليه أكابر البلاد طالبين العفو والأمان فأجليهم كليب إلى ذلك الشأن وارتد راجعاً إلى الشام بعد أن رتب عليهم خراجاً يدفعونه فى كل عام فدخل القصر بالعز والنصر فاجتمع بابنة عمه الجليلة وباقى سادات القبيلة وطاب له الوقت وزال عنه المقت ثم بعد ذلك بعشرة شهور تم بناء ذلك القصر المذكور فكان من عجائب الزمان والأوان لأنه كان فى غاية الإنفاق ولا سيما البستان فإنه كان كفردوس الجنان فيه من جميع الأشجار والفواكه والأثمار والمياه الغزيرة والزهور الكثيرة حتى أعجب كليب به وأنعم على بانيه وفرشه بالفراش الفاخر

الذى يبهر النواظر ويحير العقول وجعل أبوابه وشبابيكه من ذهب ورصعها بأنواع الجواهر المتخب ثم نقل ابنة عمه الجليلة إليه وكانت قد ولدت سبعة بنات مثل البدور الطالعات قربتهن بالدلال والعز والإقبال فاتفق له ذات يوم من الأيام أن زاره مرة ابن أخيه كليب فى جماعة من بنى الأعجام وبعد أن دار بينهم الكلام قال مرة يا ابن أخى كثرت عليك الرجال والأغنام لسبب كثرة المواشى والازدحام فمرادى الآن أن أرحل عنك بأنعامى ورجالى وباقى أموالى ولا شك بأننا فى هذا الرحيل والانتقال تتحسن بنا الأحوال ونحصل على راحة البال فقال كليب أفعل ياعمى ما تحب وأنزل فى أى مكان تريد قرب الديار فإن البلاد بلادنا ونحن ملوك الأقطار.

(قال الراوي) فرحل مرة بقومه ورجاله ونوقه وجماله ونزل فى واد كثير النبات يبعد مسافة تسع ساعات وكان مرة قد شاخ وكبر فى العمر فأقام الأمير جساس على بنى بكر فكان يحسن إليهم ويحكم بالإنصاف عليهم فشاع ذكره واشتهر أمره فكانت تقصده الشعراء والفرسان وهو يكرمهم ويخلع عليهم الخلع الحسان ولم تكن إلا سنة من الزمان حتى صار يحكم على مائة وعشرين ألف عنان هذا ما كان من أمر جساس وأما كليب الفارس الدعاس فإنه كان فى سنوح الفرص يخرج إلى الصيد والقنص وكان له عدة إخوة كل منهم مشهور بالمروءة والنخوة وكان من

جـملتـهم المهلهل الملقب بـالزير وكـان جميل الصـورة كـأنه البـدر وهو صاحـب هذه السيـرة والوقائع المشـهورة وكـان فى تلك الأيام ابن عـشرة أعوام وكان فى الشجاعة كسبع الغاب لا يخاف من أحد ولا يهاب فصيح الكلام منعكفا عل شـرب المدام وسماع الأصوات والأنعام ينشـد الأشعار البديعة ويأتى بالمعانى النفيسة الرفيعة وكان كليب لحبه لا يعترضه بأمر من الأمور بل يقابله بالـفرح والسرور وكان الزير يتبـاهى بشجاعته أمـام أخيه وأنه لا يوجد فى الفـرسان ما يضاهيه فـقال له كليب فى بعض الأيام أراك يا أخى مشتـملا بالملاهى وشرب المدام فقلبك خالى من الهـموم والأحزان كـأنك لا تسـأل عن تقلبـات الزمـان فـمن الواجب أن نحـسب حسـاب العواقب لأن الدهر دولاب سريع الانقـلاب إذا أضحكك يوما أبكاك سنة وليس على أحد جـميل ولا حسنة فقال المهلهل مـا دمت أنت فى الوجود وأنا فى خـيـر لا أحـسب حـسـاب الغـيـر ولكـن إن جـار عليك الزمـان وأحـاطت بك الحسـاد والخـوان فـأنا أرد عنك الأثقـال وأجندل أمـامك الأبطال أنا الأسد الـغالب فارس الكتـائب والمواكب أنا قهـار الأعادى إذا نادى المنادى فتبـسم كليب من كلامه وتركه مـشتغلا بشـرب مدامه وارتد راجعاً إلى الديوان وقد راق له الزمان.



الزير سالم وهو معتلى ظهر الأسد

(قــال الـراوي) وقد اتفق بعـد ذلك بأيام أن أولاد مرة اجتمـعوا مع بعضـهم فى الخيام وضـربوا تختا من الرمل لـيروا ما يحل منهم ومـا يجر عليهم، ما يصيـبهم فبان لهم أن الأمير جسـاس لابد أن يقتل الأمير كليب ويظهـر الوزير ويأخذ تارة بدون ريب ويقـتل منهم كل أميـر وجبـار وبعد وقائع تسـتحق الاعـتبارر فـاعتراهم القلق والكدر وأجـمع رأيهم على أن يقتلوا الزير قبل أن يكبر وكان من جملتهم الأمير سلطان بن مرة فأنشدهم يقول:

على مـا قـال سلـطان ابن مـرة مـبـيـد الضـد في يـوم النزال
تبـين عندنا جـسـاس يقـتل كليـب بن ربيـعـة ولا يبـالي
ويأتـي الزير بـعـده يـا أمـارة يشـتـت جـمـعنا بين الجـبـال
ويمحـي ذكـرنا مـن كل أرض ويفـنينا ويـسي الـعـيـال
هلمـوا نقـتله ونبـيـد اسـمـه ونسلـم من تصـانيف الـليـالي
فـيـلزم أن تـروح إلى الجـليـلة وتعلـمهـا على مـا قـد بدالى
فـهـذه أخـتـا ليـست غـريبـة فـتـسـعـفنا على نيل الأمـاني
جلـيلة عـارقـة في كـل فن وتعـرف في الزيارج والـرمـال
فـقـومـوا كـلنا نذهب إليـهـا ونقـضـي شـغلنا قـبـل الوبال

فلما انتهى السلطان من هذا الشعر والنظام وسمعه الأمير جساس ومن حضـر من أبناء مرة الكرام استـحسنه جمـيع القوم وركبـوا من ذلك اليوم

وخرجوا من النبيلة قاصدين أختهم الجليلة وكانوا ثلاث وأربعين ولدا ذكر كل منهم أسد غضنفر ولما وصلوا إليها دخلوا وسلموا عليها فتلقتهم بالترحاب والإكرام وأقاموا عندها ثلاثة أيام ثم قالوا لها: عن فرد لسان قد ظهر لنا فى الرمل بأنه يظهر للزير شأن وأى شأن فيقهر الأبطال والشجعان ونهاية ملوك الزمان ويعاملنا بالجور وسوء الأدب وتنحط منزلتنا بين ملوك العرب فاتفق رأينا على قتله قبل أن يكبر وأتينا لنعلمك بالخبر فما هو رأيك فى هذا الأمر المنكر فقالت: إذا قتلتموه فينكشف الأمر ويأخذ كليب بثاره منكم فيزداد الشر وما دام الأمر كذلك فأنا أجعل كليب يلقيه فى المهالك ثم أنشدت تقول:

مقالات الجليلة بنت مرة	تعالوا إخوتي اصغوا لقول
تريدوا قتل أبو ليلى المهلهل	أخوه كليب خلفه مثل غول
ومن خلفه غدير وزير قان	سباع الغاب في يوم المهول
وست وأربعين بنو أبيه	يجوكم راكبين على الخيول
وتركب خلفكم كل الفوارس	فوارس تلقب مثل الفحول
ولكن سوف أرميه بحيلة	تحير كل أصحاب العقول
ويبقى كليب يقتله بيده	ويجعله طريحاً على السهول

(قال الراوي) فلما فرغت الجليلة من شعرها ونظامها شكرها أخوتها على حسن اهتمامها وركبوا ظهور خيولهم وراحوا فى حال

سبيلهم فصبرت الجليلة إلى وقت العصر حتى حضر كليب إلى القصر وكانت قد شقت جميع ما عليها من الثياب وأظهرت الغم والاكتئاب فلما رآها كليب على تلك الحال تغيرت منه الأحوال لأنه كان يحبها محبة عظيمة ويودها مودة جسيمة لحسنها وجمالها ودلالها ولا سيما أنها ابنة عمه ومن لحمه ودمه فقال لها علامك ياجليلة مالى أراك فى هذه الوبيلة فسكت من فؤاد متبول وأجابته بهذه الأبيات تقول:

مقالات الجليلة بنت مرة   كليب أنت قيدوم السرايا
وتحكم في القبائل والعشائر   وفي كل المدائن والقرايا
وحكمك نافذ في كل أرض   وتخدمك الملوك مع الرعايا
وإني بنت عمك يا مسمى   ومثلي ليس يوجد في البرايا
أتاني الزير أخيك في غيابك   يريد فضيحتي بين الصبايا
قبضت عليه من عنقه فولى   وراح بسرعة وسط الخلايا
ألا ياأمير قل كيف تعمل   فاقتله وأرده المنايا
وإن لم تقتله حالا فإني   أروح اليوم من وسط الخبايا
وتبقى الناس تشتم في قفايا   وتبلي بالدواهي والرزايا
وهذا الأمر لا يصلح لمثلك   كريم الأصل عكاز المطايا
فاقتله واخلص من بلاه   ولا تخشى أثام ولا خطايا
فقتل الزير أصوب من حياته   لأنه خائن دون البرايا

فلما سـمع كليب منها هذا الشـعر والنظام غـاب عن الصواب وأرسل أحد الرجال ليأتيـه بأخيه الزير فى الحال فذهب الرسول واستـدعاه فامتنع عن الحضور لأنه كان فى ذلك الوقت يشرب الخمر.

﴿تم الجزء الثانى ويليه الجزء الثالث﴾

★★★★

الجزء الثالث

من قصة الزير أبو ليلى المهلهل

وجلسائه وهم فى فرح وسرور فرجع الرسول على الأثر وحدث الأمير كليب بذلك الخبر فازداد كدر على كدر وأرسل الرسول إليه ثانياً فما حضر فعند ذلك سار كليب إليه وقد عظم الأمر لديه فلما دخل عليه نهض الزير على قدميه فسبه كليب وشتمه وضربه حتى آلمه ثم نزع عنه ثياب الحرير حتى صار معيرة للكبير والصغير وأرسله مع الرعيان ليرعى النوق والجمال ورجع إلى الجليلة وأعلمها بما فعل مع أخيه المهلهل فلما رأت أنها لم تبلغ الأمل زادت غما وكدرا وأخذت تدبر على هلاكه بحيلة أخرى فقالت ذات يوم لكليب: أما تخشى من الهتيكة والعيب أما فى رأسك نخوة وناموس من جهة أخوك المهان المعكوس فقال لها: ما معنى هذا الكلام وما هو المراد بهذا التوبيخ والملام قالت: بلغنى من بعض الغلمان الذين تدورون مع الرعيان بأنهم فعلوا مع القبيح وأنت جالس مستريح ليس عندك علم ولا خبر وقد تحدث فيك جميع البشر ثم شرحت له واقعة بهذا الشعر والمقال:

تقــول الجليلـة يا مـــحـــفــوظ أتانـي علـم بحـــال أخـــوك
وشـــاع الـعلم بـكل الـقـــوم غنـى الناس مع الـصـــعلـوك
وصـــارالـناس بقـيـل وقـــال وكل البـــدو عليك ضـــحـوك
أنت أمـيــر كـبـيــر القــوم وقـيس وحـمـيـر قــد هابوك
فـكيـف يكـون أخــوك الزيـر وقـومـك من أهله يحـــافــوك
كـــيـف بقـــالك رأس يـقـــوم والرعـــيـــان لقـــد عــــابوك
فـــاقـتل أخـوك فـي سـيـفك وإلا قـــومك قـــد لامـــوك
فكـل العـــالم تحكـي فـيــــه يقـولـوا الزير بقى مــهـتـــوك
فـــهـــذا الأخ ومـــثلـه ألف في يوم الـضـيق فـمـــا عـــانوك
أخـــاف يقـــولـوا كل أهـله مـــثلـه والعـــالـم يشـكوك

فلما فـرغت الجليلة من هذا الشعـر ووقفت كليب على حـقيقـة الأمر التهب فؤاده واضطرب من شدة الغيظ والغضب وأخذته الحمية وعصفت فى رأسه نخوة الجاهليـة وقد صمم النية على أن يقتل أخوه ويسـقيه كأس المنية فقالت الجليلة لا تقتله ياأميـر لأن كلام الناس كثير فالأوفق أن تأخذه إلى وادى العـبـاس وهو مكان منقطع عن الناس كـثير النـمور والأسـود فتقـتله هناك وتعود فتفتـرسه الوحوش والأساد وتتخلص من كـلام العباد فقال هذا هو الصـواب والأمر الذى لا يعاب ومن وقتـه ركـب ظهر جواده واعتـد بآلة حـربه وجلاده واسـتـدعى الزير إليـه فلما تمثل بين يديه قـال له

مرادي أن أذهب للصيد والقنص لأزيل ما بـقلبي من الغصص فسر أمامي فامتـثل أمره وسار وجد في قطع البراري والقفـار حتى وصلا إلى الوادي المذكور وهـو مكان مهـجور وما زالا سـائرين حتى صـارا في وسط ذلك المكان وإذا بجواد كليب قد شخـر ونخر وضرب الأرض وتأخر وإذا بسبع من بطن الوادي قـد ظهر فلمـا رآه الأمير كليـب هجم عليه بالجـواد ورماه بالرمح فاخطأه فتبعه الأسد فـانهزم كليب من أمامه خوفاً من العطب فلما رأى الزير أخاه قد هرب تـقدم نحو الأسد بقلب أقوى من الحـجر. وطعنه بخنجر كان معه فقده نصفـين فأخرج قلبه فأكله وصاح على أخيه ارجع يا أخي ولا تخاف فـرجع كليب وهو يتعجب من أفعـال الزير فنزل عن ظهر الحصان وقبله بين عينيه وصـفا له قلبه وقال في سره: من يكون له أخ مثل هذا ويفـرط فيه وإن عـاش هذا الغلام يكون مـن عجائب الزمـان ثم رجع وإياه فلما رأته الجليلة قالت: لماذا ما قتلته فـأخبرها بواقعة الحال وكيف أنه قتل الأسد والذي يكون مثله لا يستاهل القتل بل يجب له الإكرام ثم أشار يقول:

يقـول كليب من صـفـوة ربيـعـة	شـديـد البـأس ذو عـزم رجـيـح
كـريم الأصل سلـطان مـتـوج	وفي طريق الكرم مـاني شـحـيح
ألا يـابنـت عـــمي يـاجلـيلـة	ألا ياصـاحـبـة الوجـه المليح
نظرت اليـوم من سـالم فـعـالا	يشـيـب لهـا الطـفل الطـريح
لقـاني السبع مـن خلفي وزمجـر	فـصـار الزير من خلفـه يـصـيح

فكر السبع نحو الزير هاجم لمعاد الزير واقف مستريح
ولما قد دنا منه وقارب فغار عليه كالسبع الجريح
طعنه الزير بالخنجر فقده وألقاه على الغبر طريح
فلما شفت هذا الفعل منه علمت بأنه فارس رجيح
رجعت إليه من فرحي سريعاً وصحت عليه في قول مليح
مهلهل يا مهلهل يامهلهل فأنت اليوم أولى بالمديح

(قال الراوي) فلما فرغ كليب من شعره زاد كدر الجليلة وقالت له وهى تبكى ما دام الأمر كذلك فإنى سأذهب نهاراً غداً إلى بيت أهلى وأعلمهم بما ظهر من الزير فى حقى فهم يقتلوه لأنى لست أأتمنه على نفسى إذا بقيت عندك لأنه لابد أن يغدر بى لأن عيونه محمرة على وأنت بعد كل هذا ليس لك نخوة ولا ناموس قال اذكرنى الله ياجليلة ودعينا من هذا فكيف أسمح بقتل أخى وهو نم لحمى ودمى ولا سيما أنه شديد ومن أشجع الناس فإذا قتلته افتضحت بين العرب وتحدث فى الناس فقالت لابد من قتله على طريقة غير هذه وهو أن نأخذه إلى بين صندل السباع وتدليه بحبل على نية أن ينشل الماء وحينئذ تقطع الحبل فيسقط فى البير ويموت ولا يعلم به أحد وأشارت تقول:

ما قالت الجليلة بنت مرة ودمعي فوق وجناتي غراره
أخوك الزير ماهو كثير فالح يلعب مع وليدات الصعاره

أخوك الزير شوفه مثل الضبع كما المجنون يلعب بالحجاره
ياريته ما يشوف الخير دائم كأنه شبه ضبع في مغاره
ياليت الزير يقص من حداكم ولا يبقى تظهر له خباره
ألا يا حيف هذا من ربيعة وتعدوه ببنات الأماره
ترى خمسين حليفة مثل أبيك أماره من أماره من أماره
يبقى الزير هو بدل فيكم لينه لا بطلب من الحراره
قتل الزير أحسن من حياته ولا تهتك ما بين الأماره
اقتل هل ردى لا عاش عمره وأهيفه في حسامك مثل ناره
أنت ابن عمي نور عيني وشورى إليك ما هو فشاره
ما قالت الجليلة بنت مرة وناري عالقة من ذي شراره

(قال الراوي) وكان كليب يحب الجليلة محبة عظيمة ولا كان يخالفها فى شيء فلما ألحت عليه وافقها على ذلك إكراما لخاطرها فنهض ثاني الأيام وركب جواده وأخذ فى صحبته أخوه الزير ومائة من الفرسان وسار بهم إلى بير صندل وعند وصولهم قال كليب: يا سالم خيولنا قد عطشت فمرادنا أن ننزل ونسقيها وأنت تنزل إلى البر فتملأ دلو فقال حباً وكرامة ياأخي فدلوه فى حبل وأخذ يملى الأدليلة وهم ينشلوا ويسقوا حتى ملأوا الأرض الذى على باب البير وجاؤا بالخيل ليسعوها فتزاحمت على بعضها البعض وأخذت بالصهيل والازدحام فعجز كليب وجماعته

عن ردها على بعضها البعض فسمع الزير وهو بالبير صهيل الخيل وجعيرها فصرخ عليها صوتاً مثل الرعد القاصف حتى ارتجت منه الوديان واضطربت منه قلوب الفرسان فجفلت الخيل وتأخرت وانفصلت عن بعضها فلما رأى كليب ما فعله أخوه سالم تعجب غاية العجب وندم على ما فعل وفي الحال أخرجه من البير وازدادت محبته عنه ورجع إلى الديار فلما رأته الجليلة غابت عن الوجود من شدة الغيظ وقالت لكليب بارك الله فيك أهكذا المفارقة فقال والله ياجليلة من كان هذا الفعل فعله يحرم الله قتله ثم حدثها بما جرى وكان يقول وعمر السامعين يطول:

يقول كليب من شعر نفيس	قصيدة ما نظمه قط قائل
جليلة أسمعي يابنت عمي	أرى عقلك بهذا اليوم زائل
أأقتله ليشفي اليوم قلبك	ومنه قد ظهرت لنا فعايل
سباع الغاب هابت من لقائه	كذلك الخيل صيرها جفايل
ثلاث ألوف يلقاهم بصدره	من الشجعان فرسان القبايل
تقول أقتله وارتاح منه	فقولك ما هو قول عاقل
فإني لا أبيعه بألف مثلك	ولو مهما جرى منه من فعايل
أراكي تطلبي قتله سريعاً	فقولك عنه ليس له دلائل
فقولك ياجليلة قول باطل	فحاش الزير أن يتبع رزائل
فقلي من كلامك لا تعيدي	أيا بنت الأماجد والأصايل

فلما فرغ كليب من شعره ونظامه وفهمت الجليلة فحوى كلامه اغتاظت فى نفسها ولكنها أظهرت له السرور وقالت له: إن قصدى امتحانك لأرى هل أنت تحبه أو تبغضه لأنه فصيح اللسان ومن أشد الفرسان وأخذت تمازح كليب بكلام النفاق حتى صفا قلبه وراق ثم إنها صبرت مدة أيام وبعد ذلك أظهرت عن نفسها إنها مريضة فرقدت فى الفراش وقالت لكليب: إن لى حاجة إليك ولا يقدر عليها سوى أخوك الزير فقال :وما حاجتك قالت: أريد مقدار كاسين من حليب السباع لأنه يقوى الأعصاب وأنا فى غاية الضعف والعنا وقد وصفت دايتى هذا عاجلاً لمرضى وقالت: إن هذا الدواء يأتى بولد ذكر وأشارت تقول:

مقالات الجليلة بنت مرة ... كليب أسمع لي يا أبا اليماما
أنت اليوم ملك البوادي ... ياليت الحق بك ياأمير داما
وتحكم ياملك شرقا وغربا ... من أرض الروم للكعبة دواما
وتحت يداك ألوف من العساكر ... وكم حاكم وكم فيه مقاما
وكم أبراج من ذهب وفضة ... جواهر تشرق جناح الظلاما
ولا لك طفل تحيي فيه ذكرك ... سوى سبع بنات مثل الحماما
أتاني منك سبع بنات أتاني ... ولاجاني منك ذكر غلاما
وقالت دايتي لي يا جليلة ... معي لك علم يبري السقاما
لبان لبوى بصوفة أحمليها ... تروحي في ذكر حامل قواما
فنادى الزير وأخبره سريعاً ... أدام الله عمرك بالسلاما

(قال الراوي) فلما فرغت الجليلة من شعرها ونظامها صدق مقالها وأرسل فى الحال يطلب أخاه الزير فدخل وسلم عليه وقبل يديه وقال بقلب جسور أنا عبد مأمور ولا أخالفك بأمر من الأمور فأعلمه كليب بالواقعة وقال أريد منك يا أخى أن تأخذ هذا الحق الصغير وتملأه من حليب لبوة فقال على الرأس والعين ولكن يا أخى أعطنى سيف أتسلح به خوفاً من هجوم السباع فقال كليب للجليلة أن تعطيه السيف فقالت له ألاتستحى يازير أن تطلب سيف وأنت فى هذه الشجاعة فخجل وأطرق رأسه وسار من وقته وساعته وقد تأكد أنها تريد هلاكه وضرره وما زال يسير حتى وصل إلى غابة كبيرة كثيرة الأشجار والصخور وليس معه سوى سكين وعصاه فبينما هو ينظر من خلف وقدام وإذا بأسد قد ظهر وهو هائل المنظر وعيناه تقدح بالشرر.

فلما اقترب منه قبض عليه الزير ونشله بقوة ساعده وزنده ولوحه بيده مثل المقلاع وخبط به الأرض فرض عظامه ثم نزل عليه بالعصا حتى قتله وأراد أن يجز رأسه وإذا بلبوة قد أقبلت عليه ومن خلفها سبعة أشبال فلما رأت ذكرها قد مات أحمرت عيناها فأراد الزير أن يلاعبها قليلاً وقد علم إنها مغتاظة فجعل نفسه إنه خائفاً منها فركض من أمامها فتبعته وكان قد وصل إلى شجرة كبيرة فطلع إليها وبقيت هى تنظر إليه وتهمهم ثم أقبلت أشبالها وجعلوا يرضعون من ثديها فوجد الزير لها ثدى مثل الحق فقال

هذا الذى طالبـة منى أخـى ثم أراد النزول فـقـال إن نزلت تفـتـرسنى من رجلى ثم رمى نفسه من الشجرة فجاء راكباً عليـها فقبض عليها من رقبتها وألقى رجليه على بطنها بقوة شديدة حتى لم يعـد لها سبيل أن تتحرك من مكانها ثم سحب السكين وهـو يضحك عليها وينحرها كمـا ينحر الجزار الغنم وملأ الحق من حليبها وقطع رأسها ورأس الأسد بعد أن ربط أشبالها بالحبال وساقهم أمامه كالكلاب فلـما أقبل إلى الحى ولاقته فرسان العرب وأصحـاب المناصب والرتب واسـتعظمـوا ذلك الأمر واعـتراهم العـجب وعند وصوله إلى القصر سمعت الجليلة الضجة فطلت برأسها من الشباك فرأت الزير وهو مـقبل على تلك الحـالة فالتهب قلبـها بنار الغـضب لأنها كـانت تظن أنه يمـوت ويـهلك ثم دخل الزير على الجلـيلة وكـان كليب جالس مـعها فـسلم عليهـا وأرمى الرؤس أمامهـا وقدم الحق لامرأة أخـيه وقال لهـا هل تجدين شيئـاً آخر حتى أقضـيه فقالت: بارك الله فـيك ياسبع الرجـال فـإنك تستـحق المدح والثناء وكـان كليب لما رأى رؤس الـسبـاع تعجب من قسـوة قلبه وشدة بأسه وقال له كـيف فعلت وإلى أين وصلت فأشار الزير يقول:

يقــول الزير قـــهــار المـواكب رمـانـي الدهر في كل المصــائب
فـلا تسـمـع أخي قـول الأعـادي لأن الصـد شـوره لـيس صـائب
يشــوروا عليك في رأي وخـيم ليـسقـونك أخي كأس العـواظب

فـأهل العـقل لا تـسـمع لأنثى لأن كـلامـهـا لا شك كـاذب
فـأعلم يـاأخي في مـا جـر إلي بهـذا اليـوم في وادي الثـعـالب
وجـدت سـبع وسط الغـاب دائر كـأنه جـائع للـصـيـد طالب
فلـمـا شـافني حـالا أتـاني وكـشـر عن سنانه والمخـالب
فـصحت عليـه صـيحـة جاهليـة فتـقدم يا أخي إلى هاجم وطالب
حـزته بخـنجـري فـأهوى على وجـه الثـري للأرض قـالب
أتتـني بعـده لـبـوة مـغـيـرة فلمـا شـفـتـهـا وليت هارب
رأيت أشـبـالهـا سـبـعـة وراها فـداروا لجـهـتـي من كل جـانب
فلمـا شـفـتـهم جـاؤا لنحـوي طلعت لـشـجـرة ذات الـشناغب
فـداروا حـولهـا فـرميت نفـسي فـصـرت لظهـرها بالحـال راكب
حـززت لرأسـهـا وملئت حـقي حليـبـاً بـعـد أن نلـت المآرب
ورأس السـبـع واللبـوة قطعـتـه عـلامـة لـلأعـارب والأقـارب
وسـقت أولادها الـسـبعـة أمـامي فلمـا صرت في وسط المصـارب
فـلاقـتني جـمـيع رجـال قـومي وحـيـتني الأقـارب والأجـانب
وهذا مـا جـرى لي في نهـاري ومـا قـاسيت من هول المصـائب

(قـال الراوي) فلما فرغ الزير سالم من شـعره ونظامه وأخوه كليب مع الجليلة يسـمعوا كـلامه فغـضبت الجليلة من كلام الـزير وكيف أنه لمح بشعره عليها فقالت فى سرها لابد لى أن أعمل على قتله وبعد ذهابه قالت

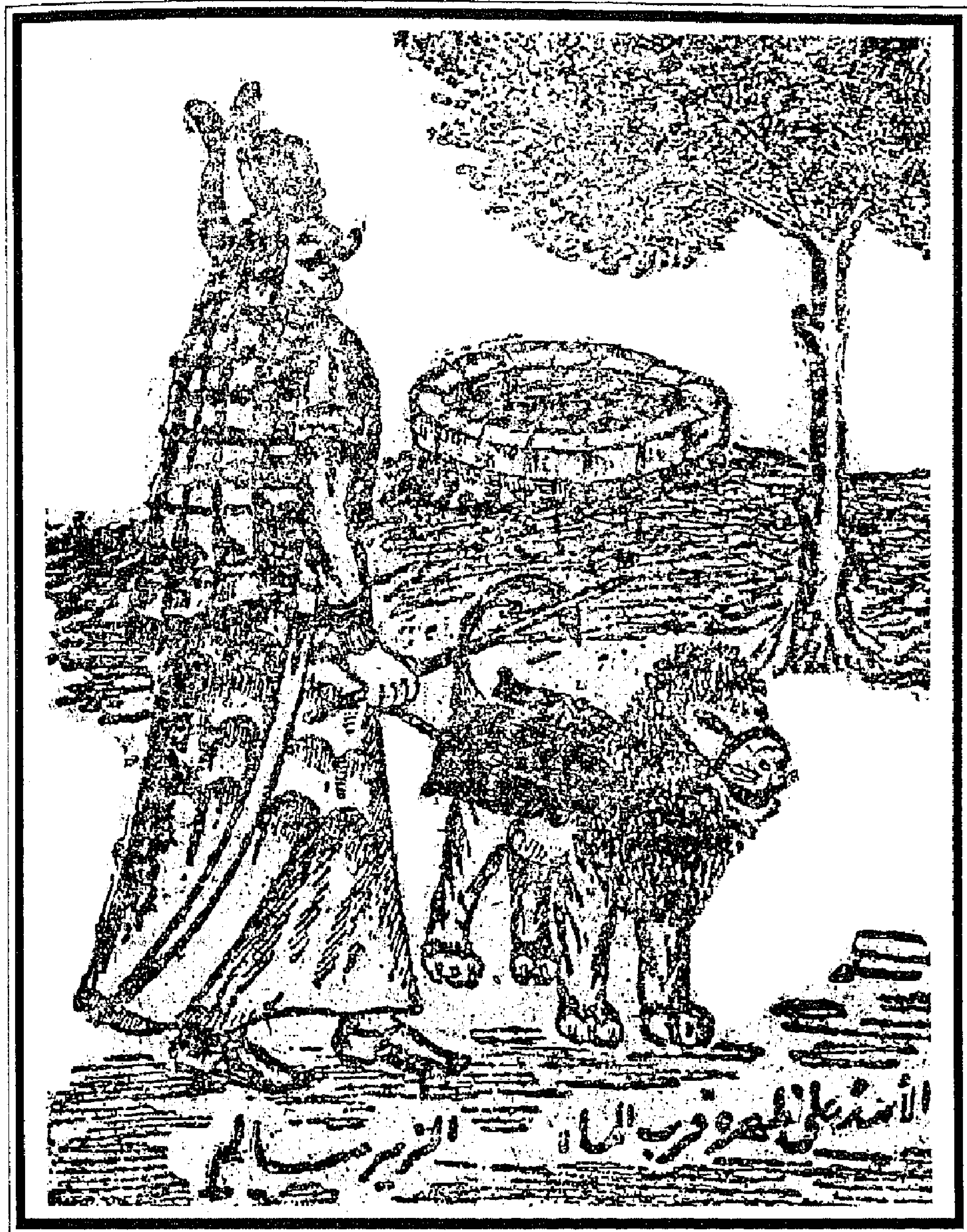
لزوجها كليب كيف يعلم إنى ساعية فى قتله ولم يكن عارف بما فعله معى فوالله إن الموت ألد عندى من الحياة فلابد لى أن أشنق نفسى واستريح من جور أخيك القبيح ثم صارت تصيح وتبكى فقال كليب: أخزى الشيطان ودعينا من هذا الكلام الآن وأخذ يتلطف بخاطرها ويقول لها: كم مرة رميناه بالأخطار وهو يرجع سالما كاسباً غانما فقالت الجليلة: مرادى أن تسمع منى ما أقوله لك الآن ولا عدت تسمع منى غير هذه المرة وهو أن تجعل نفسك مريضاً وترقد فى الفراش فإذا أتاك أخوك الزير حتى يراك فتقول له: أصابك مرض شديد ووصف له الأطباء شربة من بير السباع إذا سمع منك هذا الكلام فأخذته النخوة والغيرة ويذهب فى الحال لقضاء حاجتك فإذا راح لا يعود يرجع أبداً من كثرة وجود السباع فى ذلك المكان والكثرة تغلب الشجاعة فيفترسوه فى الحال ونكون قد بلغنا الآمال لأننى كلما تذكرت أعماله أريد أن أخنق حالى والعرض عند الحر غالى ثم أنشدت تقول من فؤاد متبول:

ألا اسمع لشورى ما أقولك ... على علم الصحيح أنا أدلك
أخوك هبيل ما بيسوي مسلة ... ولو قلع في الجبال وألف تلة
فأرسله غداً إلى بير صندل ... وإن أرسلته لهناك يقتل
ومنه نستريح مدى الدهور ... ونحظى بالمقاصد والحبور

فلمـا سمع كلامـها أجـابها إلى مـرامهـا وانقطع عن الديوان ومقـابلة الناس وجعل نفسه مريض وأقام بالفراش مدة أيام ولما شاع هذا الخبر علم الزير بذلك فتشوش خـاطره لأنه كان يحبه محبة عظيمـة فدخل عليه فرآه راقـد فى الفـراش وهو يئن من قلب حـزين فقـال له سـلامـتك ياأخى ثم جلس بقـربه وهو يتوجع عليـه ويتأسف ويسليـه بالكلام فقـال له كليب: أعلم أن مرضى شـديد وأنا خائف منه وقـد وصفت لى الأطباء شـربة ماء من بير السـباع فمتى شربتـها شفيت من هذا الداء وليس لـى غيرك ياأخى من يأتينى بهـا فإن كنت تحـبنى أريد منك الآن يا فـارس الفرسـان وقهـار العــدا فى سـاحـة المـيـدان أن تذهب إلى ذلـك المكان وتأتينى بـالمطلوب والمقصـود من بين الأسود فـقال الزير أبشـر ياأمير ثم نزل مـن عنده وجاء بقربتين فـحزمهمـا على حمار ثم سار وجد فى قطـع القفار إلى أن وصل إلى بير السباع وكانت السباع فى ذلك الوقت سارحة فى البرية سوى سبع واحد كـان راقد على حافـة البير وهو واضع يـديه على فمه أو نايم فـقال الزير فى سره هذا نايم وعيب على أن أقتله غدراً فتركه وفك القرب وربط الحمار من يديه ورجـليه ونزل البير من الدرج فمـلأ القرب واتفق أنه عند نزوله إلى البـير شـهق الحـمار فـوعى السـبع ولما رأى الحـمار هجم عليـه وضربه بمخلبـه فقتله وجعل يأكله فلمـا خرج الزير من البير ووجـد السبع قد قـتل الحمار وهـو يأكله اغتظ جداً فـوضع القرب على الأرض وقـصد

نحو السبع بقلب كالحديد وقال ويلك يامشئوم كيف تأكل حمارى أما علمت ببطشى واقتدارى فوحق ذمة العرب لابد من تحميلك القرب وكان الأسد فوثب عليه ونهض برجليه فالتقاه الزير بالعصا وضربه ضربة شديدة وقعت على رأسه فدوخته فوقع على الأرض طائشاً فجاء الزير بالحبل ولجمه لجاماً قوياً ووضع بردعة الحمار على ظهره ثم وضع القرب ورفسه برجله فنهض مثل السكران فقال الزير ياقليل الأدب الذى يأكل حمير العرب فهو أولى أن يحمل القرب ثم ركب على ظهره وساقه مثل الكلب وكان كلما عرج عن الطريق يضربه بالعصا على رأسه حتى طاعه قهراً وجبراً ثم سار وجد فى قطع القفار حتى اقترب من الديار فعند ذلك تذكر ما جرى له مع أخيه والأسد وكيف عاد ظافراً منصوراً فجاش الشعر فى خاطره فأنشد يقول:

أنا مهلهل فعزمي يفلق الحجرا — الإنس والجن تخشى سطوتي حذرا
كيد النساء فيبقى في عدم — فخيب الله من يسمع كلام مرا
قالوا أخوك كليب اليوم منطرحاً — عالفراش ضعيف الجسم والبصرا
فجأته عاجلا حتى أسأله — والعقل في حيرة مما عليه جرى
فقلت له كيف حالك أنت أخبرني — فقال يامهلهل كيف أنت ترى
أريد شربة ماء أطفى بها ظمئي — من صندل تزول الهم والكدرا
فسرت حالا لذلك البير في عجل فنـ — ـات قصدي وعدت اليوم مفتخرا
هذه فعالي وكل الناس ترهبني — حتى الأسود وأهل البأس والأمرا



الزير سالم أبو ليلى المهلهل يسوق الأسد بعصا وعلى ظهره القرب

(قال الراوي) وما زال يقطع القفار وينشد الأشعار حتى وصل إلى الديار وهو راكب على ظهر الأسد غير مبال بأحد لأنه بلغ المقصود والأرب وفعل أفعال تعجز عنها فرسان العرب ولما دخل الحمى جفلت الخيل والجمال واندهشت النساء والرجال لما رأوا الأسد على تلك الحال وكثرت الضجات وتصايحت الأولاد والبنات وسمع كليب والجليلة تلك الضجة فطلا برؤسهما من الشباك فوجد المهلهل قد أقبل وهو يسوق الأسد بعصا فبكى كليب لما رآه وقال لابنة عمه الجليلة هل ينبغي لهذا البطل أن يقتل فقد جاء بالأسد وعلى ظهره القرب وهذا أعجب العجب فاشتعل قلبها والتهب من شدة الغضب حتى كادت تموت قهراً ثم نزل كليب إليه وقبله بين عينيه وقال لله درك يافارس الميدان وزينة الشبان وبعد ذلك سأله عما جرى له وكان فأنشد يقول:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل ... ودمعي فوق وجناتي سايل
ذهبت اليوم نحو البير قاصد ... أجيب الماء ياابن الأكارم
وجدت السبع قرب البير راقد ... فقلت بخاطري ذا السبع نايم
نزلت البير أملا منه أشرب ... وري بالذي قد كنت عالم
ملأت القربتان وعدت حالا ... لأرجع القبيلة والمعالم
وجدت السبع قد أكل البهيمة ... ضربته بالعصا فعاد نايم
وحملت القرب من فوق ظهره ... وجئت إليك يافخر الأكارم
أطال الله أيامك وعزك ... على طول الزمان وأنت دايم

فلما سمع كليب هذا المقال أجابه على شعره:

يقـول كليب اسـمع يامـهلهل فـمـا لك من مـثيل في العـوالم
سبـاع البـر خـافـت من قـتـالك وولت فـي الفــلا منـك هزايم
سـألت الله أن يحـفظك دومـاً وتحـظى بـالســرور والـغنـايم
فـقم البـس ثيـابـا من حـرير وأفـعل مـا تريد ياابنَ الأكـارم
فـمـهـمـا طبت مني يامـهلهل أنـا أعـطيك والله عـــالـم
أخي مـا عـاد عندي أعـز منك وحق الله خـــلاق الـعــوالم

فلمـا فـرغ كليب من كـلامه أنزل الزير الـقرب من على ظـهر الأسـد وضربه بالـسيف ألقاه قـتيل ثم قطع رأسـه أمام أخـيه وقال الله أكـبر فـقد أخذنا بثار الحمـار وبلغنا ما تحب ونختار بعون الواحد القـهار فأمر كليب الخدم أن يدخلوا الزير إلى الحمام فـدخل واغتسل ولبس حلة من أرجوان وذهب إلى عند أخيه فى الديوان فقام له على الأقـدام وأكرمه غاية الإكرام وأجلسه فى أعلى مـقام فزاد اعتـباره عند الخاص والعام وارتفـعت منزلته عند الأمراء والأكـابر واشتهـر اسمه بين القـبائل والعشـائر وقال له كليب ذات يوم أطلب يا أخى مـهما تريد فـإن شئت مدينة أوهـبك إياها أو امرأة جميلة أزوجك بها فمالي جـميعه بين يديك فلا أبخل بشىء عليك لأنك اليوم ساعدى وزندي وأنت الحاكم من بعدى فقال لا أريد سوى سلامتك

والذى أريد منك أن تأمر لى بصيوان يكون كبير مفروش بالفرش الفاخر عند بير السباع ويكون عندى جماعة من الخدم يقدمون لى ما أحتاجه من الأكل والخمر لأنى أريد أن أنفرد عن باقى جماعة الناس وأكون وحدى خصوصاً من كيد النساء وعندما تشتاق إلى تزورنى فقال كليب ما هذا العمل فوالله ما عاد لى صبر على فراقك يامهلهل ولا عدت أسمع فيك كلام الأعادى اللئام فأبقى عندى فى العز والإكرام فقال ياأخى قد صممت النية على الارتحال فإن الانعزال أفضل للرجال الأحرار ولا سيما قد صار على السباع ثار على قتل الحمار ولابد لى من قتل جميع الأسود أو أن الحمار يرجع ويعود فضحك كليب من كلامه وتعجب وأمر له بما طلب وقدم له جواداً من أطيب الخيول وجميع ما يحتاج إليه من السلاح والنصول والمشروب والمأكول وأرسل معه عبدان يخدمانه ثم ودعه وسار حتى وصل إلى بير السباع فنصبوا له الصيوان وأقام فى ذلك المكان وهو يأكل ويشرب المدام وكان فى كل يوم يلبس عدته ويركب جواده ويصيد السباع وكان كلما قتل أسداً يقول لثارات الحمار وما زال على تلك الحال حتى أفناها وبقى له قصراً من رؤوسهم فلما طال عليه الزمان أخذه القلق والضجر لإنفراده عن البشر وكان بينه وبين همام بن مرة محبة عظيمة ووداد فزاره الأمير همام فى بعض الأيام ففرح بقدومه عليه وقال أهلاً وسهلا ياابن العم وترحب به غاية الترحيب وقال له لقد ضاقت نفسى من

الوحشة والإنفراد فوالله ما عدت أدعك تذهب من عندى أبداً وكان همام يصرف أكثر أوقاته عنده فيادمه ويشرب معه المدام ويتناشدان الأشعار فى الليل والنهار وما زالا كذلك وهم فى بسط وانشراح وطرب وأفراح وشرب المدام وسماع الأنغام مدة ثلاثة أعوام هذا ما كان من حديثهم فى تلك الأيام.

فى حرب البسوس بين بكر وتغلب

(قال الراوي) وأعجب ما اتفق وتسطر من الأحاديث التى تروى وتذكر هو حديث العجوز الشاعرة أخت الملك تبع حسان الذى قتله كليب كما شرحنا قبل الآن وهى المرأة التى ذكرها تبع لكليب فى ملحمته بأنها سوف تظهر بعده وتلقى الفتنة فى القبائل وبسببها يقتل كليب بن وائل وتثير الحرب بين بكر وتغلب وباقى عشائر العرب وكانت هذه العجوز من عجائب الزمان وغرائب الأوان ذات مكر ودهاء كيف كان لها أربعة أسماء سعاد لأنها فى يوم ولادتها وردت إليها أموال السبعة أقاليم وأمها سمتها تاج يخت لأنها كانت كثيراً ما تأكل من جوز الهند وكانت مع هذه الأوصاف القبيحة جميلة المنظر فصيحة الكلام شديدة البأس ولما كبرت وانتشت وصارت بنت عشرين سنة فكانت تسارع الطواشية وتركب الخيل فى الميدان وتبارز الأبطال والفرسان وشاع صيتها فى كل

مكان وتواردت إليـها الخـطاب من جمـيع المدن والبلدان فكانت تقـول لا أتزوج إلا من يقهرنى فـى الميدان فكانت تقهرهم فى القتـال وتعلم عليهم فى ساحة المجال فاقتصرت عنها الخطاب وتباعدت عنها الطلاب وكان قد سمع بخبـرها ملك عظيم اسمه سعد اليمـانى وكان ملك بلاد السرو وابن عم أخـوها تبع وبطل أروع ليث صـميـدع صـاحب مدن وبلدان وجـيش وفرسان فهام قلبه فى حبهـا فركب فى جماعة من أبطاله وسار قاصداً ديار ابن عـمه تبع ليـخطب أختـه سعـاد فلما وصل إلى تلك البـلاد ترحب به الملك تبع وأضافه ضيافه عظيمة لأنه ملك وأمره نافذ فى القبائل فلما كان فى اليوم الـثالث قال سـعد لتـبع أعلم يابن العم بأنى حضـرت من بلادى لأخطب أختك سـعاد الدرة المصـونة والجوهرة المكنونة فـلا تردنى خائب فهى ابنة عـمى ومن لحمى ودمى وأنا أحق بها من كل أحد فـقال تبع: إنى أرغب فى ذلك غير أنه كما لاخفاك بأنها لا تتزوج بأحد مهما كان إلا بمن يقهرها فى الميدان فقـال إنى: ما أتيت إلا على هذا الشرط فعند ذلك دخل عليها أخوها وأخبـرها بقدوم الأمير سعد ابن عمها وإنه قـد جاء ليخطبها ويتزوجها بعد أن يبارزها ويحاربها فأجابته إلى ذلك المرام وفى ثانى الأيام اعتدت بآلة الحرب والجلاد وركـبت على ظهر جوادها وبرزت إلى الميدان ومحل الـضرب والطعان وكـان الأميـر سعـد قد ركـب حصـانه وبرز إلى الميدان والتـقاها بقوة القلب وجنان وأخـذا يتقاتلان نحو سـاعة من الزمن

وكان الأمير سعد صاحب نخوة وحمية من أشد فرسان الجاهلية فحاربها حتى أتعبها ثم اقتلعها من بحر سرجها فأقرت له بالغلبة وبعد ذلك تزوجها وأقام الحفلة سبعة أيام ورجع بها إلى بلاده وكانت قد أخذت معها جميع ما تملكه من أمتعة وأموال وعبيد وغلمان وأقامت مع زوجها في أرغد عيش وهناء مدة عشر سنين إلى أن عمى وفقد البصر فصارت تحكم مكانه وأطاعتها العرب وعظم أمرها واشتهر ذكرها وما زالت على تلك الحال وهي في أرغد عيش وأنعم بال إلا أن كليب قتل أخوها تبع كما سبق الكلام فلما بلغها هذا الخبر أخذها القلق والضجر وتنغص عيشها وتمرمر وقالت لابد لي من المسير إلى تلك الديار وأقتل كليب الغدار فإذا قتلته انطفى ناري وأكون قد أخذت بثاري فأقامت مكانها وكيلا يحكم بالنيابة عنها وركب هي وزوجها وبناتها وأخذت معها عبدان وما زالت تقطع البراري والآكام حتى وصلت إلى بلاد الشام فسألت عن رحلة بني مرة فأرشدوها إليها فلما صارت هناك قصدت الأمير جساس دون باقي الناس ودخلت عليه وهو في الديوان وحوله جماعة من الأمراء والأعيان فتقدمت إليه وسلمت عليه ودعت وترحمت وبأفصح لسان تكلمت وقالت له: أدام الله أيامك ورفع على ملوك الأرض قدرك ومكانك ويلغك أربك ومناك ونصرك على حسادك وأعدائك فتعجب جساس من فصاحة مقالها فأثنى عليها وسألها عن حالها فقالت له: إني

شاعرة أطوف القبائل والعشائر وأمدح السادة والسادات والأكابر وقد سمعت بجودك وكرمك ولطفك ومحاسن شيمك فأتيت إلى دارك حتى أعيش في جوارك وأكون مشمولة بأنظارك ثم إنها بعد هذا الثناء والمديح أشارت إليه بهذا الشعر الفصيح:

تقول سعاد من قلب موجع ... زمان السوق أبقانا دلائل
وبعد غلانا صرنا رخاصا ... وبعد الكثر قد صرنا قلائل
وبعد العز قد صرنا أذلا ... وبعد السمن قد صرنا هزايل
فهذا الدهر ماله قط صاحب ... فهذا مستقيم وذاك مائل
وذا يبكي وذا يضحك ويلعب ... وذا مندب عياله والحلائل
فسبحان الذي قدر علينا ... بغربتنا وتشتيت الشمائل
فبعد أن كنت في خير ونعمة ... دعاني الدهر كالطلاب شائل
أدور على المناصب والأمارا ... وأنزل في القرابا والمدائن
سمعت بذكركم يا آل مرة ... ثلاث شهور لي عندكم أسائل
أيا جساس يافخر البرايا ... ويا كهف اليتامي والأرامل
قصدتك لا تخيب فيك ظني ... أيا ابن الأماجيد الأصائل
فاجبر خاطري ربي يجبرك ... ويعطيك السعادة والفضائل
فكم أوهبت من مال ونوق ... وكم فرقت من خيل أصائل

فــأنــت الـيــوم بين الـنـاس فـــردا ثناء مــشـــاع في كل القـبــائل

عـــديم المثـل مـــا بين الأمــــارا عــدمـوك وقـد تفـاخـرت عـربان القبـائل

عـــــاك الـيــــوم تنعم لـي بمال ولا تصــــغى إلـى راثن وقـــائل

فـــــارجع بالـغنـايم والعـطـايـا وبالخـيل المسـومـة الصــواهل

فلما فرغت العجوز من شعرها ونظامهـا وفهم جساس فحوى كلامها قال لهمـا أهلاً ومـرحبـاً الأرض أرضى والديار ديارى وأنت نزيلتى وفى جوارى فكل من تعدى عليك قتلته ثم أشار يترحب بها ويقول:



العجوزة ألقت جلد ناقتها أمام جساس تقول، ذبحها كليب جئت اشتكى لك

قال جساس بن مرة يا عجوز مرحباً بك بلا بطال
مرحبا بك مرحبا بك مرحبا عدد ما مشت الركاب بالوطا
في قدومك حلت البركة لنا فابشري بالخير مع كثر العطا
أسرحي ثم امرحي في حيها ما أغيظك لو بدا منك خطا

(قال الراوى) فلما فرغ جساس من كلامه دعت له العجوز بالنصر وطول العمر والبقاء وقالت: في سرها لقد نلت المراد من رب العباد وأقامت عنده شهرين وجساس كل يوم يزيد في إكرامها وكانت قد رأت اتفاق قوم كليب مع بني مرة وهم فى محبة ومؤالفة عظيمة واجتماعات كثيرة كأنهما قبيلة واحدة فما هان عليها ذلك الأمر فأخذت تلقى الفتنة والفساد بين الأمراء والقواد حتى وقع الشر والنزاع وكثر القيل والقال ولما اشتد الأمر اجتمع كل أكابر الناس عند الأمير جساس وأخذوا يشكون من بنى تغلب وعن سوء معاملتهم وإنهم يعتدون عليهم فى أكثر الأوقات بدون سبب وهذا كله من يوم ما قتل كليب السبع اليمانى وأمتد ملكه فى الأقطار فابتدأ يجور ويظلم ولا يحسب حساب أحد وهكذا قومه تفعل كفعله وكان مرادهم بهذا الكلام يحمسوا الأمير جساس ويهيجوه على قتال كليب ولكنه لم يصغى لهم ولم يطاوعهم على مرامهم وقال لهم إنه من الصواب أن اجتمع أولا مع ابن عمى كليب وأعلمه عن تعديات قومه وجورهم علينا فإن وجدت كلامه قاسيا يكون هو السبب فى تقويتهم وإن أمر بتأديب المفترين نكون قد نلنا مرادنا.

(قـال الراوي) وما زالت الفتنة بين الفريقـين تمتد وتشتد حتى اتصل الخبـر إلى مسامع الأمـير كليب وبلغـه أن بنى مرة هم أصل ذلك الخـصام وأنهم كل يوم فى جمعيات واستعدات فضاق صدره وتكدر وأرسل أعلم جسـاس بذلك الخبر طالبـا منه أن يبادر الحـال بقصاص المذنبـين وتوقيف حركات البكريين وإخراج العجوز من القبيلة التى كانت سببا لهذه الورطة فاغتاظ جساس من ذلك وتأثر وتأكد عنده كلام قومه وعلم أن أصل ذلك كله من كليب فلم يجبه بجواب ولا بخطاب وأخذ جساس من ذلك اليوم يجمع الجموع ويفرق على قومـه السلاح ويقويهم بآلات الحرب والكفاح فبلغ ذلك الأمـير كليب فازداد كـدره واحتار فـى أمره وحس بزوال ملكه وكان تذكـر أخاه الزير الفـارس النحرير فركب من يومـه فى جمـاعة من الفرسان وقصده إلى بيرالسباع فوجده جالساً على سفرة المدام مع ابن عمه الأمير همام وهما يناشـدان الأشعار ويتـحادثان بالأخبار فـنهضنا له على الأقدام وأجلسـاه فى أعلى مقام وفرح الـزير بقدوم أخيه لأنه كـان له مدة طويلة غائبا عنه غـير عالم بأن مجيئـه لم يكن ناتج إلا عن سبب ضرورى جداً وبعد أن جلس قلـيلاً قال كليب للزير: أعلم ياأخى إن سبب مـجيئى إليك أولا لأجل المشـاهدة وثانياً حـتى آخذك إلـى القبـيلة وأقيـمك ملكا مكانى لأنى طـعنت فى السن ولـم يعـن لى طاقـة على مـعـاطاة الأحكام ولاسيما وقـد تغيرت الأحوال ووقع بين القبيلتين النزاع والجـدال فأشتغل

منى القلب والبال فقم معى الآن ياسيد الفرسان فقال الزير: والله لقد اشتغل بالى بهذا المقال فأنشد كليب يقول:

أخي سالم اسمع ما أقول لك فـــفكرك ديره والدهن ليـــا
أراك اليـــوم في زهو ولهـــو ولا تدري بما قـد حل فـيـا
بنو قـيس قـد وقـعوا بـحلف وجــســاس نوى يركب عليـا
فـقـوم وشـد عـزمك يامـهلهل لأنك أنت جـبـار عـتـيـا
وإلا راحـت البـلـدان مـنـي وصرنا مـعـيـرة عند البقـيـة

(قال الراوي) فلما فرغ كليب من شعره ضحك الزير حتى استلقى على ظهره فقال كليب: وما هو ضحكك قال: لقلة عقلك قال: أنا قليل العقل قال: لو لم تكن قليل العقل ما كنت تكلمت بهذا الكلام بعد أن نظرت القصر هو أمامك قال وما يكون هذا القصر قال: هذا قصر قد بنيته من رؤس السباع الذين قتلتهم بثأر الحمار ومع كل ذلك أنت ملك عظيم وصاحب ولايات وأقاليم فكيف تقول: أنك خائف وفزعان وأخوك الزير فارس الفرسان فكن فى أمان وأطمئنان من نوائب الزمان فإن كنت بثأر الحمار الذى ليس له قدر ولامقدار قد بنيت قصراً من رؤس السباع إلا ابنى من رؤس الأعادى مدائن وضياع وقلاع وحصون فاذهب بالسلامة ولا ترتاع ثم أجابه على شعره يقول:

يقـــول الزيـر أبو ليـلى المهلـهل أنا لي في الحــرب عـزمـا قــويا
سـباع الغاب خـافت من قـتـالى وتخـــشـــاني ولـم تقـــدر عـلي
فــــاذهـب ياكلـيب ولا تبـــــالي واحكم بـالقــبـــائل بالســــوية
فــإن جـارت بـنو بكر وخـابت فـــلا أترك منـهم أخي بقــيــــة

فلما سمع كليب شعـره احتار من فعله وندم على مجيـئه ثم كرر عليه السؤال وطلـب منه أن يسير مـعه خـوفا من حدوث أمـر من الأمور فـقال الزير: سر أنت أولاً وأنا سـأتبعك فيـما بعد فـقال: لماذا لا تسيـر الآن قال لاخفاك لما حضـرت إلى هذا المكان قتلت جميع السباع ما عـدا سبعين أو ثلاثة فمتى قتلتـهم أدركتك فى الحال إلى الأطلال فعند ذلك ركـب كليب جواده وسلم أمره للواحد القهار إلى أن وصل إلى تلك الدار وهو فى قلق وافـتكار هذا ما كـان من أمـر كليب ويرجع الكلام والسـياق إلى حـديث سعاد الشـاعرة الساحرة الماكـرة فإنها لما أثارت الفتنة بين القـوم وصار لها عند بنى مرة ذلك القبول وجميع كلامها عند جساس مقبول أخذت طاسة من الفضـة وملأتها من المسك والزباد والعطر وخـففت الجميع فى بعـضه البعض وعمدت إلى ناقتهـا الجربانة وأخذت تطلى أجنابها وتدهنها بدلك الطيب وأمرت بعض العبيد أن يأخـذها إلى المرعى ويمر بها قرب صيوان جـساس فى الصبـاح والمسـاء وأوصتـه إذا سـأله أحد عنـها وعن سـبب رائحتها يقول لا أعلم وإنما مـولاتى تعلم فأخذ الناقة ومر على ذلك المكان

فعبقت رائحة الطيب فاستنشق جساس الرائحة وكانت ذكية جداً فتعجب وكان قد نظر إلى العبد وتلك الناقة فأمر بإحضار العبد وكان يظن تلك الرائحة عابقة منه ولما حضر وإذا رائحة كريهة جداً فسأله عن تلك الرائحة فقال من الناقة فازداد تعجبا وسأله عن سبب ذلك فقال: لست أعلم يامولاى إنما مولاتى سعاد الشاعرة تعلم ذلك فقال جساس: هذا غريب فاستدعى العجوز إليه فحضرت ثم سألها عن قضية الناقة فتنهدت من فؤاد موجوع وقالت: لاخفاك أطال الله عمرك وأبقاك إن هذه الناقة من سلالة ناقة صالح وفيها خواص غريب ياابن الأجواد فإن بعرها من المسك وعرقها من الزباد فتعجب جساس غاية العجب وقال: في نفسه تبارك الله رب العالمين فلابد لى من أخذ هذه الناقة فأفتخر بها على جميع الملوك فقال لها: هل تبيعنى إياها ياحرة العرب وأنا أعطيك مهما تطلبين من الفضة والذهب فلما سمعت كلامه بكت ولطمت وجهها وقالت: والله هذا الحساب الذى كنت أحسبه فإنى ما هاجرت من بلادى إلا لأجل هذه الناقة وكلما نظرها أمير أو ملك يطلبها وما دام الأمر كذلك فإنى سأرحل من عندك ثم بكت من قلب حزين وأنشدت تقول:

تقول سعاد من قلب موجوع   سقاني الدهر كاسات الحمام
ضنى مني الفؤاد وغاب نومي   عمي بعلي وقد زادت سقامي
أنا حرمة لي يد قصيرة   ولا لي قيمة بين الأنام

وهذه ناقتي قد شتتني ... عن الأوطان ياابن الكرام
فكم من سيد جاء يشتريها ... فما نالوا بها نيل المرام
وقد جينا لكم والتجينا ... وقلنا قد حطينا بالسلام
وأنت تريد أن تأخذها منى ... فعاد رجوعنا أشهى المرام

فلما فرغت من كلامها أخذ جساس يعطف بخاطرها ويقول لها: إن كلامى معك هو على سبيل المزاح فناقتك مباركة عليك وأنت المعزوزة عندنا فقالت: من حيث ذلك أريد أن تجعل ناقتى دون باقى النوق والجمال لأنها قد تربت بالدلال وأريد مرعى لأنه أليق بها فقال: أرسلها إلى المراعى مع نوقى وجمالى فقالت: إنها لا تأكل إلا من الرياحين وزهر البساتين فقال: إنه ليس لنا كروم ولا بساتين قالت: وهذه الكروم التى بجانب القبيلة من هو صاحبها قال: هى لابن عمى كليب زوج أختى الجليلة وهمام متزوج أخته ضباع قالت: ما دام أنكم أهل وأقارب وأنت ملك نظيره فلماذا يكون كليب أعظم منك فقال: أنه من بعد قتله الملك تبع عظم أمره وانتشر ذكره وتملك على البلاد وطاعته العباد فلما سمعت هذا الكلام قالت: والله لقد أخطأت وبئس ما فعلت فإنى تركت البحر وجئت إلى الساقية وتعلقت بالذنب وتركت الرأس فاغتاظ جساس وحس وقال: ما معنى هذا الكلام ياحرة العرب فإنك قد خرجت عن دائرة الصواب وباديتنا بقلة الأدب أهذا جزاء المعروف والإحسان فقالت: لا تغضب ولا

تغتاظ ومـا قولى هذا إلا من سبيل المحبة فكيف يكون ابن عـمك وصهرك وزوج أختك ويملك على هذه الأراضى العظيـمة وأنت ليس لك قدر ولا قيمـة أهكذا يكون الأهل وأبناء الأعمام أيهـا الملك الهمام فقـال جساس: وذمة العـرب وشهر رجب لقـد تكلمت بالصواب وأنا من الآن وصـاعدا لست أحسب له أدنى حساب لأنه قد اعـتز وتمرد ولا عاد يحسب حساب لأحد وأنا لابد لى أن أطالبه أن يقاسـمنى على أملاك المملكة وإلا القيه فى التهلكة فروحى وأطلقى ناقتك لكـى ترعى فى أحسن البساتين والمرعى ثم انشد وقال:

يقول جساس شـعراً من ضمايري   فدمع عـيني على الوجنات طاف

﴿تم الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع﴾

الجزء الرابع

من قصة الزير أبو ليلى المهلهل

والنار في مهجتي قد أحرقت كبدي | من جور قوم ما لهم أنصاف
قولك صحيح ما لنا عنده قيمة | ولا كلام ونحن من الأشراف
سبعة أقاليم ملك تبع حازها | وعلى المدائن والقرايا طاف
والكروم والنحل والأثمار أجما | حازالجميع من البلدان والأطراف
روحي ياسعادة خلي ناقتك ترعى | بين الكروم ولست منه أخاف

(قال الراوي) فلما انتهى جساس من شعره ونظامه فرحت العجوز وانشرح صدرها فقبلت يده وخرجت من عنده وقالت لعبدها: خذوا هذه الناقة واتركوها ترعى فى البستان المعروف بحى كليب واجعلوها تهدم الحيطان وتقطع الأشجار وتأكل الأغصان وإذا اعترضكم فاشتموه وسبوه وإذا اقتضى الأمر أقتلوه ولا تخافوا فقالوا سمعاً وطاعة ثم أخذوا الناقة وساروا بها إلى ذلك المكان.

(قال الراوي) وكان هذا البستان كأنه روضة جنان كثير الأشجار

والفواكه والأثمار وكان كليب قد اعتنى به حتى صار من أحسن متنزهات الدنيا وكان لا يسمح لأحد أن يدخل إليه سوى هو وعياله فقط فلما أخذت العبيد الناقة دخلوا بها بعد أن هدموا الحائط وصاروا يقلعوا الزهور ويكسروا أغصان الشجر وكانت الناقة تأكل العرايس وأثمار الكرم وكان كليب قام حارسا يحرسه اسمه ياقوت فلما نظر الحارس تلك الفعال هجم على العبيد بالعصا وقال لهم: أخرجوا ياكلاب من البستان قبل أن يحل بكم الهوان فشتموه وسبوه ثم ضربوه فهرب من بين أيديهم وجاء إلى كليب وأعلمه بواقعة الحال فاغتاظ غيظا شديدا وجاء إلى ذلك المكان ومعه أربعة غلمان فرأى العبدين أحدهما جالس على سريره أى الذى كان يجلس عليه وقت النزهة والآخر دائر مع الناقة بين الكروم والزهور وهو يسب الأمير كليب ويشتمه فعند ذلك تراكضت غلمان كليب على العبيد لتقبض عليهما فتركا الناقة وهربا فأحضرت الغلمان الناقة أمام كليب فأمر بذبحها فذبحوها وطرحوها خارج البستان وكانت عبيد العجوز تراقب عن بعد ما يجرى على الناقة فلما شاهدوا ما كان من أمرها رجعوا على الأعقاب وأعلموا مولاتهم بما جرى وكان كيف أن غلمان كليب ذبحوا الناقة بأمر مولاهم وطرحوها خارج البستان فقالت الآن بلغت مرادى وأخذت ثأرى من الأعادى ثم أمرت العبد أن يسلخ الناقة ويأتيها بجلدها فسار العبد وسلخها وجاء بجلدها إليها وقامت من

وقتها ووضعت التراب على رأسها وشقت ثيابها مع بناتها وعبيدها وجواريها وأخذت جلد الناقة وسارت بها لعند الأمير جساس فدخلت عليه وهو فى الديوان مع الأكابر والأعيان وصارت تندب وتبكى وألقت الجلد بين يديه فقال ملامك أيتها العجوز وما الذى أصابك فحدثته فى القصة وقالت له فى آخر الكلام لو كنت أعلم بأن ليس لك عند ابن ربيعة قدر ولا مقام ما كنت تركت ناقتى فى حماه حتى يذبحها بل أنى اعتمدت على كلامك نظراً لعلمى برفعة مقامك بين أهلك وأقوامك حتى جرى ما جرى بسببك ثم أنشدت تقول:

تقول سعاد من قلب موجع ... أيا جساس غابوا في نزيلك
أتيت اليوم مع أهلي وبعلي ... لحيك يافتى نطلب جملك
نزلنا في جوارك يامعظم ... وقلنا ليس في الدنيا مثيلك
فقلت لهم دعوا الناقة ترعى ... بغيط كليب تحسبه خليلك
فرحت طلقتهم وسمعت قولك ... ذبحها جئت حالا اشتكى لك
فإن كانت لكم ذمة وحرمة ... فانهض ياأمير وشد حيلك
فخذ حقي من الباغي كليبا ... ورب العرب مولانا كفيلك

(قال الراوي) فلما فرغت العجوز من كلامها استعظم جساس تلك القضية وعصفت فى رأسه نخوة الجاهلية وقال للعجوز: أذهبى بأمان فأنا أعرف شغلى فذهبت إلى خيامها واستبشرت ببلوغ مرامها ثم التفت

الأمير جساس إلى من حوله من الأمراء وأكابر الناس أنظروا ما فعله ابن عمنا فى حقنا وهو صهرنا فقد أهاننا بهذا العمل وأنا لابد لى أن أستعد لقتاله فى هذا اليوم فإما أن أقتل أو أبلغ الأمل فقالت له أكابر العشيرة تمهل ياأمير فإنه لربما يعلم أنها ناقة نزيلك ومن الصواب أن ترسل له كتابا على سبيل العتاب وتطلب منه ثمن الناقة وتنظر ما يكون جوابه فإن أرسل الثمن واعتذر كان خيراً وإن أبى وامتنع فحينئذ تفعل ما تريد فاستصوب جساس هذا الرأى وكتب كتابا إلى كليب يعلمه بذلك الحال ويطلب منه ثمن الناقة وأرسل الكتاب مع عبده أبو يقظان فأخذ أبو يقظان الكتاب وفى طريقه مر على تلك العجوز أخبرها بالقصة فترحبت به ولاطفته بالكلام وقدمت له الطعام ثم أخذت تسقيه المدام حتى سكر وغاب عن الصواب فعند ذلك فتشته فى ثيابه حتى عثرت بذلك الكتاب فقرأته فوجدته كتابا بسيطاً خالياً من التهديد والوعد والوعيد وأضافت إليه كلاما مغيظا وهى هذه الأبيات:

أمير كليب ياكلب الأعارب   أبا ابن العم لا تكبر علي
فلازم اذبحك في حد سيفي .   وأنت شبيه حرمة أجنبية

ثم طوت الكتاب ووضعته فى مكانه وقام العبد فنهض وركب جواده وصار حتى وصل ديوان الأمير كليب ودخل عليه وقبل الأرض بين يديه وناوله الكتاب فأخذه وقرأه ولما وقف على معناه اغتاظ غيظاً شديداً وأراد

أن يقتل العبد ولكنه كان رجلا عاقـلا موصوفاً بالحلم والحزم فأطرق رأسه إلى الأرض وتفكر قليلا ثم قال: فى سره لعل الأمير جساس كتب لى هذا الكتـاب وهو فى حـالة السكر غـائب عن الصـواب فـمزق الورقـة وأمـر بضرب العـبد فـضرب وقال له أذهـب ياابن اللئام إلى عند مـولاك بسلام وإلا سقيـتك كاس الحمام فـقام وهو على آخر رمق وركـب حـصانه وسار إلى عند جساس وقـال له إنه بحال ما قرأ الكتاب مزقـه وأمر بضربى وقد شتمك وسبك وهذا الذى تم وجرى.

(قـال الراوي) فلما سمع جساس هذا الكلام صـار الضيا فى عينيه كـالظلام فنهض فـى الحال ودخـل إلى خـزانة السـلاح ولبس آلة الحـرب والكفـاح وركب ظهر حصـانه وانحدف إلى صـيوانه وصـاح على أبطاله وإخوته وفرسانه فجاؤا إليه وداروا حواليه فأعلمهم بواقعة الحال وما جرى بينه وبين كليب من النزاع والجـدال وقال لهم اسـتعـدوا لقتـال بنى تغلب الأنذال وأخذ يكلمهم بهذا الشعر والنظام:

يقول جساس نار القـلب مشتعلة	على الضـمـائر ياقوم لهـا لهـيب
ياقـومنا أسمـعوا قـولي واصغـوا	قـــول صـــحـــيح بلا تكـذيب
كليب خـلي كل أحــوالنا عـبــر	حكم البـلاد مـشـارق ومـغـيب
وليس يـحـسب لـنا قـدر ومنزلة	الكل عندهم غنم وهو بينهم ديب
ناقة نزيلي ذبحهـا ما أخشى أحدا	أجـرى إلى دمـها شـبـه الأنابيب

أتت عجوز فألقت جلد ناقتها بعـد مـا بكت بدمع سكيب
تنهـدت ثم قـالت ياولد مـرة ابن عـمك كليب عليك يعيب
هكـذا كليب يفـعل بنزيلك مـالك قيمة عنده ولا ترحيب
فقلت لها أصبري ياعجوز علي فـأنا لك منه ثمنها أجيب
أرسلت له أبو اليـقظان عندي بكتاب ما فيه أسا ولا تعذيب
شق الكتاب وارمى العبد بضربه ومن كثرة الضرب ما أظنه يطيب
أترضـون المذلة يا أهل قـومي الذل لا يرضاه سوى كل معيب

(قـال الراوي) فلما فرغ جساس من شعره ونظامه وعرف قومه فحوى قصده ومرامه فما أحد طاوعه على هذا المرام وقالوا له: عن فرد لسان بئس هذا الرأى وهل يجوز لنا ياأمير لأجل ناقة حقيرة نقاتل ابن عمنا الأمير كليب وترفع فى وجهه السلاح بعد أن صاننا وحمانا بسيفه وقتل الملك تبع حسان واستولى على الأقاليم والبلدان وجعل لنا ذكرا عظيما فى قبائل العربان على طول الزمان فإن كان لك عليه دم أو ثار فدونك وإياه فلا تطلب منا مساعدة ولا نجدة فلما سمع كلامهم تركهم وقصد بيت العجوز ولما اجتمع بها قال لها: لقد جئت إليك لأرضيك بالعطايا خوفا من ازدياد يهزو وقوع البلايا فأطلبى ثمن ناقتك لأعطيك إياه ولو كان مهما كان قالت أريد واحدا من ثلاثة أشياء قال وما هى قالت أريد إما أن تملأ حجرى بالنجوم أو تضع جلد الناقة على جثتها لتقوم أو

رأس كليب بالدماء يعـوم فقال لها أمـا ملو حجرك بالنجـوم أو بأن الناقة تعيش وتقوم فهذا لا يقدر عليه إلا الحى القيوم أما رأس كليب فأبشرى به ثم قوم السنان وأطلق العنان وقصد حى بنى قيس فـقالت العجوز: لعبدها سعد خـذ هذا السكين والمنديل الأبيض واتبع جساس من وراه فـإذا رأيته قتل كليب فأسـرع إذن والطخ هذا المنديل من دمه فمتى فـعلت ذلك فإنى أطلقك لوجه الله تعـالى فامتـثل أمرها وتبع آثار جـساس أما جـساس فلم يزل سائراً حتى وصل إلى قـصر كليب وسأل عنه فقـالت له: أخته الجليلة قد ركب الآن وهو يطبع مهره فى وادى الحصار الجندل فقصده حتى التقى به وهو يطبع مهره وكـان كليب بدون سلاح ولم يكن معه سـوى خيزرانة فقط وكـان كليب دائر ظهره إلى جـساس لأنه كان من عـادته دائماً أنه لا يلتفت في أيام الحرب إلى أقل من مائة فـارس فأراد جساس أن يغدره من قفاه فـما طاوعته يده على ذلك مـهابة ووقارا فلما وصل وسلـم عليه فرد عليه السـلام فرآه متسـربل بالسلاح فاستـعظم كليب الأمر وقـال علامك يابن عـمى أراك بالسـلاح الكامل قال مـرادى الصـيد والـقنص لكننى لما التقيت بك اعـرجت إليك لأسألك سؤالاً واحدا وأعاتـبك على ما فعلت فهل كان لك بسـاتين وكروم ونحن ما لنا شيء أتت عندنا عجـوز شاعرة مع بعل لها ابن عمى ورعت ناقـتها فى بستانك على لجـاهنا فكيف تقتلها أما لنا عندك قيمة ولا اعتبـار بهذا المقدار فضرب كليب كفا على كف من شدة الأسف وقال: والله يابن عـمى ما عرفت أنها ناقـة نزيلك ثم ذكر عن

سوء أدب الرعيان وما فعلوا من الضرر فى البستان ومع كل ذلك فإنى أعوض واعطيها أربعة مائة ناقة وإذا أردت أكثر فأعطيها ولا يكون ذلك سببا للنزاع والخصام بيننا فإننا أولاد أعمام وإصهار فقال جساس على سبيل الخداع إنى سأرضيها وهو قاصد قتله ثم قال له: مرادى أن ألعب معك سابقين بالجريدة فقال كليب: ياجساس أنت راكب ظهر القسيرة وأنا راكب مهر جاهل فقال أنا: أسوق أمامك والمهر يسبق الفرس فساق جساس الفرس فتبعه كليب حتى حكمت تحت يمينه وضربه بالجريد فأصابت ظهره فقلبته عن ظهر الفرس فانحدر الدم من فمه ومناخيره فقال كليب قم ياابن العم فإن كنت لا تريد أن تلعب غير هذه الجريدة فاصرع وأضربنى بها فينتهى الحال ثم نزل كليب عن ظهر المهر ومشى أمامه أما جساس فإنه قد تألم بهذا القدر حتى إنه لم يعد تمكنه القيام وإذا بعبد العجوز أقبل إليه وجذبه من يده فأوقفه وقال والله: إنك من أحقر الرجال ثم أعلمه بحاله وكيف العجوز أرسلته خلفه لأجل تلك القضية فتحمس جساس ونهض ومسك له العبد الركاب فركب ثم تقدم نحو كليب وهن فى يده الرمح وطعنه فى صدره خرج يلمع من ظهره فوقع على الأرض يختبط بدمه فبكى كليب ملء عينيه ودمعه يسيل على خديه فلما رآه جساس على تلك الحالة ندم وتأسف على ما فعل فتقدم إليه وقبله فى لحيته وعارضيه وضمه إلى صدره ووضع رأسه على ركبتيه وقال:

سلامتك ياابن عمى ياأبا اليمامة فقد حلت بى الندامة فوالله إنى فعلت ذلك بدون عقل ولا تمييز فسامحنى على هذا الارتكاب القبيح فأجابه كليب على حلاوة الروح وقال هذا حكم الإله المتعال ما كان أملى منك أن تبادينى بهذه الفعال وتشمت فى الأعداء والأنذال وتفرق بينى وبين اليتامى والأطفال وما بكائى على مال ولا نوال وإنما بكائى على اليتامى ولكن لهم رب لا يغفل ولا ينام وأبكى أيضاً على غدرك فإنك قتلتنى بالغدر والعدوان ولست من أقرانى فى الميدان ولا فى ملتقى الفرسان ولكن سيجازيك العادل الديان وسوف ترى ما يحل بك من الهوان ولا أظن بأنه يصفى لك الزمان بعد الآن فقم وأذهب إلى الخيام وأقرى الأيتام منى جزيل السلام ولكن أسقنى قبل رواحك شربة ماء لأن قلبى قد احترق من الظمأ وأشار بهذه القصيدة يقول:

يقول كليب أسمع يا ابن عمي ... أيا جساس قد أرهقت دمي
أيا غدار تطعني برمح ... ولست أنت في الميدان خصمي
تواشمت الأحاسد والأعادي ... وباتت إخوتي تبكي وأمي
على ناقة تقتل ابن عمك ... أمير كريم من لحمك ودمك
بيوم الضيق كان يزيل همك ... ويردى الضد في يوم النزال

(قال الراوي) فلما فرغ كليب من شعره ونظامه فخاف جساس وأصفر لونه وارتعش قلبه وقال: والله ياابن عمى لا يعرف الإنسان ماذا

مقدر عليه ثم أنه رفع رأسه عن ركبته وأتى له بماء فاسقاه ثم ركب وتركه وخلاه وهو يركض ويلتفت وراه قاصدا أهله وحماه وأما عبد العجوز فإنه بعد ذهاب جساس تقدم ليذبح كليب حسب ما أمرته العجوز فلما اقترب منه وجده يجود بنفسه وهو على آخر رمق فتأمل فيه العبد فوجده ذات هيبة ووقار ووجهه يتلألأ بالأنوار فتأخر عنه وخاف منه فنظر إليه كليب فقال من حلاوة الروح وقال له: من أنت وما هو قصدك ومرامك فأعلمنى بحالك فقال له: لاخفى عنك أنا عبد التبع اليمانى فلما قتلته أنت حضرت أخته سعاد العجوز الساحرة إلى هذه البلاد لتأخذ بثأره منك وتطفى لهيب نارها وهي التي القت الفتنة بينك وبين ابن عمك حتى قتلك وأرسلتنى لأذبحك وآخذ لها أثر من دمك فقال كليب: لقد صدقت فقد ذكر لى تبع هذا الكلام ونفذ قوله الآن بالتمام وهذا تقدير رب الأنام فأريد منك ياعبد الخير قبل أن تذبحنى تفعل معى هذا الجميل وهو أن ترمينى بالقرب من هذه البلاطة القريبة من هذا الغدير لاكتب وصيتى إلى أخى سالم الزير وأوصيه بأولادى ومهجة كبدى وبعد ذلك أفعل ما تريد فسحبه العبد إلى قرب البلاطة والرمح غارس فيه والدم يقطر من جنبه فبكى كليب وتفكر وهو يتأمل على ما أصابه ويتحسر ثم أخذ بيده عودا وغطه بالدم وانشد يقول:

يقـول كليـب اسمع يـامـهـلهل مـثل الخـيـر قـهـار الأسـود
على مـا حل من جـسـاس في طعـني طـعنة منهـا يـعـود
أيا سـالم تـوصي باليـتـامى صـغـار وبعـدهم وسط المـهور
واسـمع مـا أقـولـك يامـهـلهل وصـايا عـشر أفـهم بالأكـيـد
فـأول شـرط أخـوي لا تصـالح ولو أعـطوك زيـنات الـنهـود
وثاني شـرط أخـوي لا تصـالح ولو أعطـوك مـالا مع عـقـود
وثالث شـرط أخـوي لا تصـالح ولو أعطـوك نوقـا مع عـهـود
ورابع شـرط أخوي لا تصـالح واحـفظ لـي ذمامي مع عـهـود
وخامس شرط أخوي لا تصـالح فـإن صـالحت لست أخي أكـيد
وسادس شـرط أخوي لا تصـالح وقـد زادت نيـران الوقـود
وسـابع شـرط أخـوي لا تصـالح وأسـفك دمـهم في وسط بيـد
وثامن شـرط أخـوي لا تصـالح واحصـد جمـعهم مـثل الحصيد
وتاسع شـرط أخـوي لا تصـالح فـإني اليـوم فـي ألم شـديد
وعـاشر شـرط أخوي لا تصـالح ولا قـد شكـوتـك للـودود

(قـال الراوي) فلما فرغ كـليب من شعره ونظامه بكى العـبد عليه ورثى لحاله ثم تنفس كليب الصعداء وهو مطروح وجعل يقول من حلاوة الروح أين الأحباب والحجـاب أين جندى ودولتى أين ملكى وصولتى تبا



كليب يكتب وصية للوزير على البلاطة

لحكم مصيره الزوال فياويل الذين يتجبرون على الإله المتعال ثم قال للعبد بالله عليك أن تمهل على قليلاً حتى أتودع عن الدنيا وأكتب لأخى أيضاً هذه الوصية فقال العبد: اكتب يامولاى رحمك الله ثم أخذ العودة وكتب يقول من فؤاد متبول:

يقول كليب من مادة ربيعة	فدمعي فوق خدي كالقناه
جفاني الدهر وأرماني سقيم	فهذا الدهر كم مثلي فتاه
خرجت أنا على مهري أسير	فليس بيدي أنا سوى العصاه
فإذا ابن مرة جاء خلفي	يريد قتلي وإبليس طعناه
ضربته بعصاتي فوق ظهره	تقنطر راح من فوق الوطاه
أتى من خلفي عبد غريب	سريعاً أركبه ووقف حداه
فاستعد وجاني في حال سرعة	وناره بالحشا زادت لظاه
فإن لي دير وجهك ياابن عمي	يريد الغدر مني بالفناء
فأحكم طعنة في سريعاً	وراح جساس هارب بالفلاه
هديت لك هدية يامهلهل	عشر أبيات تفهمها الذكاء
أول بيت أقوله أستغفر الله	إله العرش لا يعبد سواه
وثاني بيت أقول الملك لله	بسط الأرض ورفع السماء
وثالث بيت توصي باليتامى	واحفظ العهد ولا تنسى سواه

ورابع بيت أقول الله أكبر | على الغدار لا تنسى أذاه
وخامس بيت جساس غدرني | انظر الجرح يعطيك النباه
وسادس بيت قلت الزير أخي | شديد البأس قهار العداه
وسابع بيت سالم كون راجل | لأخذ الثار لا تعطي وناه
وثامن بيت يالك لا تخلي | لا شيخ كبير ولا فتاه
وتاسع بيت يالك لا تصلح | وإن صالحت شكوتك للإله
وعاشر بيت إن خالفت أمري | أنا وإياك إلى قاضي القضاه

ولما انتهى كليب من كلامه التفت إلى العبد وقال له: أفعل الآن ما تريد فقال: والله ياأمير ما تستحق إلا كل خير وإن يدى لا تطاوعنى على ذبحك فقال: اذبحنى لأننى فى ألم شديد وعن قريب تأتى إخوتى وباقى الرجال والحريم فعند ذلك أخرج العبد السكين وانحنى عليه وذبحه من الوريد إلى الوريد ولوث المنديل بدمه ورجع إلى عند سيدته فأعلمها بقتل كليب وأراها دمه ففرحت فرحاً شديداً وصبرت إلى الليل ثم حملت وسافرت بمن معها من تلك القبيلة سرا حتى لا يعلم بها أحد وقالت: لقد أخذت الآن ثارى وطفيت لهيب نارى هذا ما كان منها وأما جساس فإنه لما رمى كليب وولى هارب سار حتى وصل إلى قومه وهو فى خوف عظيم أصفر اللون متغير الكون فسأل أبوه الأمير مرة أين كنت قال: كنت فى البرية فالتقيت بابن عمى كليب فقتلته وزال همى وغمى فما سمع مرة هذا الخبر

تبدل صفو عيشه بالكدر وقبض على جساس من ذراعه كاد يخرج روحه من بين جنبيه وقال :ياعديم الزمان ويا أخبث الأنام أتقتل ابن عمك وهو من لحمك ودمك لأجل ناقة حقيرة وصاحبتها سائلة فقيرة فماذا تقول العرب ياغدار إذا سمعت عنك هذه الأخبار فقد أجلبت علينا الأذى والضرر وفضحتنا بين البشر وما زال يوبخه بالكلام ويلطمه من خلف وقدام حتى جاءت إخوته إليه وخلصوه من بين يديه وهم يعنفوه ويسبوه ويشتموه ما عدا الأمير همام فإنه كان عندالزير فى تلك الأيام يتنادمان ويشربان المدام على بير السباع كما تقدم الكلام وليس عندهما خبر بهذه الأمور والأحكام ثم التفت مرة على أولاده وقال لهم: لقد حلت بنا المصائب من كل جانب فما الذى عاد يخلصنا من الزير ليث الوادى وقهار الأعادى فوالله لقطع مآثارنا وتعجلى دمارنا ثم إنه بعد هذا الكلام أشار يقول:

يقول أمير مرة من قصيد ... بأن العار ما يمحوه ماح
جنيت اليوم ياجساس حربا ... علينا في المسا والصباح
وقدت النار في بكر وتغلب ... يعم لهيبها كل النواحي
أيا جساس تقتل ابن عمك ... كليب البرمكي ليث البطاح
أمير ما كان له مثيلا ... شديد البأس في يوم الكفاح
أيا جساس من قتل ابن عمه ... يبيت الليل يسهر للصباح

فسوف ترى بما يجري بنا إذا برز المهلهل للكفاح
فيسلب مالنا قهراً وغصباً بأطراف العوالي والصفاح

(قال الراوي) فلما فرغ من هذا النشيد أجابه جساس بهذا القصيد وعمر السامعين يطول:

تأهل مثل أهبة ذي الكفاح فإن الأمر زاد عن التلاحي
فإني إن جلبت عليك حربا فإني ليث حرب في الكفاح
فكيف عن الملام فلست أخشى بيوم الحرب من طعن الرماح
وإني حين تنشر العوالي أعيد الرمح في أثر الجراح
تعدت تغلب ظلم علينا بلا ذنب يعد ولا جناح
ومالي همة أيدا وقصد سوى قتل العدي يوم الكفاح

(قال الراوي) فلما فرغ جساس من كلامه قال له: أبوه سوف ترى ما يحل بنا من البلاء والويل من سيف المهلهل فارس الخيل ثم صار يبكي ويتأسف ويلطم كفا على كف ثم قال: لأولاده الرأى عندى أن نكتف جساس ونرسله إلى الزير وإخوته ليقتلوه بثار كليب وبهذه الوسيلة تزول الفتنة وتطفى النار وتزول الأحزان والأكدار فإن المصيبة عظيمة وعاقبتها ذميمة وخيمة فقالت أولاده ما هذا الكلام يا أبانا فهل بعد كليب غير جساس يليق أن يكون ملكا فإن كنت تحسب حساب المهلهل فما هو إلا

كالأهبل وليس له دأب إلا أكل الكباب وشرب الشراب فقال مرة للعياذ بالله من كيد الشيطان الرجيم ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ثم قال لأولاده وأن أخيكم همام له عند الزير مدة أيام فنخاف أن يعلم الزير بقتل أخيه فيقتله ولا يبقيه.

(قال الراوي) وكان لهمام جارية اسمها رباب فاستدعاها مرة إليه وقال لها اقطعى البقاع وسيرى إلى بير السباع وأعلمى همام سراً بما جرى وتجدد قولى له أن يرجع بالعجل خوفاً من أن يقتل فسارت الجارية حتى وصلت إلى هناك فوجدت الزير وهمام على سفرة الطعام وهما بالكلام ويشربان المدام ويتحدثان بالكلام فلما رآها همام وثب إليها وقال ما دهاك قالت سر طويل وحزن وعويل ثم أعلمته سرا بواقعة الحال وطلبت منه المسير إلى الأطلال فلما وقف على حقيقة الأحوال اعتراه الإنذهال وغاب عن الصواب وتبدل انشراحه بالحزن والاكتئاب فلما طال بينهما الحديث والخطاب خرج الزير من بين الأطناب كأنه أسد الغاب فوجدهما يتكلمان سراً يوميان عليه فعظم الأمر لديه فسل الحسام وقام ما هو الخبر ياهمام فإنى أراكم فى قلق واهتمام وأشار يقول:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل ... أحس للمنار في قلبي لهيب
فقلبي موجع والجسم ناحل ... ولا ألقى إلى جسمي طبيب
وشاب الرأس مني والعوارض ... فإني صرت في حال عجيب
وأفكر في الزمان وشؤم فعله ... وهذا الدهر يتقلب قليب

أيا همـــام ألا يـا بن عــــمي فـمــالك خـائف واقف رعـيب
فـمــا أبصـر الحـرمـة تـقـول لك تـناديك وأنـت لهـــا تجـــيب
أراكم تكـتــمـوا الأسـرار عني كـــأنـي بينكم رجل غــــريب
أراكم في حـديث وفي وشـاوش وبين ذا وذا أمـــر عـــجـيب
فـــلا تخل الأمـور من الحــوادث ياهـمــــام إعلمـني تـصـــيب
وإلا افـتــحـوا لي البـــاب حتى أروح عـنـي بـدا قـلـبي يـطـيب

(قال الراوى) فلما فرغ من شعره أجابه همام يقول:

يقــول همـام إســمع يامــهلهل فـدمـعي فـوق الخــدود سكيب
وناري بالحـشـا قـد أحـرقـتني أحس لهــا طـي الفـؤاد لهـيب
أقــول أنت تـســمع يامــهلهل بأنك صـاحـبي نعم الحـبـيب
فــمـــا نحن في وشـــاوش ولا أنت بـيننا رجل غـــريب
أنـا وإياك فـي طرب ولـهـــــو ولا تحـسب حـسابات الحـسيب
جـمـلنـا يافـتى نيت جـمـلكم جـرى دمـه على نحـوه سكيب

فلما سمع الزير هذا الشعر توقد قلبه بلهيب الجمر وأجابه يقول:

يقـــول الزير ياهـمــام إســمع أن ابن عــــمي لـي نســـيب
فـمـــا لك علم فـي وقـتـك كله ولا في القــضـيــة لك طـليب
فـقم أذهب إلى أهلـك يانسيـبي بلا تـطويل من قــبـل المعـيب
فـتــأتي إخـوتي ثم يـقـتـلونك ويدعـونك على الـغـبـرا كـشيب
فـمـــا أقـدر أن أحـمـيـك منهم وأنت مـحب أيا نعم الحـبـيب

فـــــــــــواالله ثـم والله ثـم والله　　ثلاث أقسـام بحلفـها الحسـيب

فلـو جـينا مــا عـــيش أكلـنا　　وكـــاســات شــــربناه بطـيب

لكنـت أمـد يدي تحت سـيـفي　　وآخـذ ثار أخـوي عـن قــريب

(قال الراوي) فلما فرغ الزير من هذا الشعر والنظام قال لهمام أنت من دون بني مـرة نديمي وصـديقي وزوج أختي ورفـيـقي ليس عندك علم بهذا المنكـر فلا تخاف ولا تفـزع فقـال همام: لقد جـرى القلم ياابن العم والذي مضى مـا بقي يرجع فإما تقـتلني عوض عن أخيك أو تأخـذ منا ما يرضيك وترفع عنا الحـرب والقتال وتتركنا نبقـي في الأطلال فوالله صعب على هذا الأمر والتـهب قلبي بنار الجمر لما سمـعت بهذا الخبر المـهول فلا كان جساس المهار قال الزير: وحق من يـعرف الغيب وروح أخي وحبيبي كليب إني لأرفع السـيـف عنكم حـتى أشـفي غليلي منكم ثم أقـتلكم عن بكرة أبيكم وأهتك النسـاء والبنات وأجـعلكم مثـلا بين الكائنات ولو لم تكن زوج أختي وسميري ما كنت أعلمتك بما في ضميري بل كنت قتلتك في الحال وأورثتك النكال فسـر الآن إلى الأطلال ولا عدت تريني وجهك في الحرب والقتال فلما سمع هشام ذلك الكلام ركب ظهر الحصان وأومأ إلى ابنه شيـبان الذي كـان معهـما في ذلك المكان أن يسـير مـعه إلى تلك الأوطان فامـتنع عن المسيـر وقال سـابقي مع خالي الزير فـسار همـام وقد

عظم عليه الأمر وهو ينفض غبار الموت عن منكبه حتى وصل إلى حلته واجتمع بأبيه وإخوته وأخذ يلوم جساس على فعله وكيف أنه تجاسر على كليب وقتله وأعلم قومه بما عزم الزبير فخاف الكبير والصغير وأيقنوا بالهلاك والتدبير واستعدوا من يومهم إلى الحرب والكفاح وجمعوا آلات الحرب والكفاح هذا ما كان على بني مرة وأما الزير صاحب الشجاعة والقدرة فإنه بعد ذهابه إلى الديار اشتعلت بقلبه لهيب النار واعتراه الأصفرار فصار يلطم وجهه في يده وقد عظم الأمر عليه حتى رقصت شعرات شاربيه ومع ذلك لم تنزل من عينيه دمعة لأنه كان من الجبابرة السبعة وكان يقول: وحق رب العباد لابد أن أقتلك يبني بكر الأوغاد وأقتل الشيوخ والأولاد ولما طال المطال وهو على هذا الحال قال له شيبان ابن همام: دع عنك هذا الكلام وأشرب المدام فإنك عاجز ياخال عن هذه الفعال فمن أنت من الأبطال حتى تتكلم بهذا المقال وتتباهى على الأمراء وأكابر الناس كأبي همام وعمي جساس ثم أنشد إليه يقول وعمر السامعين يطول:

أنشد شيبان وقال في بيوت ... ودمعي من عيني طال
خالي إسمع ما أقول ... وحط قولي وسط البال
خلي الهرج ووطي النفس ... وأترك عنك قيل وقال
نقول تكيد بني مرة ... وتقتل كل الأبطال
غدا ياخالي هم يأتوك ... بخيل كثير ونعم رجال

يظهر خيول عليك تجول ودق طبول كما الزلزال
ونرج الأرض بطول وعرض ترحوا قتلى بضرب صقال
يجيء جساس قوي الباس كذا العباس زكي الحال
ويأتي عمر بخيل ضمر وصفر ونمر وأبو جفال
يجي ملك القوم كان بيوم الكون كسبع صال
وأخي شيبون بطل مجنون وأبي همام إن جاك ومال
وتأتي الشوش وكل عبوس يخلوا الروس تلال تلال

فلما انتهى شيبان من كلامه أجابه الزير على شعره ونظامه:

يقول الزير أواه أواه يابن اختي عقلي زال
يولي غدا الفرسان تجيك يخوفني من أهل أنذال
أتاريك أنت عدو مبين كلامك ما خلالي حال
وأنا العربيد بيوم نكيد للروس أكيد بطعن وعوال
أكيد الشوش نقطع الروس أناالجبار فغير محال
وبعد كليب لابيع الروح أشلكم بالرمح شلال
وبعد كليب أخلي السيف طول العمر بكم عمال
وبعد كليب سياج البيض ما اعتق منكم رجال
وأنت يابن أختي اليوم فظوري عدت بغير محال
وأبوك أغدى سيفي فيه وأعشى الرمح من الأبطال

(قـال الراوي) فلما فرغ الزير من إنشـاده نهض الغلام ليركب على جواده ويلحق بأبيـه وأعمامه فضـربه الزير بجامه ألقاه عـلى الأرض قتيل وفى دماه جديلا ثم قطع عنقه ووضعه فى مخلاة حصانه ولفها فى قربوس السرج وتركـها فسار الجـواد حتى وصل إلى القبيلة وسـار إلى بيت مولاه فلما رأت أم الولد جواد الغلام وهو فى تلك الصفة قالت للجارية: دونك جواد سيـدك فتقدمت الجارية وأخذت المخـلاة فوجدت فيها رأس شـيبان فاستعظمت ذلك الشأن وأعلمت بواقعة الحال فطار عقلها لما نظرت رأس ابنها مقطوع فضـجت بالبكاء والنواح والعويل والصياح فاجتـمعت عليها نساء الحى من كل مكان ولما سـمع همام الخبر طار من عينيـه الشرر فبكى واشتكى وقال لزوجته ضبـاع: نظرت ما فعل أخوك فوالله لم يبق لى غريم سواه فشقت ثيابها وسارت عند أخيـها المهلهل ولامته على ما فعل وقالت أتقتل ابن أختك بثار أخيك ثم أشارت تقول:

تقـول ضـبـاع ياسـالـم عـلامك	بجـاه كليب مـا سـويـت يابني
بثـار كليـب تقـتل ابن أخـتك	وتحرق مـهـجـتـي وتزيد حـزني
حـزنت على كليب وما جـرى له	وحـزني في صمـيم القلب مبني
ولكـن قـد حكم ربـي مـراده	وربي مـا كـتـبـه لي يصـيـبني

فأجابها الزير بهذه الأبيات:

يقــول الـزير من قلـب حـــريق بقــتل كليب زاد الـيـوم حــزني
الا يـاأخــت قـلـي مـن بـكــاك ولا تخـشـين من أمــر يعــبني
فـــــــــوالله ثـم والله ثـم والله إله العــرش منذ أدعــو يجـبني
فــلابد لي من حــرب الأعـــادي وقـــتـل كل جــبـــار طلبني

فلمـا فـرغ الزير من كـلامـه قالت لـه لله درك ياسالـم ياقهـار الأسـود القشـاعم لقد زالت لوعـتى الآن وخفت عنى الأحزان لمـا سمعت شـعرك يافارس الفـرسان وعرفت ما أنت مـعول عليه من الحرب والطعـان وأخذ الثار وكشف العار ثم رجعت إلى الديار وهى فى قلق وافتكار هذا ما كان من أمرها.

(قــال الـراوي) ولما اشتـهر كليب ووصل إلى أبياته الخبر وعلمت بذلك جمـيع أهله وبناته فـمزقوا الثـياب وأكـثروا من البكاء والانتـحاب فتهتكت الوجوه الملاح ووقع فى الحى العويل والصـياح وكسرت الفرسان السيوف والرماح وخرجت بنات كليب من الخـدور وهن مهتكات الستور ناشرات الشعور حافيات الأقدام يقطعن السهول والآكام وقدامهن أختهن اليمـامة وكـان ذلك اليوم مثل يوم القـيامـة ولما وصلن إليه وجـدن الطيور حائمة علـيه فوقعن على جثـته وقبلن يديه وارتمين حوالـيه ولما قرأن ذلك الشـعر الذى كـتـبـه على الصخـرة زادت أحـزانهن وأخـذن يلطمن على

وجوههن ثم أقبلت إخوة كليب إلى ذلك المكان وازدحمت الرجال والنسوان والأبطال والفرسان والسادات والأعيان يرثوه بالأشعار وأجروا لهيب نارها سوى البطل الأوحد والسيف المهند والصحصاح الشهير الذى ليس له فى ذلك العصر نظير عمها المهلهل الملقب بسالم الزير فسارت هى وأختها إليه وتواقعت عليه وقالت: والله ياعماه ما كأنك حزنان بما جرى علينا وكان من طوارق الزمان يقتل أخيك ملك العصر والأوان ثم ألقت نفسها غميانة فى حجره فضمها إلى صدره وقد حار فى أمره ولما أفاقت اشتدت عليها الحسرات فأنشدت هذه الأبيات:

مات أبي ياعم من طعن القنا غدر به جساس ذا الكلاب المشوم
وأنت اليوم جالس في صفاك يامهلهل بالعجل انهض قوم
يامهلهل ضاقت الدنيا على وسقاني البين كاسات السموم

(قال الراوي) فلما فرغت اليمامة من هذا الشعر والنظام زادت على المهلهل الأوجاع والآلام فنهض على الأقدام كأنه سبع الآجام وصار النهار فى وجهه مثل الظلام وقال لبنات أخيه سوف ترون ما أفعله وأجريه ثم اعتد بآلة حربه وجلاده وركب ظهر جواده وسار مع البنات يقطع الأراضى والفلوات حتى وصل إلى ذلك المكان فوجده مملوء بالأبطال والفرسان والبنات والنسوان وهم يبكون ويلطمون وينوحون ويندبون

فلما رأوا المهلهل قد أقبل فتحوا له طريقا حتى دخل فوجد أخاه وهو مطروح والدماء من جسده تقطر وتسوح والناس واقفة حواليه فألقى نفسه عليه وهو يبكى ملء عينيه ويقول: سلامتك ياأمير اليمامة ياصاحب الجاه والكرامة فقد أحرقت قلبي بفقدك فلا كان من يعيش بعدك ولما اشتد عليه الأمر أرته اليمامة وصية أخيه المكتوبة على الصخر فقرأها وقال وحق الإله المتعال إنى لا أصالح إلى الأبد ما دامت روحى فى هذا الجسد ثم بكى وتنهد وأرثاه بهذه القصيدة أم السادات. وأكبر العمد وهى من أجود مراثى العرب وأحسن أشعار أهل الفضل والأدب.

كليب لا خير بالدنيا وما فيها	إن أنت خليتها من يبقى واليها
فيها تنعى النعاة كليبا فقلت لهم	مالت بنا الأرض أم مالت رواسيها
ليت السماء على من تحتها وقعت	حالت الأرض فاندكت أهاليها
الناحر النوق للضيفان يطعمها	والواهب الميتة الحمرا يراعيها
الحلم والجود كانا من طبائعه	ما كل اللطافة ياقوم تحصيها
ضجت منازل بالخلان قد درست	تبكي كليب نهاراً مع لياليها
كليب أي فتى زين ومكرمة	تقود خيلا إلى خيل تلاقيها
تكون أولها في حين كرتها	وأنت بالكر يوم الكر حاميها
غدرك جساس ياعزى وياسند	وليس جساس من يحسب تواليها
لا أصلح الله منا من يصالحهم	حتى يصالح ديب المعز راعيها

وتوالد البغلة الخضرا خدالجه وأنت تحيا من الغبرا تاليها
ويحلب الشاة من أسنانها لبن وتسرع النوق لا ترعى مراعيها

(قال الراوي) فلما فرغ الزير من هذه المرثاية الغراء وسمعتها السادات والأمراء تعجبوا من فصاحة لسانه وقوة قلبه وجنانه وما احتوت إليه من الألفاظ الرقيقة والمعانى البليغة الدقيقة وقالوا والله لقد جاد سالم الزير وفاق على الشعراء والمشاهير بهذا الكلام الذى هو كالدر النضير ثم اجتمعت الأمراء المقدمين وقالوا للعرب المجتمعين أنه ما عاد ينفع البكاء والانتحاب وإن إكرام الميت دفنه فى التراب ثم أتوا بكليب إلى الديار ودفنوه بكل احترام واعتبار واحتفال ووقار ورثوه بنفائس الأشعار وبنوا على قبره قبة من أعظم القبب وطلوا حيطانها بالذهب والفضة فكانت من العجب فى بلاد العرب زخرفوها بالنقش الفاخر كتبوا على حيطانها أسماء الإله القادر وهى هذه الأسماء التى يتكنى بها رب السماء قد أثبتناها بهذا الكتاب إفادة للطلاب.

﴿أسماء الله الحسنى﴾

الله. الرحمن. الرحيم. الملك. القدوس. السلام. المؤمن. المهيمن. العزيز. الجبار. المتكبر. الخالق. البارىء. المصور. الغفار. القهار. الوهاب. الرزاق. الفتاح. العليم. القابض. الباسط. الخافض. الرافع. المعز. المذل.

السميع. البصير. الحكم. العدل. اللطيف. الخبير. الحليم. العظيم. الغفور. الشكور. العلى. الكبير. الحفيظ. المقيت. الحسيب. الكريم. الرقيب. المجيب. الواسع. الحكيم. الودود. المجيد. الباعث. الشهيد. الحق. الوكيل. القوى. المتين. الوالى. الحميد. المحصى. المبدىء. المعيد. المحى. المميت. الحى. القيوم. المقتدر. المقدم. المؤخر. الأول. الآخر. الظاهر. الباطن. الوالى. المتعال. البر. التواب. المنتقم. العفو. الرؤوف. مالك الملك. ذو الجلال والإكرام. المقسط. الجامع. الغنى. المغنى. المانع. الضار. النافع. النور. الهادى. الباقى. الوارث. الرشيد. الصبور. جل جلاله.

(قال الراوي) وبعد أن تلو أسماء الإله القادر وسمعتها السادات ورؤساء العشائر دفنوا الأمير كليب كما تقدم الكلام ذبح الزير على قبره النوق والأغنام وفرق المال والطعام على الأرامل والأيتام ثم جلس فى الديوان وجميع الأكابر والأعيان والأبطال والفرسان وإخواته الشجعان وقال أعلموا أيها الأمراء والسادات الكرام أن جساساً أهانكم وقتل ابن عمكم وملككم فاستعدوا لأخذ الثار وكشف العار من بنى بكر الأشرار فلما سمعوا منه هذا الكلام أجابوه إلى ذلك المرام وقالوا عن فرد لسان إننا بين يديك ولا نبخل بأرواحنا عليك لأن الأمير كليب لا ينتهى ولم تلد مثله النساء ثم أنهم تحالفوا معه وعاهدوه على كرسى المملكة وبايعوه وأجلسوه فلما تملك على القبيلة طرد امرأة أخيه الجليلة فسارت إلى بيت



الزير سالم يأخذ ثأره بحد الحسام
وينتقم من بنى بكر أشد الانتقام

أبيها مع أهلها وجواريها وكانت جليلة بولد ذكر سوف يأتي عند الخبر واستعد الزير من ذلك اليوم لقتال القوم وحلف بأعظم الأقسام بأنه لا يشرب المدام ولا يلتز بطعام حتى يأخذ ثأره بحد الحسام وينتقم من بنى بكر أشد الانتقام أو أنه يموت تحت أرجل الخيل ولا يبالى بالويل ثم أمر الرؤساء والقواد بجمع العساكر والأجناد وأن يكونوا فى استعداد للحرب فامتثلوا أمره فى الحال وتجمعت الفرسان والأبطال حتى امتلأت الروابى والتلال وكانت قد انضمت إليه عدة قبائل وأمدوه بالعساكر والجحافل حتى سار فى أربعمائة ألف مقاتل وقال لما بلغ بنى بكر هذا الخبر اعتراهم القلق والضجر وخافوا من العواقب وحلول النوائب فجمعوا المراكب والكتائب وسار بهم الأمير مرة إلى الذئاب وهو مكان شهير يبعد ثلاثة أيام عن قبيلة الزير وهناك انضمت إليهم بعض القبائل من العربان فكانوا نحو ثلاثمائة ألف وأقاموا فى ذلك المكان ولما سمع الزير برحيل مرة وأولاده إلى الديار قال: لابد أن أقتفى الآثار وأفنى الكبار والصغار ثم أمر القائد الكبير بسرعة المسير فامتثلوا ما أمره وفعلوا ما ذكره وفى الحال دق طبل الرجوع فارتجت منه السهول والمروج وهو الطبل الذى كان لتبع حسان ولم تكن إلا ساعة من الزمان حتى ركبت الأبطال والفرسان وركب المهلهل متسربلا بالسلاح كأنه ليث الغلب.

﴿انتهى الجزء الرابع ويليه الجزء الخامس من قصة الزير﴾

★★★★

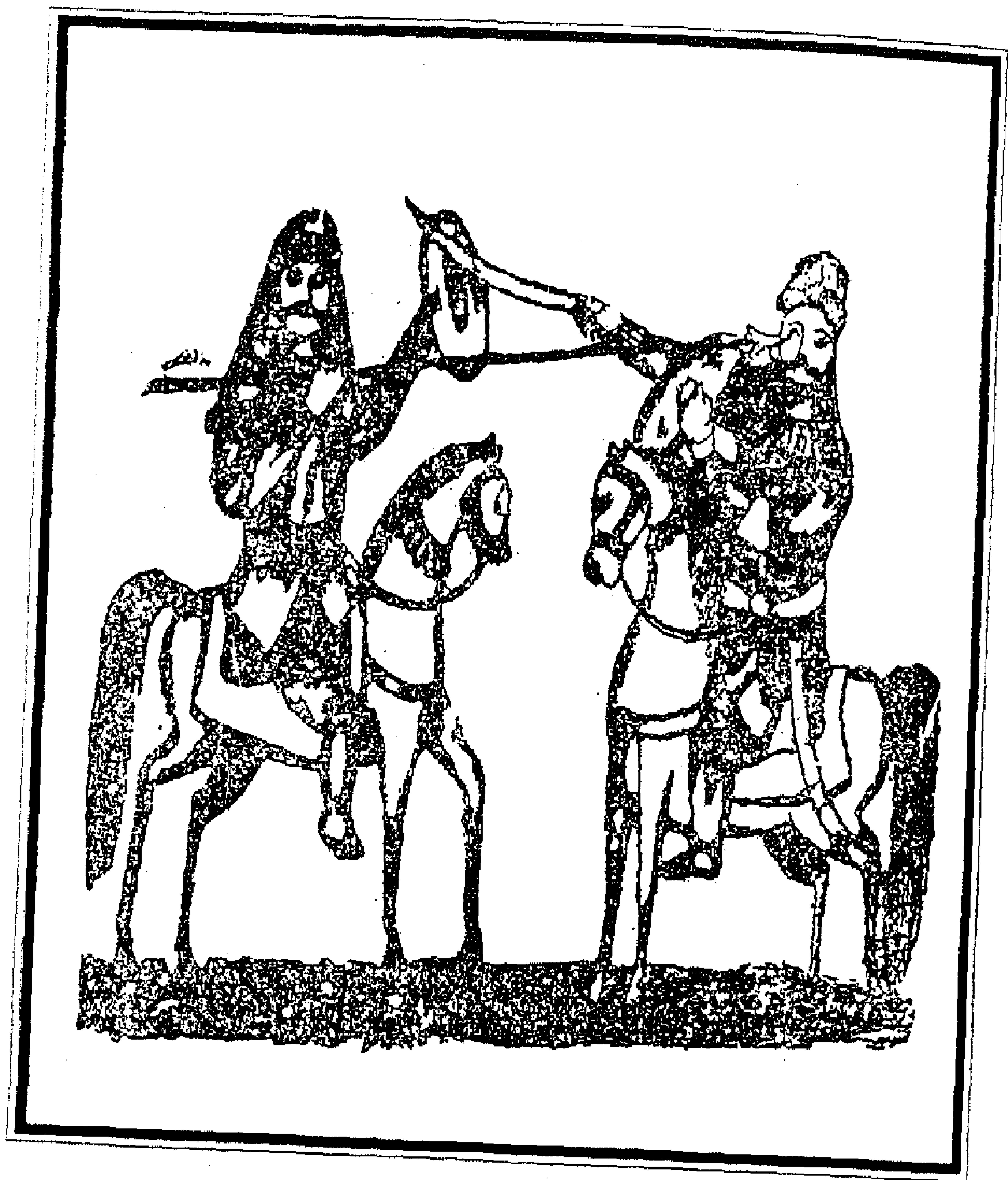
الجزء الخامس

من قصة الزير أبو ليلى المهلهل

وعلى رأسه الرايات والبنود ومن حوله القواد والجنود فعند ذلك سارت المواكب قاصدة الذئاب وما زال العسكر يقطع البر الأقفر إلى أن أشرف إلى تلك الديار اليوم الثالث عند نصف النهار ولما قرب وانكشف البيان ورآه الأمير مرة ومن معه من الرجال والفرسان قالوا وحق الإله القدير المتعال لقد أقبل علينا سالم الزير بالجموع والجماهير والفرسان المشاهير واليوم تباع الأرواح بيع السماح فى عاجل الحال انتخب الأمير مرة ألف من الأبطال وأرسلهم لملاقاة الأعداء فى تلك البيداء وكان المقدم عليهم ابنه الأمير جساس وجماعة من علماء الناس فسار الجحفل طالباً جيش المهلهل ثم فرق مائة ألف أخرى فى الصحراء وقدم عليهم ابنه همام وحثهم على الحرب والصدام وأقام هو بباقى العسكر على الجانب الأيسر حتى إذا انكسرت الفرقتان يحمل بمن معه من الفرسان ولما شاهد المهلهل تلك الحال وانقسام الرجال والأبطال فقسم عسكره إلى ثلاثة أقسام وتقدم

ولما اقتربت العساكر من بعضها البعض وانتشر جموعها فى تلك الأرض حملت الفرق على الفرق وهجم الجيش على بعضه وانطبقوا وقصد المهلهل فرقة الأمير مرة بعشرة آلاف من أهل الشجاعة والقدرة وفى الحال اشتبك القتال وعظمت الأهوال وجرى الدم وسال وارتجت الوديان والتلال من قعقعة النضال فكان يوماً مريعاً وحرباً فظيعاً يشيب منه رأس الغلام قبل الفطام فما كنت ترى إلا رءوساً طائرة ودماء فائرة وفرسان غابرة فلله در المهلهل وما فعل فى ذلك اليوم من العمل فإنه هجم هجوم الأسود وفرق المواكب والجنود ونكس الرايات والبنود وقتل كل جبار ونمرود وكان كلما قتل فارس منتخب يقول يا لثارات كليب ملك العرب يلقى نفسه فى مهاوى العطب أملا بالنصر وبلوغ الأرب وما زال على تلك الفعال حتى قتل خمسمائة من الأبطال ولما اشتدت الأهوال تأخرت عنه الرجال خوفا من الهلاك والوبال وهو يحول ويدور ويهدر كالأسود والنمور ويقول كليباً قتيل الجور أين عيناك اليوم ترانى وتشاهد حربى وطعانى فياليتنى كنت فداك ولا كان من يسلاك.

(قال الراوي) وكانت نيران المعامع والحرب والوقائع مشتبكة فى ثلاثة مواضع واستظهرت جيوش المهلهل على أعدائها وبلغت غاية مناها وفعلت باقى الفرق كما فعل سيدها ومولاها واستمر القتال على هذا الحال من الظهر إلى غروب الشمس وكان قد قتل من بنى بكر أوفى من



البطل امرؤ القيس حامى ظهر الزير سالم
يطعن الحربة فى أحد الأعداء

ثلاثين ألف نفس ومن جماعة المهلهل نحو خمسة آلاف بطل فعند ذلك دقت طبول الانفصال فارتدت عن بعضها الفرسان ونزلوا فى الخيام والمضارب ورجع المهلهل وهو قاهر وغالب كأنه أرجوان مما صال عليه من أدميه الفرسان فاجتمع بالسادات والأعيان فى الصيوان فهنوه بالسلامة وقالوا مثلك تكون الشجعان يا زينة الأكوان وجوهرة هذا الزمان فشكرهم على هذا الكلام ووعدهم بالخير والإنعام ثم أكلوا الطعام وأخذوا يتذاكرون بأمر الحرب والصدام وكان للمهلهل صديق يركن إليه ويعتمد فى أموره عليه قوى الجنان فصيح اللسان يقال له امرؤ القيس بن أبان وكان يقاربه بالفروسية ويساويه بالفصاحة والهمة العالية فقاتل معه فى ذلك اليوم وفتك فى صناديد القوم وكان لايفارق الزير فى القتال ويحمى ظهره من غدر الرجال فقال له المهلهل أمام الفرسان رأيك ما هو يا بن أبان فى الهجوم على الأعداد اللئام تحت جنح الظلام فإنى والله كلما أذكر قتل كليب تتوقد بقلبى النيران وليس لى عنه صبر ولا سلوان فقال تمهل يا أمير مهلهل فإن النهار قد اقترب ولابد لنا من بلوغ الأرب لأن القتال فى الليل يجلب علينا الهم والويل فتختلط الأحزاب بالأحزاب ولا تعود تعرف الأعداء من الأحقاب لأن الظلام يحجبنا بعضنا البعض ونتشتت فى هذه الأرض فاستصوب كلامه الزير فقال هكذا أشارت فرسانه:

(قـال الراوي) وبات الجيشان يتحـارسان وأوقدا النيران فكانت بنو بكر وباقي قبـائل العرب قد باتـت في شدة وتعب وأيقن الأميـر مرة أنه سيغلب ويقـهر من سيف الزير الأسد الجسور ولما أصـبح الصباح وأضاء بنوره ولاح تبـادرت العسـاكر إلى مـيدان الحرب والكفـاح واصطفت الفرق إلى صـفـوف وتـرتبت المئـات والألوف وتأهب المهلـهل للحـرب واستعـد للطعن والضرب فركب ظهر الحـصان وتقدم إلى معـركة الطعان وتبـعه امـرؤ القيس بن أبان وقـواده الأبطال والفـرسان بقلوب أقـوى من الصـوان وكـذلك ركب الأميـر مـرة وبقـيـة الفرق واعـتـقلوا بالسـلاح والدروق فعند ذلك دقت الطبول وصهلت الخيول وارتفعت الرايات على رءوس الأمرا ء والسادات من جميع الجـوانب والجهات وهجم كل فريق على فريـق وتقاتلوا بالسـيف والمزارق والتقت الأمم بالأمم وقـام الحرب على ساق وقـدم وما مضى ساعـة من النهار حتى اشتـد لهيب النار وطلع للقتـال الغبـار وانذل الجبان وحـار وارتفع الصيـاح وعلا وارتجت أقطار الفلا ولبست الأرض من الدما حللا وعظم بينهم البلا والويل وعاد النهار كسـواد الليل وقال المهلهـل في ذلك اليوم وما قـصر وفـعل أفعـالا تبقى وتذكـر فـإنه اقتـحم صـفـوف الأعادي كـأنه ليث الوادي وحـال الميـامن والمياسـر وطعن فيـها طعنا يذهل النواظر ويحـير العـقول والبـصائر وهو يقول يا لثارات كليب مـهجة فؤادي ومن كان سندي واعـتمادي ولما طال المطال أشفى غليله من قتال الأبطال قال:

ذهبت الصلح أو تردوا كليبا أو نبيد الحيين نكرا وذهلا

ذهبت الصلح أو تردوا كليبا أو تعم السيوف شيبان قتلا

ذهبت الصلح أو تردوا كليبا أو أزهق الرجال قهراً وذلا

فتعجبت الفرسان من شعره ومقاله واندهلت من هول قتاله وكذلك اندهشت باقى أبطاله وما زال الحرب يعمل والدم يبذل والرجال تقتل إلى أن ولى النهار وارتحل ودخل الليل وأقبل فعند ذلك رجع الأمير المهلهل وباقى الجيش وجميع أكابر عشيرته وأهله وإخوته يتحادثون فيما يجرى ويكون فاستقر الرأى على سرعة الإنجاز والجهاد فى الحرب والبراز قبل أن يطول الأمر وتفوتهم الغلبة والنصر ثم إنهم أكلوا الطعام وباتوا فى الخيام ولما طلع النهار وأشرقت الشمس والأنوار تأهبوا للحرب والكفاح فتقلدوا بالسيوف والرماح ودقوا الطبول وركبوا ظهور الخيل وتقدمت الفرسان والأبطال إلى ساحة القتال وكذلك فعل الأمير مرة والأمير جساس ومن يلوذ بهم من عظماء الناس والتقت العساكر بالعساكر وتقاتلوا بالسيوف والخناجر وكان الأمير المهلهل فى أول الجحفل، فصاح وحمل والتقى الفرسان بقلب أقوى من الجبل وهو يهدر كالأسد ويضرب فيهم بالسيف المهند ويقول يالثارات كليب ليث الصدام وزينة الليالى وكان كلما قتل فارساً يعيد هذا الكلام فقصدته الأبطال من اليمين والشمال وهو يضرب فيه الضرب الصائب ولا يبالى بالعواقب

حتى مزق الصفوف بحملاته وفرق الألوف بتواتر طعناته وما تنصف النهار حتى قتل مائة بطل كرار وكان من الأبطال والفرسان المذكورة كذلك فعل امرؤ القيس بن أياد وباقي القواد والشجعان وما زالوا على تلك الحال إلى أن ولى النهار بارتحال فارتدوا عن الحرب والصدام ورجعوا إلى المضارب والخيام وكان قد قتل من عرب جساس فى ذلك النهار عشرون ألف بطل كرار ومن عرب المهلهل نحو ثلاثة آلاف بطل ولما أصبح الصباح استعد الفرسان للحرب والكفاح فركبوا ظهور الخيول وتقاتلوا بالسيوف والنصول وهجم المهلهل على الفرسان الفحول كأنه الغول وهو ينشد ويقول :

هلموا اليوم نلتقي يا آل مرة ... ولو كانوا ثلاثين ألف كرة
وسيف الهند يقطع في يميني ... فلا تخشي المهالك والمضرة
فاحموا يا بني عمي لظهري ... فتحظوا بالأماني والمسرة
فكل الناس ترهب من قتالي ... إذا ما جلت في الميدان كرة
سوف أبيد جساماً وقومه ... وأسقيهم في حربي كأس مرة

ثم إنه لما حمل على الكتائب والمواكب وأظهر بأفعاله الغرائب والعجائب وقتل كل شجاع غالب:

(قال الراوي) وما زال القوم فى حرب وصدام وقتل وخصام مدة

ثلاثة شـهور حـتى أشـفى الزير غليله من بنـى بكر وقتل منـهم كل سيـد جليل وفارس نبـيل وكان عدد من قـتلهم فى تلك الوقائع نحـو مائة ألف مقاتل ما بين فارس وراجل وقتل من جماعة الزير نحو عشرة آلاف بطل فلما رأى جسـاس ما حل بقومه من النوائب خـاف من العواقب وعلم أنه إذا ثبـتوا أمـامهم يهـلكون هلاك الأبد ولا يبقى مـنهم أحد فـولى وطلب لنفسـه الهرب مع باقى طـوائف العرب وغنم الزير غنائم كـثيـرة وأموال غزيرة ثم رجع بمـن معه من الفـرسان إلى الأطلال وهو فى أحـسن حال وأنعم بال ونزل فى قصر أخيه وصارت ملوك العرب تكاتبه وتهادنه وكان يترقـب الأوقات للحـرب والغزاة فشكرته اليمامة على مـا فعل وقالت لا عدمتك أيها البطل فإنك أخذت الثـار، وطفيت لهيب النار ورجعت بالعز والانتـصـار، فـشكرها على هـذا الكلام وقـال وحق رب الأنام لا يشـفى فؤادى ولا يطيب لذيذ رقادى حتى أقتل الأميـر جساس وأجعله مثلا بين الناس وهذا الأمر سيتم عن قريب بإذن الله السميع المجيب.

(قـال الراوي) بينما هو يترقـب الأخبار ويقتفى الآثار إذ دخل عليه العـبـد نعـمـان الذى تقـدم ذكـره قـبل الآن وكـان من أصـحـاب الزير وأصـدقائه المشـاهير فـسلم عليـه وتمثل بين يديه فنهض له على الأقـدام وأكرمه غاية الإكرام وبعد أن جلس قـال للزير اعلم يا أمير قد جيت الآن من أبعـد مكان أولا لأهنيك بالانتـصـار وأعزيك على فـقـد ذلك البطل

الكرار وثانياً لأعلمك بأنه ظهر لى فى المنام من مدة عشرة أيام رؤيا عجيبة تشير إلى أحوال غريبة، وهو أنه قام عليك سبعة سنين منحوسة وأيامها عليك معكوسة فإياك من هذا النهار أن تحارب أحداً من ملوك الأقطار بل تجنب وقوع الفتن وتبقى مرتاح فى الوطن فمتى تمت هذه الليالى رافقك السعد والإقبال بإذن الإله المتعال فإن حاربت انتصرت وإن قاتلت ظفرت وقهرت فشكره الزير على ذلك الاهتمام، وغمره بجزيل الإنعام ومن ذلك اليوم أخذ لنفسه الحذر وتجنب مخالطة البشر وكان يصرف أيامه بشرب المدام وأكل الطعام واشتهر الخبر فى القبائل أن الزير أوقف الحرب مدة سبع سنين كوامل.

(قال الراوي) وكانت بنو مرة قد هامت فى الأقطار خوفاً من الهلاك والدمار وندم جساس غاية الندم بقتل كليب الأسد الغشمشم وما زال هو وقومه فى خوف وحذر عن عواقب الأمور إلى أن بلغهم خبر توقيف القتال فزالت من قلوبهم الهموم والأهوال ورجعوا إلى الأطلال.

هذا ما كان من بنى مرة وجساس وأما الزير الفارس الدعاس فإنه استمر على تلك الحال وهو فى أرغد عيش وأنعم بال إلى أن كانت نهاية السنة السادسة، فركب إلى الصيد والقنص فى جماعة من فرسانه وابتعد عن الديار نحو ثلاثة أيام ومن الاتفاق الغريب فإن الأمير جساس رأى حلماً فى بعض الليالى وهو أنه رقد فى قرب صيوانه حوض من الماء

فبينما كـانت قومه تشرب منه فإذا بذئب كاسـر قد جاء إلى الحوض وهو بصفة جمل كبير وله ثمـانية أنياب فشرب من الماء ثم ضرب الحوض بنابه فانـشق من جانبـه وتهور ذلك الماء حـتى كادت قـومه أن تهلك مـن شدة العطش والظمأ ثم رأى النسوان والأولاد بثيـاب السود والدم جارى مثل المجارى والجـمال تنهش بعضهـا البعض ودماها تسـيل على وجه الأرض فاسـتيقظ جسـاس خائفاً من هول ذلك المنام فـاستدعى إليـه إخوته وبنى الأعمـام وقص عليهم ما رأى وأبـصر فاسـتعظموا ذلك الأمـر وقالوا لا يوجـد من يقدر علـى تفسـيره سـوى المنجـميـن فإن حـسن عندك أرسل استـدعِ عمـار الرياحى فإنه يعسره لك علـى يقين فـأرسل إليه وحـضر وقص عليه ذلك الخبر فضرب ورسم الأشـكال فبانت له حقائق الأحوال ثم التفت على جساس ومن حضر هناك من الناس وقال لهم هذا المنام من عجائب الأيام وهو يدل على شر عظيم وخطب جسيم سوف يحل عليكم من سالم بوقت قصير وقـد أظهر لى أيضاً بأن أخ المهلهل عنده مهر أدهم اسمه عندم قوى العصب والحيل عديم المثال فى الحيل فسعد الزير مقرون بهذا الحـصان وبه ينتصـر فى الحرب والطعن فإذا ملكـتم هذا الجواد نلتم المراد وأسرتموه في القتال والطراد.

فلمـا سمع جسـاس هذا الكلام استـبشـر ببلوغ المرام وقال لـهم قد بلغنا بأن الزير غائب عن القبيلة وما فى الحى غير النساء والحصان موجود

في الديار وهذه إزالة الغصة ثم إنه أرسل رجلا ليكشف الخبر ثم رجع وأخبره بصحة الكلام فعند ذلك ركب جساس في ثلاثة آلاف بطل وطرق باب المهلهل على عجل وأحاط بساحة الدار من اليمين واليسار فاستعظم بنات كليب ذلك الأمر ولم يعلمن ذلك السبب فطلت اليمامة برأسها من الشباك وقالت له وهو راكب على ظهر الفرس ما هو الداعي يا خالي بقدومك إلى الحي بالأبطال والحي خالي من الرجال فقال لها جئنا بطلب المهر الأدهم المدعو بعندم فقالت له أهلا وسهلا بك مهما طلبت فلا تمسكه عنك غير أنه لا خفاف بأن المهر خاصة بعمي عدية فلا يمكننا أن نسمح فيه ثم أشارت تقول:

بكم قد حلت البركة علينا وزال الشر عنا مع نكال
فمهما تطلبوا مني تشوفوا خيولا مع بغال وجمال
ولكن مهر عمي غير ممكن أسلمه فإن المهر غالي

(قال الراوي) فلما سمع جساس شعرها ونظامها أجابها يقول على كلامها بهذين البيتين :

تعالي اسمعوا قولي اليمامة نقول المهر لا أعطيه غالي
فإني قاصد أخذه سريعا ولا أخشى بعداه ولا أبالي

(قال الراوي) فلما فرغ جساس من شعره نزل عن ظهر الفرس

ودخل إلى الاصطبل فوجد المهر فوضع عليه العدة وركبه وقال اليمامة قد أخذت الحصان وغداً أطاردكم على ظهره ثم سار وهو فرحان حتى وصل إلى الأوطان فقال لأخيه قد أتيت بالحصان ومرادى أجربه فى الميدان فانتخبوا ثلاثين رأسا من الخيل الصوافن فاركبوهم وأكمنوا فى عشر مكامن وأنا أمر عليكم أسرع من الريح فاتبعونى فى البر الفسيح فإن سبق هذا الجواد بلغنا المراد فى الحرب والطراد فأجابوه إلى ما طلب وأراد وركبوا الخيول الجياد وركب سلطان أخو جساس القميرة ووقف فى آخر كمين وركب جساس ذلك الحصان وأطلق له العنان فسار فى تلك القفار أسرع من الطير إذا طار ولما اقترب من الخيل تبعته فسبقها جميعاً ما عدا القميرة ففرح جساس ثم نزل عن ظهره وأمر العبيد أن يربطوه بقرب صيوانه ووكل به مائة عبد وقال لقد أقبل علينا السعد وسوف نقتل ذلك الوغد:

(قال الراوي) هذا ما كان من جساس وأما الزير فإنه عند رجوعه من الصيد استفقد ذلك الحصان فلم يجده مع الخيل فصعد إلى القصر وسأل اليمامة وأشار يقول :

يقول الزير أبو ليلي المهلهل   بدمع قد جري مني بداد
يمامة رحت أنا للصيد قانص   وقومي وإخوتي ثم الجياد
لنا عشرون يوماً في فلاوة   ودرنا من بلاد إلي بلاد

وصدنا طيورا ووحوشا كثيرة ودرينا رجعنا للبلاد
وجيت لمهر أخي فما لقيته شرد عقلي وعني عاد غاد
فأين المهر قوطر يا يمامة عدم صبري وفارقني رشادي
أمات المهر أم أحد أخذه من الأوباش والناس الأعادي

فلما سمعت اليمامة شعر عمها أجابته تقول:

تقول اليمامة ياعم اسمع ألا ياعم جاءوا الأعادي
أبي جساس أخذه غصب عني أنا حرمة ومالي من جلادي
فقلت تأخذه يا خال تندم يجوكم غدا علي خيل جيادي
فقال غدا ألاقيكم بعزمي وقد زادت غمومي بازدياد
له يا عم ثلاث أيام غايب وقد زاد حزني بازدياد
فقم يا عم شد الخيل واركب بعسكر كأنه رف الجراد
وميل علي بني مرة بسيفك واحصد جمعهم مثل الحصاد
ياعمي عدية اليوم يومك ياعزي وفخري واعتمادي
وهاتوا رأس جساس سريعا أجبر خاطري وأشفي فؤادي

فلما فرغت من شعرها ونظامها أجابها الزير يقول:

يقول الزير قهار الأعادي أنا السبع الجسور في كل وادي
غدا لابد أجد في لقاهم وأحصد جمعهم يوم الجهاد

وآخــــــذ ثـارنـا من آل بـكـر وأطفـي النار من طـي الفــؤادي
وآخـذ مـهـرنا المدعـو بـعندم ويظهـر ذكـرنا بين العـبـادي
فـمن يذهب يقـول لأولاد مـرة أتاكـم اليـوم دباح الأعـادي
أتاكـم مـــهلـهل مـع آل تغـلب أسـود الحـرب في يوم الـطراد
ألا يا آل مــرة سـوف أشـفي بقـتل سـادتـكم فــؤادي
ولا يخـــفـــاكـم يا آل مـــرة بقـتل كليب صـرتم لـي أعـادي

فلمـا فـرغ الزير من شعـره دخل وجلس فى الديوان وجـمع إخـوته والأمـراء والأعـيـان وأخـبـرهم بواقـعـة الحـال وقـال لهم مـا رأيكم فى استجـلاب الحصان فقالوا له الرأى رأيك ونحن طوع يديك قـال متى كان الصباح تركبوا فى ثلاثة آلاف فارس وتكمنوا فى وادى الهجين وأنا أكمن فى وادى المطلا وكـان هذا المكان يبعـد عن بنى مرة مسافـة ميل ثـم قال لأخيـه عدية وأنت قم الآن وغـير ثيـابك وزيك والبس ثياباً ممزقـة حتى لا أحد يعود يعرفك واذهب لحى بنى مرة وتجلس بقرب صيوان جساس فإذا سـألوك عن بلادك ومـهنتك فقـل لهم إنى من بلاد الصـعيـد ومـهنتى هى سيـاسة الخيل وأنا قـد بلغنى أن جسـاس من محبـته فى الحـصان كل يوم يسلمـه إلى سايس فإذا قـال لك هل تريد أن تخدم عنـدى وتسوس هذا المهر فـقل نعم حتى إذا تمكنت منه تركـب ظهره وتـلحقنا إلى ذلك المكان فمتى صرت هناك لا تخف ولا تحسب لهم حساباً ولو كانوا بعدد التراب

فإني سأبيد جمعهم بعون رب العالمين وآخذ ثأرها من جساس اللعين فاستصوب رأيه ولبس ثيابا ممزقة وتعمم بعمامة والتحف بحزام عتيق وغير زيه وتنكر وسار يقطع البر الأقفر إلى أن دخل حى بني مرة فقصد صيوان جساس وكان قد أقبل الليل فرقد بين أطناب الخيام ولما كان الصباح جلس الأمير جساس واجتمعت حوله أكابر الناس ثم وضعوا موائد الطعام وأخذوا يتذاكرون بالكلام فبينما هم كذلك إذ خانت من جساس التفاتة فرأى عدية وهو على تلك الصفات فشفق عليه وقال لبعض غلمانه أطعم هذا الفقير واسأله عن حاجته فأخذ له الغلام طبق الطعام وسأله عن بلاده فقال إننى من بلا الصعيد ومهنتى سياسة خيل الأماجيد فقد جار على الزمان فأتيت من الأوطان قاصداً أهل الفضل والإحسان إلى أن وصلت إلى هذا المكان فطيب الغلام خاطره وأعلم مولاه بحاله فقال جساس إذا كان بلاد الصعيد فهو أدرى بسياسة الخيل من العبيد فدعوه يسوس لنا عندم المهر الجديد وأنا أعطيه كل ما يريد وإن وجدته من الماهرين سلمته جميع خيلى وجعلته رئيس اصطبلى فلما قال له الغلام هذا الكلام دعا لجساس بطول العمر ثم إنه تحزم وتقدم إلى المهر ففك قيود رجليه وقبله بين عينيه وقال هذا يومك يا جوادى فقد بلغت الآن مرادى وكان المهر لما رأى صاحبه عرفه فمال إليه وآلفه فتعجب جساس وباقي الناس لأن الجواد كان لا يألف أحد من العبيد

الموكلين عليه وكان كـل من قاربه ضربه بيده ورجله فقـال جساس وحق رب الأنام إن هذا السائـس يستحق الإكـرام والإنعام وكان عـدية لما تمكن من المهر ركب على ظهره ثم لكزه برجليه وصاح فسار مثل هبوب الرياح وجد فـى قطع البطاح كأنه طيـر بلا جناح فلما رأى جـساس تلـك الحال تغيرت منه الأحوال وعلم أنها حيلة قد تمت عليه ولطم على خديه ووجهه وصاح على الأبـطال والفرسان وقـال دونكم وهذا الشيطان فـقد احـتال علينا وأخذ عنا بالمكـر والاحتيال حـتى نال طلبه وبلغ قصـده وأربه فعند ذلك ركبت الفرسان ظهـور الخيول واعتقلوا بالسيـوف والنصول وتبعوه في تلك السـهول وهم يصـيحـون وواءه ويجدون فى قطع الفـلاة إلى أن وصل إلى ذلك الوادى الغـدير فـوجد أخـاه الزير وهو كـامن هناك في جماعة من الأبطال صناديد الرجال، فأعلمه بواقعة الحال فقال خذ حذرك الآن فقد أتتك الفـرسان من كل جانب ومكان فتبـسم المهلهل وقال سوف ترى ما أفـعل ثم إنه نزل عن ظهر حصـانه وأعطاه لأخيـه وأخذ المهلهل الأدهم ووضع عليه عدة جواده ثم ركب وتلملم وإذا بالخيل والمواكب قد أحاطت بـه من كل جانب فصـاح عليهم وحـمل بقلب أقوى مـن الجبل ومال عليهم بالحسام كأنه ليـث الآجام، فطير الرءوس عن الأجسام وفتك فيهم فتلك الذئاب بالأغنام وفى أقل من ساعة أدركته بقية الجماعة الذين كانوا مكمنين فى وادى الهـجين فانصبـوا عليهم كالشواهين مـن الشمال

واليـمين وكـان قد وصـل الخبـر إلى جسـاس فـأخذه القلق والوسـواس فركب بيـاقى الأبطال ومن يعتمـد عليهم من الرجال وقـصد ذلك المكان وقاتل قتال الشجعان والتقت الرجال بالرجال والأبطال بالأبطال وعظمت الأهوال وجـرى الدم وسـال وكثـر القـيل والقـال وتزلزلت الأرض من هول القتال وكانت واقعة عظيمـة لم يسمع بمثلها فى الأيام القديمة انهزم فيـها جسـاس أقبح هزيمة وغنم المهلهل غنـيمة جسـيمة لهـا قدر وقيـمة ورجع إلى الديار بالعـز والانتصار فـالتقتـه النساء بالدفوف والمزامـير ثم طلع إلى النصـر وهو منشرح الصـدر فشكرته بنات أخـيه على مـا فعل وقلن لله درك من بطل فقـد أخذت الثار وطفيـت من القلوب لهيب النار فالله يحفظك ويبقيك وينصرك على حسادك وأعاديك فشكرهن على ذلك الكلام وبعد أن خلع ثيابه جلس للطعام وشرب المدام، ثم خلت أمه فقبلته بين عينيه وهنأته بذلك الانتصـار وطلبت منه أن يرفع عن بنى مرة السيف البتار فـاستقبلها بالوقار والاعـتبار وقال لها والله إنى لا أصـالحهم يا أماه حتى يعود كليب إلى قيد الحياة ثم تذكر تلك الوقعة وما جرى له فى تلك الأيام مع القوم فأنشد يقول وعمر السامعين يطول:

يقـــول الزيـر أبو ليـلي المهلـهل ... وقلـب الزير قـــاسي مـــا يلينا
وإن لان الحـــديد مـــا لان قلـبي ... وقلبي مـن حـديد الـقـاســيـنا
تريـدي يا أمـيـــة أن أصــــالح ... ومـــا تدري بمـا فـــعلوه فـــينا

فسبع سنين قد مرت علي أبيت الليل مغموما حزينا
أبات الليل أنعي في كليب أقول لعله يأتي لينا
كان كليب في رءوس المعلا تغشاه ذئاب الجائعينا
أتتني بناته تبكي وتنصم تقول اليوم صرنا حائرينا
فقد غابت عيون أخيك عنا وخلانا يتامي قاصرينا
سللت السيف في وجه اليمامة وقلت لها أمام الحاضرينا
وأنت اليوم ياعمي مكانه وليس لنا بغيرك معينا
وقلت لها ما تقول أنك عمك حماة الخائفينا
كمثل السبع في صدمات قوم أقلبهم شمالا مع يمينا
فدوسي يا يمامة فوق رأسي علي شاشي إذا كنا نسينا
فإن دارت ورحالنا مع رحاهم طحناهم وكنا الطاحنينا
أقاتلهم علي ظهر المهر أبو حجلان مطلوق اليمينا
فشدي يا يمامة المهر شدي وأكسي ظهره السرج المتينا
وهاتي حربتي رطلين وأزود وحطيها علي عدد متينا
ونادي علي عدية وكل قومي صناديد الحرب المانعينا
وناد إخوتي يأتوا سريعاً لنلقي جيش بكر أجمعينا
فنادتهم أتوا كأسود غاب وقالوا قد أتينا يا أخينا
ويأتوا يحرسون الليل كله وقضوا الليل كله وساهرينا

(قـال الراوي) فلما فرغ الزير من شعـره ونظامه شكره الجميع على مقـاله وباتوا تلك الليلة فى سـرور وانشراح ولما أصبح الصبـاح وأضاء بنوره ولاح أمر الزير قومه بالاستعداد للحرب فركب ظهر الجـواد وتبعته الفـرسان والقـواد وقصـدوا بنى مرة بقلوب قـوية وهمم علية فـالتقـاهم جساس مع إخوته وأهله واشتـبك بينهم القتال وعظمت الأهوال وابتليت بنو مرة بـالبلاء والويل وكان الزيـر يحصد فـيهم بالنهـار والليل واستـمر القـتال بين الفـريقـين مدة سنتـين حتى فـقـد من بنى مرة فى هذا الحـرب الأخـيـر نحو اثنى عشـر ألف أمـير عـدا السـادات والأكابر والجـيـوش والعساكر وكان الزير يأمر قـومه بقطع الرءوس ووضعها فى المخازن لأنه كـان قد أقـسم بالله العظيم أن سيـملى البـيوت من جـمـاجمـهم وباقى الأمـاكن فلما طـال المطال واشتـدت على بكر الأهوال اجـتـمعت أكـابر الناس مع الأمير جساس وأخذوا يتفاوضون كيف يتخلصون لأن الزير لا يقبـل منهم فدى وجمـيع وسـائطهـم التى استعـملوها فى توقـيف الحرب راحت سدى فـقال سلطان لأخـيه جسـاس اعلم يا أخى بأن الزير فى كل صباح يمر على قبر أخيه فيجيبه بالسلام ويقول له قد قتلت فى ثأرك فلان وفلان فهل اكـتفيت أم لا فلا يجيبه أحد فالرأى عندي أن تنتخـبوا رجلا وتضعـوه داخل القبة بحيث لا يراه أحـد فإذا مر الزير على القبـر حسب عادته وسـأل أخاه ذلك السـؤال فيجـيبـه الرجل بصوت خفـيف من قلب

ضعيف لقد اكتفيت يا أخى فاغمد سيفك من هذا اليوم عن قتال القوم وإياك أذية البشر فإن ذلك مما يجلب على الضرر فإذا سمع هذا المقال فلربما ينطلى عليه المحال فيكف عن الحرب والقتال فنستريح من القيل والقال فاستصوب جساس وباقى الأعيان رأى الأمير سلطان.

(قال الراوي) وكان فى القبيلة رجل فقير الحال عديم الأشغال فاستدعاه جساس إليه وقص ذلك الكلام عليه وقال له إذا بلغنا الأرب وأجبتنا إلى الطلب أعطيتك مهما تريد المال والعبيد فقال الأجرة مليحة ولكن الطريقة خطرة قبيحة فأخذ جساس يحسه بالكلام ويرغبه فى هذا بالشعر والنظام:

علي ما قال جساس بني مرة	ألا يا فارغ الأشغال اسمع
فلي عندك حاجة صغيرة	فتقضيها سريعاً ثم ترجع
فإن الزير لاشانا جميعا	وفرق جمعنا في كل موضع
ولا يقبل رجاء ولا عطايا	وعن الأفعال ما كان يرجع
يثأر كليب صرنا شرايد	أعدم في الوغي كل ليث أروع
يمر في قبره في كل صباح	ويزعق بصوت للأكباد يصدع
يقول ألا نعمت أخي صباحا	أيكفي ما قتلت تريد أرجع
فاذهب واختبي في القبر حالا	إذا صاح المهلهل أنت تسمع
إذا سألك أحارب أو أصالح	أجيبه أنت محفوظ أرجع

إن رضـــيـت منهـم نلـت ثاري　　وأنت بقـتلهـم لا عـدت تـطمع
لعـله يظـن إنك أنت أخـيـه　　فـيـصـفح عن مـآثمنـا ويرجع

(قـــال الراوي) فلمـا فرغ جـساس من هذا المقـال قال له عـديم الأشغـال على الرأس والعـين ولما كان الليل حـفروا سـرداباً وصلوه إلى القبر وأدخلوا ذلك الرجل فيه، ولما كـان الصباح ركب الزير ظهر الحصان وتبعه الأبطال والفرسان ومر على قـبر أخيه حسب عادته ونادى بصوت عال نعـمت صباحـاً ياأخى كليب فقد قـتلت فى ثارك نهار أمس خمـسة آلاف نفس أيكفى مـا قتلت منهم أو أرجع أفنيـهم عن بكرة أبيهم فـأجابه ذلك الرجل من القبر بصوت خفيف وأنت أنعمت صباحا يا أخى الحنون ياساقى الضد كاس المنون كف الحرب فقد اكـتفيت وإن قاتلتهم بعد اليوم تكن قد تعديت وبغيت فتزيدنى ضـرراً أو غماً وكدرا فإن نفسى قد بلغت مناها ونالت مشتهاها فكثرت خيراتك وزادت الدنيا مسراتك.

(قال الراوي) فلما سمع الزير هذا الكلام زالت أتراحـه وزاد فرحه وانشراحـه وقال سبحـان الرحمن الرحيم الذى يحـيى العظام وهى رميم أنت يا أخى بخير ونحن بعدك تقاسى الضنك والضيـر ثم نزل عن ظهر الحصان ودخل إلى القبر وهو فرحان وقال إذا كنت بخير يا أبا اليمامة فما هى هذه السكتة والإقامة بعد العـز والكرامة فقم إلى عند بناتك فإنهن فى حزن وكـدر ثم تقدم إليـه وتأمل فيه بـالنظر فرآه إنه ذلك الرجل المعـهود

فغاب المهلهل عن الوجود فجذبه من لحيته وأخرجه من السرداب وقال له أصدقني بالخطاب فمن أنت ومن تكون قبل أن تشرب كاس المنون فأعلمه بواقعة الحال وحقيقة الأعمال فسل السيف ليقتله وقد أغاظه فعله فقال أنا بحيرة كليب أخيك فلا كان من يعاديك وقد غرني جهلي من قلة عقلي حتى جرى ماجرى يا فخر الورى.

فلما سمع الزير كلامه أبدى ابتسامة فصفح عنه وأعطاه جواداً من أطايب خيل العرب وألف دينار من الذهب فدعا له بطول العمر وخرج من القبر وهو يقول : والله إن الأمير كليب يحمى اليوم الخائف فى مماته كما كان يحميه فى أيام حياته ثم رجع إلى القبيلة وهو يتعجب من تلك الحيلة وفى الغد ركب فرقة من الأبطال وقصدوا بنى مرة واشتبك بينهم القتال وعظمت الأهوال وما زالوا فى قتال وصدام مدة عشرة أيام فانكسرت بنو مرة أشد انكسار وقتل الزير مقتلة عظيمة المقدار وكان يأتى برأس سادات الجماعة فيضعها على قبر كليب مدة ساعة ثم يدفنها تحت الثرى ويبنى فوقها القصور والقرى وكان كلما أقبل من الحرب فى المساء تلتقيه اليمامة مع جماعة من النساء فتقول يا سيد الناس هل أتيت برأس خالنا جساس حتى تخلع السواد ويطيب الفؤاد فيقول كونى براحة بال فسوف تبلغين الآمال بإذن الإله المتعال.

هذا ما كان من المهلهل وأما جساس فإنه قد استقبل ولما ضاق به الحال

اجتمع أهلـه وعشيرته وعقـدوا بينهم ديوانا فاستقـر رأيهم على أن يذهبوا إلى بلاد الحبـشة والسواد ويلجـأوا بالملك الرعينى ابن اخت التبع حسان فى ثانى الأيام وإخوته وأكابر عشيرته، وأخـذ معه ابنته الجليلة لتشفع لهم عند حـريم الملك الرعينى وبقى أخوه شاويش فى الحى وكـان هذا الرجل يحب الزير من أيام صـباه فـعند رحيل جساس حـضر شـاويش إلى عند الزير وأعلمـه بما جـرى وكان من مـسير إخـونه إلى عند ملك الحبشـة والسـودان فأعطاه الزيـر الأمان وقـال له إنى مـا عدت أحـاربكم من الآن حتى تحضـر إخوانك إلى الأوطان بالأبـطال والفرسـان وتوقف الزير من ذلك اليوم عن محـاربة القوم وصار يصرف أوقاته بـالصيد والقنص هذا ما كان من المهلهل وأما جساس فإنه قد جرى فى قطع القفار حتى وصل إلى بلاد الحبشة وتلك الديار ودخل على الملك الرعـينى ووقع عليه بعد ما أعلمه بحـالتهم الحـاضرة وطلب منه النجـدة والمساعدة عـلى حرب الزير وذكر له أيضاً بأن كليب قتل خاله تبع حسان وقتله هو، وبقتله قام أخوه الزير يحاربهم حتى كاد أن يفنيهم فلمـا سمع الرعينى هذا الكلام قال لقد بلغت اليوم منكم المرام ولابد من ذبحكم بحد الحـسام لأنكم من قوم لئام قتلتم خـالى وأتيتم تستجـيرون بى ثم أمر بقـبضهم وكانت الجليلة واقـفة على باب الصـيوان وهى مثل الـطاووس ، لابسة أفـخـر الملبـوس كأنهـا العروس فلمـا شاهدت ماجرى على قـومها خافت من العواقـب فشقت

المواكب وتمثلت أمام الرعيني فقبلت أياديه ودعت له بطول العمر فلما رآها الرعيني تعجب من فرط حسنها فمال قلبه إليها ووقع في شرك هواها فقال لها من تكونين يا مهجة الفؤاد وبغية المراد فقالت له أخت القوم الذين أمرت بقبضهم بدون ذنب ثم أشارت تقول:

ما قالت الجليلة بنت مرة	أيا أبو فهد أصحي دير بالك
وانظر يا سياج البيض فينا	وانظر الذي وقفوا قبالك
أنا لقيتك يا ملك الوادي	يا من بالملا شاعت فعالك
ملوك الأرض كنايا مسمي	فأنت نظيرنا ونحن مثالك
فالذي جري كله مقدر	أيا فخر الوري من قتل خالك
قتل خالك كليب في حسامه	وقام أخي الذي واقف قبالك
قتل لكليب خالك بسيفه	كرامة خاطرك واصفي بالك
ظهر لكليب أخ اسمه المهلهل	حرمنا النوم زاد الله مالك
قتل منا أماجيد كثيرة	أتينا واقفين علي ديارك
فهذا اليوم يومك يا مسمي	فدق الطبل واركب في رجالك
وسر معنا إلي الزير المهلهل	فاقتله ودوسه في نعالك
واحكم سائر العربان يا ملك	علي أموره تبقي حلالك
ولاتشمت العدا يا أمير فينا	أتينا لك وصرنا من عيالك
وأنت صميدع شهم كريم	جميع الخلق تفزع من خيالك

(قال الراوي) فلما فرغت الجليلةمن نظامها وفهم فحوى قصدها ومرامها ثارت في رأسه الحمية. وقال قد فهمت قولك يا صبية ثم أشار يقول وعمر السامعين يطول:

قال الرعيني أبو فهد قال ... ألا يا جليلة اسمعي المقال
وأنتم افهموا قولي يا ملوك ... أولاد مرة ترون الهم زايل
أتيتم تلتجوا في الجميع ... وقعتم علي وقع العيال
من جور الزير يا أهل الكرم ... دهاكم ضناكم رماكم بحال
فوحياة رأسي ورحمة أبي ... من خلق الأرض وأرسا الجبال
لا ركب عليه بكل الفحول ... وأجرد عساكر شبه الرمال
وأقتل عداكم بجاه السيوف ... وأنا أدع الزير في سوء حال
جليلة طيبي أنت وأبشري ... أنا فدا أخوك بحد النصال
أيا أخي غطاس انهض الآن ... واجمع الفوارس والأبطال
نادي علي الجيش أن يركبوا ... يلبشوا الزرد والنصول الصقال
ودقوا الطبول وشدوا الخيول ... ومشوا الفحول شبه العذال
فدعنا نسير نزيل عسير ... عن أولاد مرة هذا النكال

(قال الراوي) فلما فرغ الرعيني من كلامه نهض أخو غطاس الوزير وجمعوا الأبطال والفرسان والعساكر السودان ونادى المنادى أن السفر يكون بعد ثلاثة أيام ولما تجهزت العساكر للمسير لحرب الزيز كان

عندهم ستمائة ألف بطل ففرح جساس ومن معه من الناس لما رأوا تلك السهول قد امتلأت بالخيول وفى اليوم الثالث دقت الطبول ولمعت النصول وسارت العساكر كالبحور الزواخر فى أوائلهم الملك الرعينى وأكابر دولته وجساس وباقى عشيرته وما زالوا يقطعون البرارى والآكام حتى وصلوا إلى بلاد الشام فأرسل جساس يعلم قومه بقدوم هذا العسكر وأن يهيئوا لهم الأطعمة والذخر فلما سمعوا هذا الخبر فرحوا فرحا عظيماً وهيئوا لهم ما يحتاجون إليه من الطعام والمدام وخرجت النساء والرجال للقائهم فلما وصلوا إلى الديار نزلوا فى المضارب والخيام وقد تباشر قوم جساس بالنجاح والظفر وبلوغ الآمال.

(قال الراوي) كل هذا يجرى والزير ليس عنده خبر بشىء من هذه الأمور بل كان مواظباً على السرور وشرب الخمور فبينما هو كذلك إذ دخل عليه أخوه عدي وقال له أنت جالس فى صفاك ولا تدري بما دهاك من أعداك وأشار ينشد ويقول :

لقد قال الفتي المدعو عديا ... ودمع العين فوق الخد ساجم
أراك اليوم في زهو ولهو ... تنبه يا أخي إن كنت نائم
فقم وانظر علي ما سوف يجري ... من الأعداء يا ابن الأكارم
أتونا قوم مرة بالرعيني ... ملك جبار بالأحكام ظالم
لقد ذهبوا إليه يا مهلهل ... فجاء بست كرات عوالم

بهم من كل قـــوم ليث أروع — وهو من بينهم مثل الصقر حائم
تبدي الزير حـالا ثم قـال له — تخاف من العدي وأخوك سالم
أنا وحـدي ألاقيـهم بعـزمي — أنا الدعـاس في يوم الزحـايم
وإني سـوف أقتلك بالرعـيني — وأقطع رأسـه والله عـالم
وإنني جـيشـه مع جيش مرة — أنا المقـدام مـا بين المعـالم

(قال الراوي) فلما فرغ الزير من نظامه وفهمت قومه فحوى كلامه تعجبوا من هذا المقال وشكروه على تلك الفعال وأخذوا يستعدون للحرب والقتال، وأما الزير فإنه صبر إلى الليل فغير زيه وتنكر حتى لم يعد يعرفه أحد من البشر وجعل نفسه كأحد شعراء العرب الذين يقصدون الأمراء وأرباب المناصب والرتب طمعاً فى الفضة والذهب ثم ركب الحصان وتقلد بالحسام من تحت الثياب وأخذ معه بعض الغلمان وسار إلى قبيلة بنى مرة ولم يعلم به إنسان ولما اقترب من الحلة نزل عن ظهر الجواد وسلمه إلى الغلام وقصد المضارب والخيام حتى وصل إلى صيوان الرعينى فوجده جالس وحده فدخل وسلم عليه وتمثل بين يديه فلما رآه الرعينى فى ذلك المنظر خاف وانذعر وسأله عن مهنته فقال إننى شاعر أطوف على الأمراء والأكابر فأحصل منهم على الإنعام ومزيد الإكرام وقد سمعت أنك فى بنى مرة فأتيت قاصدك من مدينة البصرة إلى أن تشرفت بطلعتك وتمثلت أمام حضرتك .

(قال الراوي) وكان للرعينى زوجة تدعى بدور كانت خلف الستار فسمعت ما دار بينهما من الإيراد فأرسلت جاريتها تقول للملك أن يأمر الشاعر بالإنشاد فقال الرعينى أنشد يا شاعر فأنشد يقول:

قال الأديب الذي طالب إحسانك ... جرحي بوسط الحشا والقلب بزار
يابو فهد يا رعيني استمع ما أقول ... يامن قلوب العدا بالروع هزار
قد كنت قبلا في خير وفي نعم ... مستور ما بين أهلي ما أنا معتاز
فصرت شاعراً علي الأجواد ... أطوي الأراضي ماشي علي عكاز
قالوا فسر للرعيني مقصد الشعر ... فذاك جواد يعطي كل معتاز
فجئت طالبا إحسانك وإكرامك ... يا من حويت المكارم بعطا المعتاز

(تم الجزء الخامس ويليه الجزء السادس)

الجزء السادس

من قصة الزير أبو ليلى المهلهل

(قال الراوى) فلما فرغ الزير من كلامه أمر الملك الخزندار أن يعطيه ألف دينار فعند ذلك سل الزير سيفه الأبتر أسرع من لمح البصر وضرب الرعينى على عاتقه خرج من علائقه ثم مال على الطواشية والخدام بضرب الحسام وبعد ذلك هجم على الخيام كسبع الآجام فقتل الرجال ومدد الأبطال فوقع فى السودان الضجيج والصياح والعويل والنواح فخرجت الأبطال من المضارب ، وركبوا ظهور الجنائب فتقلدوا بالسيوف وهجموا على بنى مرة صفوف صفوف وهم لم يعلموا سبب ذلك الويل من شدة سواد الليل غير أنهم ظنوا بنى مرة قد خدعوهم حتى أتوا معهم إلى بلادهم فقتلوا ملكهم وغدروهم فلما رأى جساس ما حل بقومه من السودان استعظم ذلك الشأن فركب جواده وتبعته أجناده واضطر أن يدافع عن نفسه ويحامى عن أبناء نفسه فقاتل تلك الليلة حتى استقتل وفعلت رجاله مثلما فعل ، وكانت ليلة مهولة وحادثة غير مأمولة كثر فيها

القتل والجراح إلى وقت الصباح، وكان المهلهل لما بلغ القصد والأمل بذلك العمل أرسل عبده في الحال إلى الاطلاع في طلب الفرسان والأبطال فحضروا عند طلوع النهار وأحاطوا بالأعادى من اليمين واليسار وحكموا فيهم ضرب السيف البتار واستمر الحرب والصدام بين القوم ثلاثة أيام حتى أبلاهم المهلهل بالويل والدمار وقتل منهم كل بطل مغوار وأسد كرار وكان من جملة المقتولين الأمير غطاس قائد جيش السودان فلما رأت الجيش ما حل به من الهوان ولت الأدبار وأوسعت فى جوانب القفار وكذلك انهزم جساس ومن تبعه من الناس وتفرقوا بالفلاه وهم يقصدون النجاة ورجع الزير مع قومه التغلبيين غانمين ظافرين فدخل القصر بالعز. والنصر وصحبته أكابر القواد الذين عليهم الاعتماد وهم يثنون على المهلهل ويقولون لا عدمنا طلعتك أيها البطل فبسيفك نلنا المراد وقهرنا الأعادى والحساد فلا زالت أيامك فى سعود وعدوك مقهور ومكمود ثم إنهم أكلوا الطعام وشربوا المدام وباتوا تلك الليلة فى سرور وأفراح على ذلك الانتصار .

وأما الأمير جساس فإنه بات فى قلق ووسواس وندم على ما فعل وقطع من سلامته الأمل ولا سيما لما بلغته الأخبار بأن ذلك الاختلاف والانكسار الذى جرى عليهم فى الليل والنهار كان بحيلة المهلهل الأسد الكرار فراد همه وعظم حزنه وغمه فكانت قبائل العرب يطلب منها

المساعدة على قتال بنى تغلب فانضمت عدة قبائل برسم المساعدة وصاروا جميعهم يداً واحدة وكذلك انضم مع الوزير جملة قبائل مشاهير فحتى لم يبق فى بلاد العرب قبيلة إلا وانضمت مع بنى تغلب.

(قال الراوي) من غريب الاتفاق المستحق التسطير فى الأوراق بأن الأمير مهلهل خرج ذات يوم فى عشرة آلاف بطل ومعه الأمير كتيف وكان من أشراف تغلب وفرسانها الغطاريف وتبطن فى جوانب القفر ليجس أحوال بنى بكر فمر بقبيلة من قبائل العرب يقال لهم بنو تميم وهم من فرع تغلب وكانت هذه القبيلة ذات خيرات جزيلة واجتمع المهلهل بفرسانها وسيدها الأمير عمر وقال لهم اركبوا معنا يا بنى تميم لقتال بنى بكر فأبوا وقالوا عن فرد لسان لا نحارب من لم يحاربنا من العربان فقال المهلهل أما شملتكم الحرب لحد الآن فقالوا لا يافارس الميدان فقال فوحق الإله الخالق ما كنت أظن أنها شملت كل من فى المغارب والمشاق ومادام الأمر كذلك يا وجوه العرب تنحوا عن منازلكم خوفا من حلول العرب واقصدوا غير هذه الديار مرادنا أن نقاتلهم تحت ستور الاعتكاف فإن حاربناهم لا تأمنون على أنفسكم من شرهم وأذاهم لأنكم فرع من قبيلة بنى تغلب فينتقمون منكم لهذا السبب فقالوا ما علينا من بأس فإنهم يحاربون من يتعرض لهم من الناس فاغتاظ المهلهل من هذا الكلام وكان عليه أشد من ضرب الحسام فتركهم وسار من الأثر بمن معه من العسكر

وجد فى قطع القفار فالتقى بقوم من بنى بكر فى ذلك الجوار فكبسهم تحت ظلام الليل وأبلاهم بالذل والويل فسلب أموالهم وقتل رجالهم وأخذ رءوس سادتهم العظام ورجع فى الظلام وطرح الرءوس بين خيام القوم المعتزلين من بني تميم المذكورين كانوا راقدين ثم تركهم وارتحل وسار علي عجل فلما استيقظت بنو تميم من المنام ورأت الرءوس بين أطناب الخيام فأيقنوا أنها مكيدة من المهلهل فزاد بهم الخوف والوجل وعلمو أنه لابد أن العدو يتهمهم بذلك العمل فنهضوا وارتحلوا من أطلالهم بمواشيهم وأموالهم وانضمر إلى قبيلة بنى تغلب والتجأوا بالمهلهل فارس العجم والعرب فلم يبق قبيلة من قبائل العربان فى ذلك الزمان إلا شملتها الحرب والهوان.

(قال الراوي) ولما عظم الأمر على جساس وضاقت به الأنفاس فصعد العابد نعمان الذى تقدم ذكره قبل الآن فوقع عليه وشكا خاله إليه وبكى بين يديه وطلب منه أن يسير بالعجل ويقصد الأمير مهلهل ويطلب منه كف الحرب والطعان مدة من الزمان لحينما ترتاح النفوس والقلوب من هول تلك الحرب التى أهلكت الرجال ورملت النساء ويتمت الأطفال فلما سمع قوله رق له فسار إلى عند المهلهل فى الحال وطلب منه أن يكف القتال ولو برهه قصيرة ومدة يسيرة وذلك لراحة القبيلتين وخير الفريقين فإجابة إلى ذلك المدام لأنه كان يحبه دون باقى الآنام وأمر بتوقيف الحرب

عن القوم من ذلك اليـوم واشتغل المهلهل فـى تلك الأيام بالملاهى وشرب المدام وأكل الطعام وسماع الأصوات والأنغام ومـغازلة النساء فى الصباح والمساء وكـان جساس يترقب على المهلهل الـفرص ليقتله ويزيل مـا يقلبه من الغصـص فبلغه فى بعض الأيـام أن الزير طريح الفراش فى الخـيام من كثرة شرب المدام وأن إخوته قد خرجـوا للصيد ولايرجعون إلا بعد ثلاثة أيام فـجـمع إخوته وأعـلمهم بذلـك الخبـر واتفق رأيهم أنه بـعد غـروب الشمس يركب أخوهم سلطان فى جماعة من الفرسان ويكبس سالم الزير على حـين غفلة ولما كـان الليل ركب سلطان فى ثلاثة آلاف بطل وقـصد حى المهلهـل ولما صـار هناك هجم عليـه وهو راقــد فى الخـيـمة سكران فأحاطت به الفرسان وقبضوا عليـه وأوثقوه كتافا. ثم نزلوا عليه بالسيوف إلى أن أثخنوه بالجراح وأتلفوه حـتى صار عبرة لمن اعتبـر وكان دمه يسيل كالمطر فـزادت أفراحهم وزالت أتراحـهم وقالوا لقد بـلغنا الأرب ورفعنا الحرب عن العرب.

ثم إنهم وضـعـوه فى جلد جـاموس وأخـذوه إلى عند أختـه ضبـاع وقالوا لها لقد أتيناك بقاتل ولدك فخذيه وأشـفى منه غليل كبدك فياما قتل ويتم ورمل فما هان عليـها ذلك الأمر لكنها أظهـرت لهم السرور والفرح وقـالت إن جزاء الغـدار الحـرق بالنار ثم تركوهـا وساروا وأمـا هى فقـد احتـارت فى أمرها وزادت أحزانهـا عليها وإنـه وإن قتل ولدها فإنه شـيد للقبيلة ذكراً لا يبور على مدى الدهور.

فبينما هى فى بحر الافتكار وإذا به قد فاق من غشوته وصحى من سكرته وقال وهو على آخر رمق سبحان الحى الدائم ثم صاح يطلب عبده شهوان وهو يظن أنه فى ذلك المكان فقالت له ضباع قد انتقموا منك أعداك فاصحى فقد ذقت الموت والهلاك فلمارأى ذاته عند أخته وهو على تلك الحال أنشد وقال:

قــال الزير أبو ليلى المهلهل	ونار الحزن توقد في حشاه
فكان كليب ملك البرايا	أتي جساس غدره بالفلاه
جلست في مكانه أخذ لثاره	وكنت أنعيه صباحا مع مساء
فقال الشيخ كف الحرب عاجل	ولاتقتل لسيف ولا تناه
جلست بخيمتي والدن جني	وعندى العبد ما عندي سواه
وقومي كلهم للصيد راحوا	فعرفوا القوم مع باقي العداه
أتوني والمقدر كان كائن	وحلي كل مما أن تراه
أتوا بي لعندك ياأخت حتي	تنالي الثار يا غاية ماه
كليتي يا ضباع أو اقتليني	أنا أخوك إذا احتبك القاه
فأنتي تشبي اللبوات حقا	وإني مشبه سبع الفلاه
فألقيني بصندوق مزفت	وارميني ببحر في مياه
أيا أسما أفعلي أنت بأصلك	ربيعة بيننا ما غباه

(قال الراوي) فلما فرغ الزير من كلامه غاب عن الوجود وصار فى

صفة المفقود وكانت ضباع لما سمعت من أخيها هذا الكلام صار الضيافى عينيها ظلام ثم إنها جاءت بصندوق كبير فوضعت فيه سالم الزير وزفته وطلته بالقار وكان عندها عبدان أمرتهما أن يحملا ذلك الصندوق ويلقياه فى البحر فحملاه وسارت هى معهما تحت جنح الظلام إلى أن وصلا إلى شاطىء البحر فطرحاه هناك فى البحر ثم بكت ضباع عندما غاب عنها أخيها ورجعت تنوح من فؤاد مجروح تقول ياليتنى كنت فداك ولا كان من يسلاك فقد أحرقت قلبى بفراقك ياجميل المحامل وفخر الأواخر ثم أنشدت تقول بهذه الأبيات:

تقول ضباع من قلب حزين ... أيا عيني فريدي في بكاها
كواني البين في أول زماني ... رماني الدهر في أعظم بلاها
أيا دمعي فزيدي في سخاكي ... علي محزونة فقدت أخاها
لقد كان ملوك البرايا ... ومن أعلا ملوك الأرض جاها
كليب جساس الذي قتله ... طعنه طعنة برمحة في قفاها
ترك دمه علي الأرض فاير ... بحربة مسمعة من السم سقاها
وقام الزير كي يأخذ بثاره ... فقاتل آل مرة ثم هفاها
لقد قتله سلطان بغدر ... اثني عشر الف جملة قناها
فقال خذوه إلي أخته الحزينة ... لنأخذ ثار ولدها مع أخيها
فحطيه في صندوق مقفل ... ومن بني مرة ما يعلم حداها

وقلت لـه روح يا جـمل المحـامل | أيـا عـــود بيـــتي انحـناهـا
وقلت قـتـلتـه يا فـخـر قـومك | أيا حـطامـاً لـلجـائع عـشـاهـا
أيا يـومـاً أخـذه الموج عـاجل | ومـوج البـحـر يـلطم في مـداها
فـقلت له روح أيا سـبع بغـاب | بيـوم الحرب مـا تعطي قـفـاها
وهذا صـار فـى عـصـر الجليـة | إله العـرش يعـدمـهـا صـبـاها
فـسر يا ريح وأخـبـر اليـمـامـة | لتـصـبح ثـم تمسى فـي بكـاها

ثم رجعت إلى الحى وصبرت حتى رجعت إخوتها وبنى عمها من الصيد فأعلمتهم بتلك القضية وما حل بالزير وقالت والله إنكم بعد المهلهل تتعبون مع جساس فتأسفوا جميعهم عليه وبكوا من فؤاد موجع ثم أن ضباع كتمت ما فعلت بأخيها وشاع الخبر إنها أحرقته بالنار وأخذت الثار ولما شاع الخبر وانتشر بين الناس فرحت بنو مرة وجساس وأما إخوة الزير فإنهم شقوا ثيابهم من فرط أحزانهم وأخذوا يعددوه ويندبوه بالأشعار ويذكرون ماله من محاسن الآثار وكان أكثرهم حزنا أخوه عدى الذى يقول فيه :

أيـا ويـلي فـدمع العين هـلا | علي الخـدين من دمـعي صـبـابة
علـي فـقـد الفـتي مـهلـهل | أنور الـعين تـدري مـا أصـابه
غـدونا كلنا لـلصـيـد عنه | وهو جـالس كـأنـه سـبع غـابه
وعـند رجـوعنا لم نـلتـقـيـه | فـأحـرق وسط مـهجـتنا غـيـابه

فمن يوم أخيه كليب ولى ... فلا يسرح ولايلقي صحابه
وما فارق محله طول عمره ... ولا تعرف له مدة غيابه
مهلهل راح من أولاد مرة ... وسهم البين ذر لنا غرابه
وبعده كيف عاد يصير فينا ... لأن جساس ما تحمل عذابه
تري بعده سيمحقنا جميعاً ... يشتتنا ولا يخشي عتابه
أيا إخوتي ماذا نسوي ... وأين نروح من هذه العصابة
تعالي أخي يا درعان قوللي ... فقلبي والحشا يا أمير ذابه
أيا سراف يا ناصر تعالوا ... أيا هزوز يا منية شبابه
ويا حنبل ويا باقي الأمارة ... تعالوا واسمعوا مني الخطابه
تقول الزير ولي وراح منا ... قتيل وبندفن تحت الترابه
والمهلهل ناصب الخيمة بعيد ... في وسط بستان له ياحبيب
وحده يسكر بليله والنهار ... رحت أنا إليه من بعد المغيب
في ثلاثة آلاف فارس غانمين ... كل فارس مثل سبع وديب
هجمت عليه يا أخي بالعجل ... ورقعنا عليه بضرب عجيب
ضربه جساس بالغ بالسيوف ... حتي صار دمه جاري صبيب
ضربه حتي قطع منه النفس ... وانطرح بلا مسعف ولا حبيب
ثم أخذه لأخته ضباع ... لتأخذ بثار ولدها الحبيب
أخذته حرقته بنار ... وألقته علي جمر نار اللهيب
الذي فعلت بعدك يا همام ... يا حما البيض في يوم النكيب

(قــال الـراوي) فلما انتـهى سلطان من كلامه شكره جـساس على اهتمـامه وقال بارك الله فيك يا همـام فإن فعلك هذا يبـقى مدى الأيام ثم ساروا إلى الحى وهم فى أفراح وسرور وانشـراح ولما وصلوا إلى الصيوان جلس جساس فى الديوان واجتمعت حوله الأبطال والفرسان ثم أمر بدق الطبول ونفخ الزمور وعمل وليمة عظيمة لها قد وقيمة فاجتمع فيها خلق كثـير من كل أمـير وسـيد جطيـر ورقصت النسـاء والبنات ودارت بينهم الأفراح والمسـرات وانشرحت خـواطر السادات وكان عندهـم ذلك النهار من أعظم الأعياد الكبار.

(قــال الراوي) وكان لما بلغ بنو قيس حقيـقة الخبر أن المهلهل مات وأندثر غابوا عن الوجـود وأيقنوا بالموت الأحمر فرادت بليـتهم وعظمت مصيبتهم فمنهـم من ارتحلوا من الديار وقـصدوا الأمير جساس وطلبوا منه الأمـان دون باقى النـاس فـأعطاهم الأمـان وجـعلهم من جـملة الخـدام والغلمـان ولم يبق عند إخوة الزير الأشـراف إلا شرذمـة يسيـرة وعصـبة حقيرة فـقصدهم جساس بالأبطال ودار بهم من اليمين والشـمال فسلموا أمرهم إليـه ووقعوا عليه فنهب أمـوالهم وأخذ نوقهم وجمـالهم ثم أشرط عليهم أن لا يوقـدوا ناراً فى النهار والليل ولايركبوا على ظهـور الخيل بل يصيروا مكانهم فى الخيام فأجابوه إلى ذلك المرام خوفاً من الإندثار ونزول الدمار وبعـد هذا رجع إلى الديار بالفرح والاسـتبـشار فعظم شـأنه وتأيد بالعز مكانه وسار فى مقام عظيم وحكم على السبعة أقاليم .

(قـال الـراوي) أما إخـوة المهلهل فإنهم بعد هـذا العمل رحلوا من أطلالهـم بأولادهم وأطفـالهـم ونزلوا فى وادى السـعـاب وهم بـبكى وانتـحاب وذل وعـذاب وصـبروا على حـكم رب الأرباب هذا ماجـرى لهؤلاء من العبر وأما الزير الأسد الغضنفر فإنه لما ألقته أخته فى البحر كما سبق الخبر فقذفته الأمواج فى البحر العجاج إلى أن ساقته التقادير الإلهية إلى مدينة بيروت وكـان اسمها الخيبرية وملكهـا يدعى حكمون ابن عزرا وكان من أجل الملوك قدراً واتفق بالأمر المقدر أن ثمانية من الصيادين بينما هم يصطادون سمك نظروا ذلك الصندوق فـى البحر العجاج تلـعب فيه الأرياح وتقذفه طوارق الأمواج فقـال أحدهـم للآخر انظر يا صموايل هذا صندوق يا رؤبل قـد ساقـه إلينا إله إسـرائيل ثم إنهم قـصدوه فى الحـال وسحـبوه إلى الشاطـىء بالحبال وذلك بعـد تعب ونكد ما عليـه من مزيد فقال رئيس الشختور لباقى الأعـوان تعالوا حتى نقسمه علينا الآن قبل أن نفتحـه يا إخوان فنأخذ كل واحد منا حقـه قدر ما يستحقـه فأجابه بعض الرجال ما هو مـرادك بهذا المقال فقـال إن لى النصف ولكم الآخر لأنى صاحب الشـختور والرئيس الأكـبر فقـال وحق خمار العـذير ماتنال منه شىء ياشـبيـر ثم وقع بينهم الخصـام وتشاتموا بالكـلام فضرب أحـدهم الرئيس بسكين فـقتله وكـان للرئيس أخ فضربـه القاتل بالمقذاف فـجندله وما زالوا يتقاتلون طمعا بالمال حتى قتل منهم عدة رجال ولم يسلم سوى رجل واحد واتفق بالأمر المقدر أن حكمون كـان قد خرج فى تلك الساعة

مع أكـابر دولته لـلصيـد والقنص فـمر من ذلك المكـان فوجـد الصندوق والرجل والقتلى مطروحة على الأرض فوقف وسـأل الصياد عن السبب فأخبـره بواقعة الحال فتـأمل الملك فى الصندوق فتعجب مـن كبره وثقله وأد أن يعرف ما فـيه فأمر يحمله إلى السرايا وارتد راجـعاً مع باقى رجاله فلما صار هناك أمر بفـتحه ففتحوه وإذا رجل طويل القامـة عريض الهامة واسع المنكبين كـبير القدميـن مثخن بالجراح من ضرب الـسيوف وطعن الرماح وقال الملك لحواشيه وما وجدتم فـيه قالوا يا ملك الزمان فيه إنسان كأنه من عفـاريت السيد سليمان له عـيون كعيون الـسباع فلما نظر الملك خاف وارتاع وقال للأتباع كم له من الزمان يا ترى فى هذا المكان؟

(قـال الراوى) وكان هذا الملك حكمون طبيب ماهر اسـمه شمعون فتقدم إلى الزير وهو مطروح وجس زلقومـه وعرق الروح فوجده يختلج فى أعـضائه فـقال للملك إن الرجل فى قـيد الحـياة فـقال له هل تـقدر أن تشـفيه وأنـا أعطيك ما تشـتهى قـال نعم يا مولاى ثم نهض علـى الأقدام وقال بسم الله العلـى العظيم فشمـر عن زنوده وأخذ أسفنجـة وبلها بالماء الحارج ومـسح الجروح ووضع المرهم على القروح ثم جـاء بعسل النحل فغلاه وفتح فمه وأسقاه وفى برهة قصيرة اجلجت أعضاءه وتحركت وفتح عيناه فنظروا تأمل فى ذلك المحفل فرأى جماعة من الرجال صفر الوجوه بسوالف طوال فـاعتراه الانذهال وشكر الإله المتـعال فقـال له حكمون من أنت ومن تكون .. ما هو اسمك ؟

فقال اسمى الموحد أنا عبد الإله العظيم رب موسى وإبراهيم.

فقال ما هي قصتك وسبب وضعك فى هذا الصندوق ؟

فقال كنا أربعة سياس عند الملوك وكنت أنا المقدم على الجميع فحسدونى وضربونى ذات يوم بقصد أنهم يقتلونى فغبت عن الوجود من ألم الضرب ولم أر نفسى إلا فى هذا المكان.

فقال الملك للحكيم خذه إلى عندك وداويه بالعلاج حتى يشفى وبعد ذلك أحضره لى عندى فأخذه الحكيم إلى داره وعالجه مدة من الزمان حتى ختمت جراحه وتحسنت أحواله فأتى به إلى عند الملك ولما دخل سلم عليه وتمثل بين يديه فقال له الملك كيف أنت الآن يا موحد؟ فقال له بحسب أنظارك الشريفة قد شفيت وحصلت على دوام العافية فلله در هذا الحكيم فإنه يستحق الإنعام والإكرام فمهما أنعمت عليه فإنى سأعطيك إياه فتبسم الملك من هذا الكلام وأنعم على الحكيم ثم التفت إلى المهلهل وقال: أعلمنى بحالك وكيفية أحوالك وأشار الملك يقول :

قال أبو ستير حكمون الملك ... يا موحد استمع مني المقال
هات احكيلي عل ما صار فيك ... ماعملت وما فعلت من الفعال
حتي طعنت يا موحد بالرماح ... جروحك كثيرة بسيوف صقال
يا موحد أنت اليوم مليح ... قرم فارس خيل ما أنت ندل

قـوللي عن ذي الجـرح كـيف صـار وما سـبيهم قـول ياسبع الرجـال
ثم أعلـمني علـي مـا قـــد أقـول يـازكي الأصـل عن عـم وخـــال
فـي بـلاد أتـرك الـغـــــاغـين يضـربون الشـور لك مـعهم مـقـال
بعــد هـذا قل لنـا عن صنعــتك الذي تأكل منهـا خـبـزك حـلاله

فلمـا فـرغ حكمـون من مـقالـه قال له الزيـر إعلم أيهـا الملك الجليل صاحب الفضل الجميل إن سألت عن حسـبى ونسبى ووظيفة أبى فإنه كان ملك من ملوك العـربان ثم غدر به الزمـان حتى صـار يسوس الخـيل وأنا تبعت مهمته وهذه وظيفتى ومهنتى وأشار يقول:

قـال أبو ليلي المـهلهل في قـصـيـد ياملك حكمـون يا حكم الخصـال
في بلادي إن سـألـت عن الجلوس مجلسي في الوسط فوق أعـلا الجبال
وإن سـألت عن الشـور كل الشور لي مـا أحد يقـدر يخـالف لي مقـال
وإن وقع الحرب وضرب الـسيوف فـالعـداري هللت فـوق الجـمـال
والسيـوف الجدب عـاد لهـا مـرير والقـتـول تلول عـادت كـالرمـال
فـــداك الـيـــوم أنا أعـــز الملاح ما مثالي في اليمين وفي الشـمال
وإن أتاني ضـيف أنا أعز الضـيوف وأشـبع للضـيف من لحم الحـمـال
والفـتي المـعـروف منجـد ياأمـيـر ابن وائل ذاك لـي يا أمـيـر خـــال
إن كنت تسأل يا ملـك عن صنعتي صنعتي حـاصود في رؤس الرجال

أمـــا أبـي فكان ذو قـــــدر عظـيم   مـال فـيـه الدهر يا حكمـون مـال
صـار سـايس بعـد عـزه للخيـول   بـالـكرامـة بـعـد عـــزه والدلال
وأنا قــد صــرت ســايـس بعــده   أسـوس الخـيل مـا مـثلي مـثـال
وجروحاتي هي مـن عض الحصان   قــد ضـربني برجـله أربع نعـــال
قمت من كـدري ضربته في حـشاه   راحت الـسكين تـلعب لـلعـــزال
لأجل ذاك المهـر سـوي هل فـعـال   وأرمـوني بالذل مع كـثـر الخـيـال

فلمـا سمـع حكمون هذا الكلام مـن الزير غضب علـيه وقـال له أنت كذاب فقد أخبرتنى قبل الآن رفـاقك قتلوك واليوم تقول الحصان ضربنى فتكذب على وتحتقرنى فلو كنت من الأكارم ما جرت عليك هذه العظائم ثم صمم على قـتله فتشـفعت فيه أكـابر دولته ووضعـوه فى الحبس ويقى هناك مدة سنة كاملة وكـان يسطو على المحابيس ويأكل طعامهم فـضجوا منه الناس وشكوا أمرهم إلى الملك وقالوا له إذاكان هـذا سايس كما يقول فاجعله يسوس الخـيل لأنه يقاسمنا على طعامنا غصبـا وقهراً وهذا الأمر لايطاق فدعه يشتغل ويأكل خبزه بعرق جـبينه فاستدعاه الملك إليه وقال له هل أنت ماهر يـا موحد لسـاسة الخيل قـال نعم فقـال سلموه خـيلنا فإذا وجدنا له معرفة فى ذلك أكرمناه .

(قـال الراوي) وكان كثيراً ما ينفرد بنفسـه ويتذكرأهله وعشيرته وما

هو فيه من الإهانة والأسر ويبكي ويقول ياليت شعرى ماجرى على أهلي من بعدي لأن الأسير كما يخفى على الحاذق البصير بمنزلة العبد الحقير ولو كان من بيت شهير وعالم تحرير فكيف من تكون جناب الأمير سالم الزير الذى قهر الأبطال والمغاوير وشاع ذكره عند الملوك المشاهير فإنه بعد ذلك العز والاحترام وعلو الجاه ورفعة المقام وقع فى أسر بنى إسرائيل فكان الموت أهون عليه من هذا القبيل ولكنه سلم أمره إلى الله وقام ينتظر نفوذ حكمه وهو يتأمل الفرج والخلاص من شرك الإقناص وكان قد انتخب له فرساً من أطايب الأفراس كانت طويلة العنق قصيرة الرأس وأجود من القميرة فرس جساس فاعتنى بتربيتها حتى حالت فأخذها إلى شاطىء البحر وربطها هناك فخرج عليها حصان من البحر فشب عليها فراحت حامل وبعد عام ولدت مهر أدهم وكان كامل الأوصاف ململم فسماه الأخرج لخروج أباه من البحر ثم فعل معها ذلك العمل فى الثانى فولدت له مهر آخر كأنه الأبحر حصان عنتر فسماه أبو حجلان واعتنى بهما دون باقى الخيل وكان يسوسهما فى النهار والليل استمر على تلك الحال مدة أربع سنين وهو يطلب الفرج من رب العالمين.

حرب برجيس الصليبي مع اليهودي

(قال الراوي) وأتفق فى تلك الأيام أن برجيس الصليبى أحد ملوك الأروام خارج مع أخيه سمعان فى مائتى ألف عنان من بلاد كسروان

وتلك الحدود لمحاربة حكمون اليهودى وذكر رواة الأخبار وعظماء الأعصار بأن مدينة حكمون كانت نفس مدينة بيروت كانت مزخرفة البنيان وكثيرة الحوانيت والبيوت ولما اقترب إليها برجيس بالعساكر النصرانية نصب خيامه في الأسر فية وكتب كتاباً إلى حكمون يقول فيه من الملك برجيس بن ميخائيل إلى حكمون ملك بنو إسرائيل أما بعد فإنك قد خالفت الشروط ولم ترسل لنا الخروج المربوط وقد مضى خمسة أعوام وأنت تحاولنا بالكلام فاقتضى إننا قصدناك الآن بالابطال والفرسان كأنها مردة الجان لاتخاف طعن الرماح ولانكل الحرب والكفاح فإن دفعت الخراج المطلوب من عشر مالك توقفنا عن حربك وقتالك وإلا وحق من أوجد الإنسان والمسيح الذى ولد بلا دنس خرجنا ديارك وطفينا بارك وقلعنا آثارك وجعلنا الولايات اليهودية تابعة للأقاليم المسيحيةفأسرع فى رد الجواب قبل حلول العذاب ثم إنه ختم الكلام بهذا الشعر والنظام:

علي ما قال برجيس الصليبي … كريم الوالدين أبا وجدا
شديد البأس ما بين الترابا … علي السادات دوما مستجدا
أذل القوم في سيفي ورمحي … أقد الشرش والهامات قدا
أنا قاصد لحكمون اليهودي … فأعلمه بما قد استجدا
وأخبره بفرساني وجيشي … وما عولت أن أفعله جدا
يهم من كل قرم ليث أروع … يصعد الخليل في الميدان صدا

يريد المال أرسله سريعا وإن لم يمتثل أمري فبرا
وعشر الخيل مع عشر العذاري بنات قد زهوا وجها وقدا

(قال الراوي) إن الملك برجيس سلم الكتاب إلى قائد اسمه فرنسيس وأمره أن يسير لعند حكمون فيعطيه الكتاب ويأتيه بسرعة الجواب فامتثل القائد أمر مولاه وجد فى قطع الفلاة إلى أن دخل البلد وقصد حكمون دون أحد فلما وصل إليه سلم وأعطاه الكتاب وتمثل بين يديه وكان عند حكمون جماعة من أخيار اليهود وهم يطالعون فى التوراة والتلمود ولما فض الكتاب وقرأه وعرف حقيقة معناه احمرت عيناه وصاح على الرسول صوت مثل الغول وقال هكذا يكتب لى برجيس يا خبيث يا تعيس فلولا العار يابن الأشرار لكنت قطعت رأسك وأخمدت أنفاسك فاذهب وقل لمولاك أن يستعد للحرب والعراك فإنى لا أهابه ولا أحسب حسابه فخرج فرنسيس من بين يديه وهو ينفض غبار الموت عن عينيه ثم صاح الملك حكمون على أخيه صهيون ووزيره قسمون وقال لهما استعدوا للقتال وفرقا السلاح على العساكر والأبطال فقد أتتنا العساكر المسيحية والأبطال النصرانية وقد عسكروا فى الأشرافية فأجابه إلى ما أمر وفى الحال جهز العساكر وفرقا عليها السلاح والسيوف والرماح ولما بلغ الملك برجيس كلام حكمون صار مثل المجنون وعول ثانى يوم على الحرب والصدام

(قـــال الراوي) وعند إشـراق الصبـاح استعـد حكمون للـحرب والكفاح فخرج من البلاد بالعسـاكر والعدد وحوله الكهنة والأحبار وهم يتلون التـوراة والأسفـار أملا بالفـوز والانتصار وكـان الملك برجـيس قد ركب في ذلك النهـار بذلك الجيش الجرار وتقـدم طالبا القـلاع والأسوار بقوة واقتدار وعلى رأسه البيـارق والصلبان ومن حوله القسوس والرهبان وهم يتلون الزبور والإنجيل بالتنغـيم والتهليل ولما التقى العـسكران تقاتل الجمعان في ساحة الميدان والتـقت الفرسان النصرانية بالأبطال الإسرائيلية في تلك البرهة وهجموا على بعضهم هجـمات قوية وتضاربوا بالسيوف المشرقية وكـانت الأمة العيسوية قد فـتكت بالعصبة العبرانيـة وأذاقتها في ذلك اليـوم من الأهوال أعظم بلـية وقـتلت مـقـتلة عظيـمـة وفـيـه رجع حكمون وهو يتـأسف ويتلهف على ما بعـسكره من الويل والتلف ودخل إلى البلد مع الجيش وأغلق الأبواب وقصد وهو خارج عن دائرة الصواب ونزل برجـيس خـارج المدينة أو كـان قـد امـتلك ذلك النهـار ثلاثة قـلاع حصينة.

(قـال الراوي) وكان المهلهل قد سمع صيـاح القوم فسأل عن الخبر فأعلمـوه بواقعة الحال فتـاقت نفسه إلى القـتال ومصادمة الأبـطال فأخذ قصبة بيده وصعد إلى السـور ليشاهد تلك الأمور وكان ذلك المكان بقرب قصر حكمون فنظر القوم وهـم يقـاتلون فكان كلما نظر النصارى غلبوا أو

ظفروا يقول لليهود تقدموا ولا تنكسروا وكان يهدر كالرعد القاصف أوكالريح العاصف وهو راكب على الحيط كما يركب الحصان ويضربه برجليه ويصيح على الفرسان واستمر على تلك الحال إلى أن رجع حكمون إلى البلد وهو فى غم ونكد وكان لحكمون بنت كالقمر اسمها ستير نظرت من الشباك أفعال الزير فتعجبت من أفعاله وغرائب أعماله.

فلما رجع أبوها سألته عن حالته وما جرى له فى قتاله فأعلمها بواقعة الحال انتصار النصارى فى القتال فبعد ذلك أخبرته ابنته ستير بما رأته فى ذلك اليوم من أعمال الزير وقالت إذا كانت أعماله صحيحة فإنه يكسر هذا العسكر ويذيقه الموت الأسمر ثم أشارت تقول:

تقول ستير اسمع من كلامي	نظر اليوم في عيني العجائب
نظرت اليوم من هذا الموحد	فعال قد تعيد الرأس شايب
فلما دقت الطبل النصاري	وقد هجمت عسكرها تحارب
والتقت العساكر بالعساكر	وراح السيف يعمل في المناكب
فقد أبصرت أحوال الموحد	غرائب قد فعلها من عجائب
ركب للحيط سواه حصانه	كأنه ياأبي قاصد يحارب
ويزعق ثم يلكز في كعابه	إلي أن قد جري دمه سكايب
وتهدر مثل ليث أروع	ترج الأرض منه والتكائب
يريد الحيط يطلع فيه يغزي	وقلبه للقا والحرب طالب

إذا ولت رجـــالك قـــال بـاطل وإن ولت عـــداك قـــال طـالب
ينخى الـناس واحـد بـعـد واحـد قل روحـــه وهو لحـيـط راكب
فـهـذا قـد نظرتـه اليـوم حـقـا من الأول إلـي وقت المـغـــارب
فـلا أدري أهو عـاقل صـمـيـدع ولا أدري أهل مـجنـون خـائب

(قــال الراوي) فلما فرغت ستير من شعرها ونظامـها وفهم أبوها فحـوى كلامـها أراد أن يستدعـيه إليـه وقالت له من الصـواب أن يركـب أخوك نهـار غد ويقاتل العـدو وأن تبقى فى القصـر فلعله يفعل كمـا فعل بالأمس فتـشاهد أعـماله وتخـتبر أحـواله فليس الخبـر كمشـاهدة النظر فاستـصوب كلامهـا وبات تلك الليلة فى قلق وضجر ولما أصـبح الصباح أمر أخـاه أن يركـب بالعـسكر ويخرج لقـتال النصـارى فركب أخـوه فى عسكر اليهود وانتشرت على رأسه الرايات والبنود فالتقته جموع النصارى مثل الأسود وصياح الأبطال وهمهمة الرجال واشتد بينهـم القتال وعظمت الأهوال وجـرى الدم وسـال فلمـا سـمع الزير التهب قلـبه بنار الاشـتعـال فصعد على السور وهو حزين النفس وفعل كـما فعل بالأمس وكان كثيرا يقول يالثارات كـليب من جساس المخذول وهو ينخى القـوم ويقول اليوم ولا كل يوم وكـان حكمون يـنظر إليه مع ابنـته فـتعـجب من فـعله وهول صورته فأمرها أن تناديه ليحضر أمام دولتـه فنادته فالتفت إليها ولباها وقد

تعجب من حسن رؤياها قالت أبى يدعوك أن تحضر إليه فنزل وصعد إلى القصر ودخل على الملك وسلم عليه وقبل الأرض بين يديه فقال له حكمون إن كنت قادرا على ما تقول وأنت من الفرسان الفحول فانزل وقاتل هنا فى هذا النهار المهول فإن لنا عليك جميل وأفضال وإن كسرت الأعداء بلغناك الآمال وأغنيناك بالمال وأطلقاك من الأسر والاعتقال.

فأمر الملك بأن يعطوه جواداً من أطايب الخيل ودرعاً وسيفاً فأتوا له بجواد فقال لهم هذا لا يحملنى ثم اتكى عليه بيده فكسر أضلاعه فأتوا له بآخر ففعل به كذلك وما زال على تلك الحال حتى قتل عشرة خيول فتعجب الملك من قوة بأسه وشدة مراسه ثم أتوا له بعدة حرب وجلاد ففعل كذلك إلى أن أتوه بعدة حرب الملك حكمون فلبسها وكانت من أحسن العدد واعتقل بالسيف المهند وركب على ظهر حصانه الأخرج الذى كان ينتظر منه الفرج وأخذ فى يمينه الرمح الأسمر والتفت على حكمون وقال اليوم تنظر فتعال وعاين حربى وقتالى وتذكرنى على طول الدوام أيها الملك الهمام ثم إنه لكر الحصان وقوم السنان وانطلق إلى ساحة الميدان بقلب أقوى من الصوان وقد هان عليه الموت تحت أرجل الخيل عند بلوغ القصد والمأمول وكانت النصارى قد كسرت اليهود وفتكت بهم فتك الأسود فما رأى المهلهل تلك الحالة استعد للحرب والقتال وتقدم صهيون أخو الملك حكمون وقال شدوا عزمكم وقاتلوا

خصمكم ثم خاض المجال وطلب الميسرة فى الحال وقاتل الأبطال فمدد أكثرها على الرمال وتأخرت عنه الرجال ورأت النصارى تلك الفعال اعتراها الانذهال وهجموا عليه من اليمين والشمال فأبلاهم بالذل والويل وقتل جماعة من الفرسان الخيل وكان كلما كثرت عليه الكتائب وضايقته العساكر والمواكب يتذكر أخوه كليب الأسد الغالب فيهاجم هجوم السباع ولا يخاف ولا يرتاع فعند ذلك تأخرت عنه الفرسان وتوقفت عن قتاله الفرسان وكان برجيس من فرسان المعارك فلما بلغه ذلك نما غيظه وزاد وهجم بالعساكر والأجناد طالباً ساحة الميدان من حوله القسوس والرهبان وعلى رأسه الرايات والألوية فلما اقتربت من تلك الناحية وقعت عينه على صهيون أخو الملك حكمون فتقدم إليه وهجم عليه وضربه بالسيف على عاتقه خرج يلمع من علائقه فوقع على الأرض قتيلا وفى دمه جديلا فعند ذلك ضجت طوائف اليهود لما رأوا أميرهم مفقوداً فاستغاثوا بالتوراة والتلمود فالتقاهم برجيس كالنمر ود وقتل منهم كل فارس معدود وكان المهلهل يقاتل من بعيد الفرسان الصناديد ويمددها على وجه الصعيد فلما رأى طوائف اليهود متأخرة بعد أن كانت ظافرة وهم يصيحون ويندبون على فقد صهيون فلما عرف باطن الطوية أخذته الغيرة والحمية فقصد الملك برجيس إلى ذلك المكان وفى الطريق التقى بأخيه سمعان وهو ينخى الأبطال والفرسان فهجم عليه هجمة الأسد

وضربه بالسيف المهند ألقـاه على وجه الأرض يختبط بعضـه ببعض فلما قتل الأمير سمـان حمل جيش النصارى على الزير من كل مكان عند ذلك دقت النواقيس وحمل أيضاً برجيس وتبعه كل أسقف وقسيس.

ولما رأت اليهـود أفعـال المهلهل أيقنت ببلوغ الأمل فـارتدت إلى قدام بعد ذلـك الانهزام التـقت الرجال بالرجـال والأبطال بالأبطال وعظمت الأهوال ومـا زالوا على تلـك الحـال إلى أن ولـى النهـار وأقـبل الـليل بالاعتـقار فـافترقـوا عن بعضـهم البعض وزالت كل قـبيلة فى ناحـية من الأرض.

(قال الراوي) وكان الملك برجيس قد صعب عليه قتل أخيه سمعان وندم على مجيئه إلى تلك الأوطـان وكذلك استـعظم حكمون قتل أخـيه صهيون فكانت مصـيبة عظيمة على الملكين وداهية جسيـمة على الفريقين ولما أصبح الصبـاح وأشـرق بنوره ولاح ركـبت العسـاكـر واصطفت وانقسمت إلى ميامن ومياسر فـتقاتلوا بالرماح والخناجر والسيوف البواتر فكان الزير كـالأسد الكاسـر جـرى الأبطال فى ذلك اليوم من الأهوال مـا يشـيب رءوس الأطفال واستـمروا على تلك الحـال وهم فى أشـد قتـال وخصام عـشرة أيام على التمام وكـان الزير قد فتك فتكا عظيـما وقتل من النصارى عددا جسيما فلما رأى الملك برجيس ذلك خاف من الوقوع فى

المهالك لأنه كان من الملوك الكبار أصحاب السطوة والاقتدار أمره نافذ فى جميع الأقطار فخاف من الانكسار والوقوع بيد المهلهل الجبار فجمع أركان دولته ووزراء مملكته وعقدوا بينهم ديوانا فاستقر رأيهم على المصالحة وتوقيف الحرب بعد المصادمة والمصالحة وأن يرحلوا بأمان من الأوطان ويبقوا مع حكمون كأصحاب والأخوان على طول الزمان ثم إن الملك برجيس أرسل إلى حكمون بعض وزرائه المعتبرين يعلمه بذلك ويأتيه بالخبر اليقين فسار الوزير إلى عند الملك حكمون وأعلمه بواقعة الحال ففرح حكمون وباقى الأمة العبرانية لأنهم كانوا يخافون سطوة الملوك النصرانية فأجابه إلى المطلوب وحمد الله الذى أناله من غوائل الحروب وهكذا تم الاتفاق ووقع الصلح والوفاق ورجع برجيس من تلك الآفاق بمن معه من الرفاق بعد أن رتب على الملك حكمون مالا معلوما يدفعه كل سنة إلى خزينة الملك.

(قال الراوي) وعظمت منزلة الزير عند حكمون وقال مثلك تكون الفرسان فأنت اليوم عندى كالولد وأعز من الروح فى الجسد فلولاك كنت فى حال تعيس واستولى عليّ الملك برجيس وكانت الأميرة ستير قد شاهدت أفعال الزير فأثنت عليه وقد مال قلبها إليه ثم قالت لا عدمناك أيها النحرير فإنك تستحق الإكرام والخلع وكان الملك قد مال إليه كل الميل فقدمه عن جميع فرسان الخيل ورفع منزلته على الكبير والصغير ولقبه

الأمير وأنعم عليه بنشان من ألماس ليمتاز به على كبار الناس وأكرمه غاية الإكرام وأجلسه على سفرة الطعام ولما فرغوا من الأكل وشرب المدام قال له الملك تمنّ على أيها الأمير والسيد الخطير فمهما طلبت أعطيتك إياه بدون تأخير فطلب منه الزير أن يعطيه السيف والدرع والمهر والأخرج وأعلم حكمون بنفسه وطلب منه أن يجهز له سفينة ويرسله إلى مدينة حيفا ومن هناك يسير وحده إلى مرج بنى عامر محل إقامته لأن نفسه اشتاقت إلى أهله وعشيرته فلما سمع حكمون بواقعة حاله وأنه هو المهلهل زاد مقامه عنده وقال له هذه بلادى أمالك وأموالى بين يديك فأقم عندنا طول عمرك فإننا والله لا ننسى جميلك ومعروفك قال الزير لابد لى من الذهاب لأننى لحد الآن ما أخذت بثارى ولا طيفت من العدا لهيب نارى عند ذلك أهداه الحصان الأخرج وأعطاه السيف والرمح وعدة الحرب وجهز له مركبا من أحسن المراكب وأمر القبطان بمداراته وامتثال أوامره وأنه بعد أن يرجع إلى حيفا يرجع حالا ثم سار معه حكمون إلى المراكب مع أكابر دولته وقال له عند الوداع الله يبلغك آمالك فلا تقطع عنا أخبارك فسلم عليه المهلهل ودعا له بطول العمر ثم رجع حكمون إلى المدينة وسافر المركب بالتهليل وفى اليوم الرابع أشرقت السفينة إلى ميناء حيفا وألقت مرساها ونزل المهلهل إلى البلد وبقى الحصان فى المركب وأمر القبطان أن يحتفظ عليه لوقت الطلب ومن

هناك تسربل بالسلاح تحت الثياب وقصد دياره فالتقى بطراف ابن ناصر وهو حافى عريان وقد كان من الأعيانِ ومن أصحاب الزير فأقبل إليه وسلم عليه فرد عليه الزير السلام ثم عرفه بنفسه وأخبره بما جرى عليه من الأول إلى الآخر فقال أهلا وسهلا بقدومك علينا فوالله كنا قد قطعنا الأمل من سلامتك فالحمد لله على اجتماعنا فقم بنا إلى ربعنا حتى تنظر أهلك لأنهم دائما فى ذكرك فقال الزير إنى لا أذهب إلى هناك حتى أذهب إلى حى بنى مرة وأنظر باقى قومنا الذين التجئوا إلى جساس فسر معى إلى هناك فسار ناصر معه وهو فرحان وجدا فى مسيرهما حتى وصلا إلى أحياء بنى مرة فالتقيا بالأمير سالم المهيا قاصدا الصيد مع جماعته ولما اقترب سالم من المهلهل.

(تم الجزء السادس ويليه الجزء السابع)

الجزء السابع

من قصة الزير أبو ليلى المهلهل

ونظره حن قلبه إليه فحياة بالسلام وجعل يأمل فيه ويقول والله من يوم غاب حاميا فقد عزنا وما أبصرنا قامته إلا هذا اليوم ثم دمعت عيونه فقال الزير كيف تبكى عليه وأنت ملتجىء إلى أعداء فعند ذلك عرفه ونزل عن ظهر الجواد ووقع عليه واعتنقه المهلهل وطيب خاطر جماعته وقال لهم ابقوا على ما كنتم عليه وعندما تسمعون صرير السيوف فى أعناق بنى مرة فحينئذ تفعلون مايجب عليكم فعله فساروا فى سرور وأفراح حتى يعلم بعضهم بعضاً وأما الزير فإنه سار هو وطراف وهما متنكران حتى دخلا إلى حى جساس وقت المساء فوجد الحى فى دق طبول ونقر دفوف وأمور تدل على مسرات وأفراح فقال المهلهل فى سره ما عسى أن يكون هذا ولما اقترب من صيوان جساس وجده ممتليا من الناس وجساس جالس فى الصدر وحوله الأكابر والأعيان والمولدات تدق بالدفوف والمزامر وبعد قليل حضرت العبيد بسفر الطعام فقام جساس إلى المائدة وتقدمت بعده الأمراء وجعلت تتوارد الفرسان

وتتزاحم على بعضها البعض فعند ذلك تقدم الزير مع جملة الناس وجلس بقرب جساس وأخذ يتناول من أنواع الأطعمة فلما رآه جساس أنكر أمره وقد استعظم كبر جثته وهو يأكل أكل الجمال فقال له جساس ادعُ لى يا شيخ فقال : إننى دائماً أدعو لك ولست بناسيك علي طول الزمان فازداد جساس خوفاً وارتجفت أعضاؤه ولما انتهى من العشاء أمر جساس بإحضار الرمل وضربه فى الحال ورسم الأشكال فظهر له انكيس واحمرار وأنه قادم عليه أوقات منحوسة وسيظهر رجل لقى الجد عن قريب يذيقه الأهوال وقد تأكد عنده بأن ذلك هو نفس الزير لأنه لا يوجد له عدو غيره فالتهب قلبه بناره وصاح من ملو رأسه بأستار فجاءت إليه إخوته وقالوا ما أصابك يا أمير فأنشد يقول:

قال جساس بن مرة في بيوت — اسمعوا يا إخواني أهل الوفا
ضاق صدري وامتلا قلبي هموم — فالقلق والغم ضارب بالحشا
جمعت تحت الرمل حورته بسرعة — حتي أري ما هو هذا البلا
رأيت لقي الجد آت عن قريب — صاحب البطش ما بين الملا
وأيت الجود له بيت ضد — والجماعة شكلهم واقع حدا
ما عاد لي عقل لهذا الرمل قطرة — حرت فيه اليوم يا أهل النها
لو يصح القول قلت الزير جا — ها هو جالس بين الأمرا

فلما فرغ جساس من شعره وتظامه وفهم الزير مطلوبه وعرف المقصود ووضع يده على قبضة سيفه حتى إذا قال جساس اقبضوا عليه ليفتك به ويعدمه الحياة ومن كثرة ماجرى على جساس من الغم والوسواس ترك من كان عنده من الناس ودخل على الحريم خوفا من أمر يأتى فلما رآه الزير فعل ذلك قال لا بد من قتله إن لم يكن اليوم يكن غدا ثم خرج من الصيوان مع الأمير طراف وسار قاصدين الأوطان حتى وصلا إلى وادي الشعاب ودخل إلى الخيمة التى فيها بنات كليب فسمعت ابنة كليب الكبيرة صوته فقالت له من أنت وما هو اسمك فلما سمع صوتها عرفها فتقدم إليها فوجدها وشقايقها بثياب الحداد فتقطع قلبه وهطلت عيناه بالدمع وقال أتقبلوا الضيف يا بنات الأماجيد قالت مرحباً فأنا أول من ضاف ولكن قد جار علينا الزمان فأولنا بعد العز والجاه وصرنا فى حالة يرثى لها فاقصد يا شيخ محل الوليمة وهو المكان الذى تدق فيه الطبول فتحصل على بلوغ المأمول فقال بالله عليك ياصبية أن تحكمى واقعة حالكم فقد جرحت قلبى بهذا الكلام فقالت اليمامة لقد ذكرتنا بمصابنا وعلى ما جرى فجلس الزير هو وطراف وجلست هى بجانبه ثم عرفها هى وشقايقها بنفسه وإنه هو عمها صاحت بصوت عالٍ من ملو رأسها هذا فى الحلم أم فى اليقظة ثم وقعت عليه وشقايقها يقبلونه وقلن الحمد لله الذى أرانا وجهك بخير وعافية فوالله قد زالت

أتراحنا وتهجددت أفـراحنا وسمع أبو شهوان عبدالعزيـز هذاا الخبر فدخل عليه ووقع عـلى قدميـه لأنهم كانوا يظنون بأنه مـات فكانت تلك الليلة عندهم من أعظم ليـالى الأفراح والمسـرات وبعد ذلك جلسـوا يتحـدثون فقالت اليمامة بالله يا عماه أن تعلمنا بقصتك وماجرى فى سفرتك فقص عليهم ذلك الخبر وماسمع وأبصر وختم كلامه بهذا القصيد:

يقــــول الزير أبـو ليلـي المهلـهل   عـيـونـي دمـعـهـا جـاري بكاها
بكت دمـا علي مـا صـار فـينا   ليـالي السـعـد مـاعـدنا نراها
عـدمـنا فـارس الهـيـجـا كليب   عـقـاب الحـرب إن دارت رحـاها
دهـتنـي آل مـــرة جـنـح ليـل   لتـقـتـلني وتشـفي مـا دهاها
فكنت بخـيـمـتي ملقـي طريحـا   ثـلاثـة آلاف درتـنـي قـنـاهـا
وسـحـبـوني لعند ضـبـاع أختي   وألقـوني طريحـاً فـي حـداها
وقـالوا يا ضـبـاع خـذي أخـوكي   أخـذنـا روحـه قـوي عـزاها
فـألقـتني بصنـدوق مـزقت   وأرمـتني بوسط البـحـر مـاها
وسـاقـتني ميـاه البحـر حـالا   إلي بـلد اليـهـود علي رباها
وجـابونـي لحكمـون اليـهـودي   أجـل ملـك الأرض جــاهـا
فـداوني وعـالجني سـريعـاً   فـزالـت كـربتي مما دهـاها
بقـيت أنا ثمـان سنين غـائب   وزال الشـر عني مع عـناهـا
أسـأل الله أن يحـفظكم جـميعـاً   علي مـا طالت الدنيـا مـداها

(قـــال الراوي) وكـانت ليلة عند بنات كـليب من أعظم الليـالى وحضر تلك الليلة جميع أصحاب الزير فـفرحوا وانشرحوا بقدومه وهنوه بالسلامة فقال لهم من الأوفق أن تكتموا أمرى لحينما أتجهز لقتال الأعادى وأحضـر جوادى ثـم أعلمهم بخـبر الحـصان وإنه أبقـاه فى المركـب عند القبطان لبـينما يكون شاهد أهـله وأقاربه ولما انتصف الليل ودعـهم وسار قاصدا شاطئ البـحر هذا ما كان منه وأما مرة أبو جـساس فكان من عادته أن يذهب كل يوم إلى سـاحل البحـر ويتجـسس الأخبـار ويعود فـى آخر النهار فـاتفق أن عبدين من عـبيده كـانا قد نظرا المركب عند قـدومه إلى ميناء حيفا فأعلماه به فاستأجر قاربا وقصد ذلك المركب وعند وصوله إليه وجد ذلك الجـواد المذكور فاندهش من رؤياه فـسأل القبطان عنه فـقال له القبطان هذا حـصان الزير وقد حضـر معنا من بيروت وسار نحـو يومين لزيارة أهله ولـم يكن القـبطان يعلم مـا هو جـارى بين القوم من العـداوة والحرب لمـا سمع مـرة بخبـر المهلهل وإنه عاد سـالما غانما اسـتعظـم الأمر وتعجب ولكنه كـتم الخبر وقال للقبطان أتبـيعنى هذا الحصان فـقال كيف أبيعـه وهو مودوعا على سـبيل الأمانـة فقال لا بد من ذلك إمـا أن تقبض ثمنه خمـسة آلاف دينار أو أخذه منك بالقـوة والاقتدار لأن ابنى جـساس ملك هذه الديار وبـيدنا زمـام الأحكـام ومازال يـلح عليـه بالكلام إلى أن امتثل وأجاب خوفا من أخذه بالقوة والاغتصاب فقبض القبطان الدراهم

وسار مرة بالحصان إلى عند ابنه جساس وهو كاسب غانم وأعلمه بواقعة الحال وقدوم المهلهل إلى الأوطان ففرح جساس بالحصان لأنه كان من أجود خيول الأعراب ولكنه خاف من الغوائل وعلم أنه لابد من تجديد الحروب بين القبائل فاجتمع بأهله وأعلمهم بالخبر وأن يكونوا على استعداد وحذر.

هذا ما كان من جساس وأما الزير الفارس الدعاس فإنه عند وصوله إلى البحر سار إلى المركب فلم يجد الحصان فسأل عنه القبطان فأخبره بما جرى وكان فلما سمع منه هذا الكلام أراد أن يضرب عنقه بحد الحسام ولكنه توقف عن أذاه إكراما لخاطر مولاه ثم أمره بالرجوع إلى عند الملك حكمون ليقص عليه الخبر ويطلب منه الجواد الآخر فامتثل القبطان أوامره وأقلع من تلك الساعة حتى وصل إلى بيروت فأنزل الزير فى القارب وسار به إلى عند الملك حكمون ودخل عليه وهو فى السراية فلما رآه حكمون فرح فرحا شديدا وقال أهلا وسهلا بالصديق الحبيب وترحب به غاية الترحيب وأجلسه بجانبه وأقام بواجبه أشار يقول وعمر السامعين يطول:

قال حكمون بن عزرا في بيوت	تشرح الخاطر وترضى السامعين
أنورت علينا الدنيا ياهمام	بامربع الخيل إذا طلل الكمين
يامهلهل أنت عز المحصنات	أنت فخر للأناس الماجدين
قصدت أهلك ثم جيت لعندنا	هل شفت أهلك يا مهلهل سالمين

إذا كـــان يلزم لجـــدة أحكي لي حتي أسير بالجيش كله أجمـعين
طيب قلبك يـا مـهلهل لا تخـاف ثم اطلب يا ضـيـا عـيني اليـمين

فلما سـمع الزير كلامـه شكره وأثنى عليه وأخبره بما جـرى وكان من فـقد الحـصـان وأن السبب فى حـضـوره الآن أولا لأجل سؤال خـاطره الشريف وثانيا ليطلب منه المهر الثانى وختم كلامه بهذه الأبيات:

قـد أتيت اليـوم في قلـب حـزين علي فـقد مهـري الأخرج الثـمين
فـــإن شـــئت اعـطني أخـــوه يا مـــعـز الجـــار وفـــخـر الـعلين
لا أريد مـــالاً ولا كـــثـــرة نوال غـير أبو حـجـلان مطلوق اليـمين
يا ملك حكمـون إن مـالي كـثيـر كل مـــال البــر فـي يدي خـــزين

فلمـا سمع حكمـون هذا المقال تـبسم وقـال مهـما طلبت منا لا نعـزه عليك وجـميع أموالنا بيـن يديك فوالله إننا لاننسى جـميلك ومـعروفك على الزمان وإن أبو حجلان بعد رواحـك من الأوطان أظهر الوحشة ونفر من جميع الناس حتى لم يقدر عليه أحد من السياس ثم طلب منه أن يبقى عندهم عـدة أيام ليسـتريح مـن متـاعب الأسفـار فاعـتذر وقـال لابد من الرجـوع فى هذا النهـار فأعطاه حكمـون الحـصان وسـار به إلى المركب وعند وصولهم إليـها نزل بالجواد إلى المدينة فركب وقصـد أهله فاتفق فى

تلك الساعة أن رجلا من قبيلة جساس أبصر الزير فعرفه وسار إلى عند جساس وأخبره بقدومه وقال له إننى خايف عليكم من سطوته شاهدته فى هذا النهار وهو مثل الأسد الكرار ثم أشار يقول:

يقول الشيخ يا أولاد مرة   تعالي واسمعوا لي يا فوارس
أيا جساس يا همام اسمع   أيا ملك يا أهل المجالس
فقد كنت قرب البحر سائر   رأيت خرج علي اليوم فارس
علي أدهم اقب الضلع فارح   وفوقه درع من بولاد لابس
وفي كتفه قنا اسمر مكعب   بطل صنديد يوم الروع عابس
فهذا فارس البيداء مهلهل   مريع الخيل للأبطال داعس

(قال الراوي) فلما فرغ ذلك من شعره ونظامه أجابه سلطان بن مرة بهذه الأبيات:

يقول اليوم سلطان بن مرة   كلام الشيخ صادق يا فوارس
فإن كان أبو ليلي سيظهر   يخلي دمنا مثل البواطس
ويسبي من قبائلنا عذاري   ونترك أرضنا قفرا دوارس
ولا يقبل رجاه ولاغطاه   ويطرحنا علي الغبرا نواكس

(قال الراوي) فلما انتهى سلطان من كلامه وقع الخوف فى قلوب القوم وأخذوا يستعدون للقتال من ذلك اليوم وأما الزير فإنه كان قد جد فى المسير حتى وصل إلى ديار والتقى بأهله وأنصاره فلمارأواه فرحوا به

وأتت إليه اليمامة وشقايقها وكذلك إخوة الزير وكل من فى الحى نساء ورجالاً فوقعوا عليه وقبلوا يديه وانتشرت الأخبار بقدومه إلى الديار بين الكبار والصغار حتى ملأت الأقطار فأقبلت الأبطال والفرسان وتواردت إليه السادات والأعيان وسلموا عليه وتمثلوا بين يديه وهنوه بالسلامة فشكرهم وأثنى عليهم وترحب بهم فذبح الذبائح وأولم الولايم ووعدهم بالمكاسب والغنايم وبعد أن أكلوا الطعام وشربوا المدام أنشد عدى أخو الزير يقول:

يقول عدي أبيات فصيحة أتانا الزير والمولي عطانا
وكنا قبل ما يأتي إلينا بحال الذل في قهر حزانا
وجساس الردي عايب علينا يريد هلاك تغلب مع أذانا
فأمرنا بأن نبقي جميعاً علي طول الليالي مع نسانا
ولا تركب خيولا صافنات ولا نقل سيوفنا في حمانا
إلينا جيت ياجمل المحامل ويا كهف العذاري والأمانا
لربي الشكر ثم الحمد دايم إذا منا جئتنا تقهر عدانا
أيا سالم فانهض شد عزمك واركب فوق مطلوق العنانا
ونركب ثم نحمل فرد حملة علي أولاد مرة في لقانا
ونترك دورهم بورا وقفرا ونقتلهم ونأخذ ثار أخانا

(قال الراوي) فلما فرغ عدى من كلامه تقدمت اليمامة نحو عمها

وشكرت الله تعالى على سلامته ودعت له بطول العمر فضمها إلى صدره والتفت إلى من حوله وأنشد وقال:

يقول الزير أبوليلي المهلهل ألا يابنات إن السعدجاكم
وأقبل سعدكم والشر ولى وراح الشر عنكم لأعداكم
ثماني سنين وسط البحر غائب وبالي عندكم مما دهاكم
وفرج لقي همي وغمي وخلصني وجيت إلى حماكم
حيث أتيت زال الشر عنكم ونلتم يا بنات مني مناكم
غداً جساس أقتله بسيفي وآخذ يا بنات بثار أباكم
وأنتم يا عدي ودريعان وباقي إخوتي تسلم لحاكم
فأتوا بالصوافن واركبوهم وهبوا جمعكم ومن معاكم
ودقوا طبلكم يا آل قيس وقيموا النار في ساير حماكم
وخبوني بعيد عن المنازل غدا جساس يبرز للقاكم
فلاقوه علي خيل ضوامر وإني سوف أهجم من وراكم

(قال الراوي) فلما فرغ الزير من كلامه طابت قلوبهم وانشرحت صدورهم وزالت عنهم الأتراح وأيقنوا بالنصر والنجاح ومازال بنو قيس يجتمعون إلى الزير ويتواردون حتى صاروا في جمع غفير وعدد كثير فاستعدوا للقتال والنزال فأطعموا الجوعان وأكسوا العريان وأوقدوا النيران ورجع الحي كما كان هذا ما كان من الزير وقومه وأما بنو مرة فلما بلغهم

الخبـر وكيف أن بنـى قيس قـد التموا بـعد التفـريق والشـتات من جمـيع الجهـات وهم فى أفراح ومسـرات اجتمعـوا بجساس وقـصوا عليه الخبر وقالوا له لو لم يكن الزير قد ظهر لما كـانوا بنى قيس اجتمعت على بعض هذه الآلام وخالفت أوامـرك ومراسيـمك العظام فقال لهم كـفوا عن هذا المقال ولا يخطر لكم الزير على بال فاستعـدوا للحرب والقتال فعند ذلك اسـتعـدت الفرسـان الفحـول وركبـوا ظهـور الخيـول وتقلدوا بالسيـوف والنصول ولقد أملوا بالنجاح وبلوغ المأمـول وركـب جساس حصان الزير الأخرج وسار بذلك الجـمع الغفير ولما اقتربوا من حى بنى قـيس سمعت أبطال الزير دق طبولهم وصـهيل خيولهم فـهاجوا وماجوا فـأمرهم الزير أن يتأهبوا للقتال ويلاقوهم إلى ساحـة المجال فتبادروا فى الحال وتقدمت الفـرسان والأبطال وركـب الزيـر على مهـره أبو حـجلان وسبقـهـم إلى الميدان وكمن فى بعض الروابى والتلال مع جماعة من الرجال ولما اقترب جساس من رجـال بنى قيس قال لهم لقد خالفـتم أوامرى وغركم الطمع وهجم عليهـم بالرجال وأحاط بهم من اليـمين والشمـال فالتـقوه بقلوب كالجبال واشتد القتال بينهم وعظمت الأهوال وجرى الدم وسال.

فلما رأى المهلهل تلك الأحوال لكز الحصـان وتقدم إلى ساحة الميدان فـشق الصفـوف والكتـائب ومرق المواكب وهو يـهدر ويصـيح من قلب فـريح أبشروا يا بنى بكر يا نذل والـويل فقـد أتاكم المهلهل فارس الخيل

فسوف ترون يـاأنذال ما يحل بكم من الوبال على ما علمتـونا به من سوء الفـعال فقـد أقسـمت برب الأنام الذى لايغـفل ولاينام أنى لا أترك منكم شيخاً ولا غـلاماً ثم إنه مال وجال وضرب بالسيف العال وتبـعه الفرسان والأبطال من اليمـين والشمال فلمـا سمع جسـاس صوت المهلهل انقطع قلبـه من الخوف والوجل ولكنه ثبت فى سـاحة الميـدان خوفا مـن الهلاك والقلعان وأخـذ ينخى الأبطال والفرسـان على القتـال والثبات والهـجوم على لقاء الأعـادى قبل الممات فثبتوا ثبات الجـبابرة وقاتلوا قتـال الأسود الكاسرة لـكنهم لم يقدروا يثبتوا أكثرمن ثلاث سـاعات حتـى انصبت عليـهم النكبـات وبلوا ببـلايا لا تطاق من سـيف المهلهل فـارس الآفـاق فولـوا الأدبار وأركنوا إلى الهزيمة والفـرار بعد أن قـتل منهم عـشرة آلاف فـارس كرار وتبـعهم الأمـير جـسـاس وهو فى قلق ووسواس وغنمـوا بنوقيس منهم غنائـم عظيمة ومكاسب جسـيمة ورجـعت إلى الديار بالعز والانتصار والبطش والاقتدار وفى مقدمتهم الأمير مهلهل الجبار وهو مثل شقيقه الأرجوان مما سال عليـه من أدمية الفرسان ولما وصل إلى المضارب بقواد المواكب لاقته بـنات أخيه وجماعته من أقـاربه وأهاليه فشكروه على تلك الفعال وقالوا مثلك تكون الأبـطال والفرسان ثم إنه جلس فى الخيام وجلست حـوله السادات العظام وجـبـابرة الصدام فـتحـادثوا فى الكلام وشكروا رب الأنام على بلوغ القصد والمرام وبعد أن أكلوا الطعام وشربوا المدام التفت بعض القواد إلى المهلهـل فارس الطراد وقالوا بالله عليك أن

تنشدنا شيئا من أشعارك لأن قلوبنا مشتاقة على الوقوف على أخبارك وما جرى لك في أسفارك فعند ذلك أنشد يقول وعمر السامعين يطول :

يقـــول الزير أبـو ليلـي المهلـهل	فـكل مـــقـــدر لابـد يأتـي
يجنـح الليل لا يدروا صـــفـاتي	نزلـت يا إخـوتـي وأبناء عـــمي
فـــلا نوقـــد النار فـي الفـــلاة	فـقـالوا ضـيـفـنا شـرطوا عـلينا
وقـالوا عـــمنا هيـهـــات يأتي	تكافـحت اليـمـامة مع حـمـامة
أنا مـردي السبـــاع الكاسـرات	فـقـلت لهـا لـبـيك جـئـتك
وجـدت عـيـونهـا مـقـتـرحـات	فـجيت لعندها في قلب صـامـد
جـــرجت بـالـبكا قـلبـي لأني	قـلت يـا يمامـــــة لـيش تـبكـي
إذا ثارت حــــروب الـفـــلاة	فـهـــمك يا يمامـــة ليس تـبكي
إذا مـــــا وهجت نـار العـــداة	أنا هـمي كـــراديس الـفـــوارس
هرب منـي وصـــاح أتوا العـداة	وجيـت أنا علي جســاس رامح
وطـالب ثـاره بـالمرهفـــــــات	وقــــال الزيـر جـــانـا يا بـلانا
أتـاه الـزيـر دبـاح الـعــــــداة	فــقــولوا لابن مـرة يأتـي عندي

(قـــال الراوي) فلما فـرغ الزير من كلامـه شكرته إخوته وجـميع أقوامه فعند ذلك تقدم سالم المهيا إليه وقبله بين عينيه وأشار يقول:

مهلهل جيت هذا اليوم يومك   علي ما قال سالم المهيا
وأضحى القطر يزهو في قدومك   وزال النحس والتوفيق أقبل
أزلت همومنا زالت همومك   ولما جيت يا زين الفوارس
نهار وليل ما أحد يلومك   فقم اركب عليهم يا مهلهل
وافرج همنا وأخلي همومك   وخذ الثار من جساس حالا

(قال الراوي) فلما فرغ سالم من شعره طابت قلوب الجميع وعادوا لما كانوا عليه من الفرح والمسرة وأما بنو مرة ابتلوا بالذل والويل من حرب الزير فارس الخيل ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح ركب الأمير مهلهل فى مائة ألف بطل وطلب حرب القوم فألقاه جساس فى ذلك اليوم وكان بمعيته مائة ألف مقاتل بين فارس وراجل فانتشب بين الفريقين القتال وعظمت بينهم الأهوال وقاتل المهلهل حتى استقل فنكس الأبطال الفحول على ظهر الخيل وقتل جماعة من السادات الأعاظم الذين اشتهروا بالفضل والمكارم وشاع ذكراهم بين الأعارب والأعاجم فمنهم الأمير شهاب المكنى بعقاب وغيره من السادات والأنجاب استمر القتال على هذا الحال طول ذلك النهار فانكسر بنو مرة أشد أنكسار ورجع المهلهل بالغزو والانتصار ولما كان الصباح ركب المهلهل والفرسان فالتقاه جساس بالرجال وتقاتلوا أشد قتال ولما تقابلت الصفوف تبادرت المئات والألوف وبرز أخو جساس بين الصفين ولعب برمحين بين الفريقين

وطلب قتـال المهلهل فانطبق عليـه وحمل كأنه قطعـة من جبل أو قلة من القلل فتطاعنـا بالرماح وتضاربا بالصـفائح وثبت شاوش أمـام الزير ثبات الأبطال والمغاوير لأنه كان من الأبطال المشهورة والفرسان المذكورة استمر الإثنان نحو ساعـة من الزمان وهم فى ضرب وطعان وكان الأمـير شاوش قد حـتم على نفسه أمـام الأبطال إما أن يهلك فى ذلك النهـار أو أن يظفر بخصمه ويعيش فى عز وإقبال ثم صاح على المهلهل وطعنه بالرمح قاصداً قبض روحه فالتقاها المهلهل بالدوقة فراحت خائبة بعدما كانت صائبة ثم تقـدم المهلهل وهجم عليـه وضـربه بالسيـف على عاتقـه خـرج يلمع من عـلائقه فـوقع على الأرض قتـيلا وفى دمـه جـديلا ثم هجم على الرايات وطعن الفـرسان والسادات وقـتل الرجال ومـدد الأبطال فى ساحـة المجال وفتك فيهم فتك الأسود الكاسرة وفعل أفـعالا تعجز عنها صناديد الجبابرة وفعلت جميع أبطاله مثل أفعاله فقاتلوا القتال المنكر وأذاقوا الأعداء الموت الأحمـر فلما رأى جـساس ما حل بقـومه من العـذاب استعـظم المصاب وخرج عن دائرة الصواب وزاد اكـتئابا على اكتئاب وذلك على فـقد أخيه ليث الغاب لأنه كـان يحبه محـبة عظيمة ومـودة جسيمة فـبكى وانسحب وولى يطلب لنفسـه الهـرب وتبـعـه رجـاله وأبطـاله ورجع الزير ببـاقى الفرسان إلى المنازل والأوطان وهو مثل شقيقته الأرجوان مما سأل عليه من أميـة فالتـقته اليـمامة بالاعـتزاز والكرامـة ثم نزل فى الخيـام مع السادات

الكرام فأكلوا الطعام وشربوا المدام وكان فى كل يوم يركب حسب عادته لحرب القوم حتى بلغ منهم غاية المنى وأبلاهم بالذل والعنا فلما طال المطال وعظمت على بنى مرة الأهوال جمع جساس الرجال ومن يعتمد عليهم من الأبطال وقال لهم ما هو قولكم فى هذا الأمر العسير فقد حل بنا التدمير وهلك كل سعيد وأمير وإن طال القتال لم يبق أحد من الرجال فقال أخوه سلطان الرأى عندى أن تأخذ أختنا الجليلة وبعض نساء القبيلة وتذهب إليه وتقع عليه وتطلب منه كف الأذى والضرر وتعطيه دية أخوه مهما أمره وتقيمه ملكا على بلاد الشام وتدفع له الجزية فى كل عام فقال جساس ومن يذهب ويقص ذلك الكلام عليه قال أنا وأنت يا أخى فتبسم جساس وقال سمعت بأحد من الناس يرى الموت بين يديه فازحف إليه على رجليه فقال سلطان أنا أذهب إليه بنفسى لأن بينى وبينه مودة قديمة ومحبة مستقيمة ثم إنه نهض فى الحال وتأهب للسير والترحال وأخذ معه أخته الجليلة وبعض من نساء القبيلة وقصد المهلهل حتى وصل إليه وسلم عليه وقال بالله عليك أن تصفح عنا فقد أهلكت رجالنا ولم تبق أحداً منا وقد أتيتك الآن مع امرأة أخيك الجليلة وأكابر نساء القبيلة تقع على ساحة أعتابك وتطلب من جنابك وتبلغك غاية الأرب من الفضة والذهب ونقيمك ملكا على هذه الديار وتكون طوعاً لك مدى الأعصار لأنك سيفنا الثقيل ورمحنا الطويل ثم أنشد هذه الأبيات بحضور الأمراء والسادات:

قـال سلطان بن مـرة في بيـوت يا مـهلهل استمع مني القصيد
ليت عـمرك يا مـهلهل ألف عـام ياحـمـاة البيض في يوم الشـديد
فـأعف عنا يـا سيـاج المحـصنات ليت عـمرك كل يوم في مـزيد
نحـن منك وأنـت منا يـا همـام كلـنا أولاد عـمك يا رشـيـد
فـأعف عنا ثم دعنـا في حـمـاك تحت ظلك عيـشك يبـقي رغـيـد

فلما فرغ من شعره ونظامه أجابه المهلهل:

إفـتـهـم يا بن عـمـي مـا أريد إفتـهم فحـوي كلامـي في قصـيد
ليـس لي ذنـب في أي الأمـور وأنا فـي حـقـكم لست عنيـد
غـصب عني يا سـياج المحـصنات ليت عـمـرك يا ولد عـمـي يزيد
كل ذا جـاري عليكم يـارجـال علي يمامـة بنت أخـتك الأكـيـد
اليـمـامـة كل يوم تـقـول خـذ بـثـاري أيهـا البطل العنيـد
فـإن عـفت أنا عـنكـم أعف كل قـول صـادق والـلـه شـاهد
وإن أبت لا أخـالف قـولهـا إنني عـن أمـرها لسـت أحـيـد

(قـال الراوي) فلما انتهى الزير من شعره ونظامه قال السلطان ومن حضر معه أننى لا أكف الحرب والقـتال ولا أرفع عنكم السيوف الصقال إلى يوم القيامة أو أتمنعنى اليمامة فأذهب إليها وخاطبها بماخاطبتنى به أمام هؤلاءالأعيـان فعساه أن تجـيب طلبك يا سلطان فعتد ذلك قـصد سلطان اليمـامة أخـته الجليلة ومن حـضر معـه من نساء سـادات القبيلـة فدخلوا

جميعا إليها وسلموا عليها وقبلت الجليلة بناتها وقالت لهن: أما كفى يا بنات الأكارم والوقار فقد قتلت رجالنا وهلكت فرساننا وأبطالنا وساءت أحوالنا وصارت عبرة لمن اعتبر ومثلا بين البشرفأجابتها اليمامة أنا لا أصالح حتى لايبقى منا أحد يقدر أن يكافح إن كان عمى عجز عن قتالكم فأناأنوب عنه والتقى بأبطالكم ثم أنها ختمت كلامها بهذا الشعر والنظام:

قالت يمامة من ضمير صادق   يا جليلبة أقصرى عن عناكم
أنت وخوالي وكل عشائري   لاتزويدا لفظكم ولا لغاكم
فـتلتم الماجد كليب والدي   غدرا وماله ذنب معاكم
جساس طعنه من قفاه بحربة   ودعا علي الغبرا حقير حدا كم
أنا وأخوتي بقينا بدله   نمسي ونصبح ولاننسي بلاكم
أنا لا اصالح حتي يعيش أبويا   ونراه راكب يريد لقاكم

(قال الراوي) فلما فرغت اليمامة من شعرها ونظامها وفهمت الجليلة فحوى كلامها رجعت هى وأختها مع باقى النساء إلى الحى بدون أدنى إفادة وأخبروا الأمير جساس بواقعة الحال وماسمعوه من المقال فاعتراه الخوف والانذهال وأيقن بالهلاك والوبال فقال أخوه سلطان: وكان ذا مكرو احتيال إنى سأهلك الزير أيها الأمير وأقوده إليك عند الصباح كالبعير فقال ماذا عولت نفعل وما هوالعمل قال إنى أقصد

الميدان فى جماعة من الأعوان وأحفر هناك ثلاث حفاير ونغطيهم بالقش حتى يحفوا عن عيون العساكر فما كان الصباح والتقى الجحفل بالجحفل فتبرز أنت إلى المهلهل وتكون أنت عارف بهم فتقوده إليهم وبهذه الوسيلة تتم الحيلة فيسقط ويهلك فى هذا الشرك فنخلص من شره وتبلغ ما نتمناه فاستصوب جساس هذا الرأى وأستحسنه وخرج ذلك الليل مع أخيه سلطان فى جماعة من العبيد والأعوام حتى وصلوا إلى المكان فحفروا ثلاث حفائر عميقة وغطوها بالقش ووضعوا عليها التراب حتى يخفى عن العيون ثم رجعوا إلى أماكنهم وهم مسرورين باتوا تلك الليلة على مقالى النارو هم ينظرون طلوع النهار هذا ماكان من هؤلاء وأما الزير البطل النحرير فإنه ركب فى الصباح بفرسان الكفاح قصد ساحة الميدان بقلب أقوى من الصوان فالتقاه جساس بالعسكر ثم أنفرد بنفسه نحو تلك الحفاير وأخذ يلاعب الجواد على عيون العساكر والقواد فرآه بعض الفرسان وهويجول فى ذلك المكان على ظهرالحصان فأعلم المهلهل بذلك الشأن وقال له أن خصمك ظاهرللعيان وهو فى تلك الناحية من الميدان فلما رآه المهلهل قصده على عجل ليقتله ويبلغ الأمل فلما اقترب منه ابتعد جساس عنه فتبعه المهلهل على الأثر فسقط فى إحدى الحفر فارتد عليه جساس وانطبقت عليه باقى الناس بقصد أن يطعنوه ويهلكوه ويعدموه فلله در الحصان أبو حجلان فإنه كان من عجائب الزمان

وغـرائب الأوان أخف من الغزلان وأسبق من البـرق عند اللمـعان فـإنه عندما وقع ضـرب بحافرة الأرض ارتفع حـتى صار بين الفرسـان بالميدان فرجعت الخيل عنه مدبرة فاسـتعظم تلك الأمور المنكرة وغاب عن الوجود حتـى صار في صـفة مـفقـود فرأى جـساس ينحى أبطاله ويصـيح على رجاله فتقدم نحوه بالجواد ليشفى منه غليل الفؤاد فاتفق المقدر بوقوعه في الحفرة الثانية من تلك الحفـر فوثب به الجواد وانتصب أسرع من النظر إذا وثب حتى صـار على وجه الأرض فـانقلبت عليه العـساكـر على بعضـها البعض فزاد بالزير الكدر وطار من عينيه الشرر فقصد الأمير جساس دون باقى الناس ليـقـتله ويعـدمه الحـواس فكبى به الجـواد في الحـفرة الـثالثة وكانت عليه أقبح حادثة وكان جواده قد أعياه التعب وضعف قواه وأنحل منه العصب حتى لم يعـد يمكنه أن يفعل كما كان يفعـل وكذلك الأمير مهلهل فقـد أنهد حيلة وطاش واعتراه الخـوف والارتعاش وأيقن بالهلاك والممات وآيس على نفسه من الحياة فكانت غلة عظيمة ودامية جسيمة فلما بلغ جساس الأمل ولجج بذلك العـمل أيقن ببلوغ الأرب وصاح من شدة الطرب على باقى رجـاله ومن يعتـمد علـيهم من أبطاله ياويلكم أدركـوه وأطمـروه واقتلوه فـإن تخلص هذه المرة من هذه الحفـرة لا تتأملوا بنـجاح أونصرة فلما سمعت الرجال منه هـذا المقال قصدوا ذلك المكان من اليمين والشمـال وكانت أيضـاً بنو تغلب قـبيلة الزير فـارس العجم والعـرب قد

أقبلت أبطالها وفرسانها ورجالها وأنشب بينهم وبين القوم قتالا لم يسمع بمثله قبل ذلك اليوم وكان القتال فى ذلك اليوم بجانب تلك الحفر ولما عظمت الأهوال وتكردست جثث القتلى على الأرض مثل التلال من ضرب السيوف وطعن النصال هجم جساس أمام الناس وقال للفرسان والأبطال والشجعان أدركونى فى هذا النهار واسعفونى بالتراب والاحجار واردموا هذه الحفرة فى ساعة الحال وأنا أردعنكم هجمات الرجال فتقدموا من عجل وبادروا بإجراء هذا العمل غير أنهم لم يبلغوا الأمل لأن أخوه الزير والفرسان المشاهير هجموا عليهم من اليمين واليسار وضربوا فيهم السيف البتار فأبلوهم بالذل والدمار وكان الأمير مرة بالقرب من تلك الحفرة فرآه عدى أخو الزير فتقدم إليه وقبض عليه والقاه فى تلك الحفرة بالعجل وقال: خذ عمك يا مهلهل ولما صار بالقاع ضربه بالسيف فقتله ثم أخرجوا الزير من تلك الحفرة بالقوة والاقتدار فعند ذلك انشرحت من بنى تغلب القلوب وزالت عنهم الغموم والكروب وأيقنوا بالفلاح والتوفيق والنجاح وقصدوا الحرب والكفاح والتقوا أعداءهم بأسنة الرماح ومال أيضاً الزير على القوم ونادى اليوم ولاكل يوم وفى الحال اشتعلت نيران القتال وقامت الحرب على قدم وساق وارتجت جوانب الآفاق من ضرب السيوف الدقاق والرماح الرقاق وجمدت من القوم الأحداق وفعل الزير فى ذلك اليوم فعالا لاتطاق وما زالوا فى أشد قتال إلى وقت الزوال فعند ذلك دقت طبول الانفصال

فرجعت بنو مرة بالويل والحسرة والمهلهل بالنجاح والنصرة فنزل عن ظهر جواده وخلع آلة حربه وجلاده وجاءت السادات وأكلت من زاده ولما جلس في الصيوان ونادى على عبده أبي شهوان بإحضار المدام إلى الديوان فأحضره بالعجل فتناوله منه المهلهل ومن حضر في ذلك المحفل فعند ذلك تذكر الزير ما جرى له في ذلك اليوم المهول فأنشد يقول:

يقـــول الزير أبـو ليلـي المهلـهل ... فـــدمع العـين هطال عـــمـــانا
لقـــد قـــتلوا أخي أولاد عـــمي ... وقـــالوا مـــا رأوه إلا جـــبـــانا
ولايدرون بـأسي واقـــتـــداري ... فـــقطعـــتـهم ولم أخشـي الزمـانا
أتـتنـا في كـليـب أولاد مـــرة ... أتـونا داخـلين علـي نســـانـا
وقـــالوا كف عـنا يا مـــهلـهل ... فـــقـــد حكمت سيـــفك في أذانا
فـــاطلب مـــا تروم اليـــوم منا ... واتركـنا فـــقـــد صـــرنا حـــزانا
فـــقلت لهم روحـــوا لليـــمـامـــة ... رضـاها اليـوم أحـسن من رضـانا
قـــتلنا في كليـب ألوف قـــوم ... فـــمـــافيـــهم ردي ولا جـــبـــانا
قـــتلنا من بنـي مـــرة إمـــارة ... مـــلابســـهـــا ثيـــاب الطيـلســـانا
فراحـوا الكل قـد وقعـوا عليـهـا ... وقـــالوا عـــمك أرسلـنا عـــيـــانا
فـــقـــالت أذهبـــوا أولاد عـــمي ... فـــهـذا القـول ضـــحك في لحـانا
فـــأنا لا نـصـــالح في كليب ... إلا أن نراه علـي الحـــصـــانا
وقـد حـفـروا لقلـعـاني حـصـاير ... وغطوهـا وقـــالوا قـــد كـــفـــانا

فركبوا خيولهم وأتوا حداها وقالوا قد أتانا قد أتانا
وقف جساس ما بين الحفاير هجمت عليه أطعنه السنانا
فولي هاربا من هول حربي ومرة قد قتلناه عيانا
فكوني يا يمامة في انشراح وحط دايم في طول الزمانا
فسوف أبيد جساس بسيفي وكل سيد ينبغي أذانا

(قال الراوي) فلما فرغ الزير من شعره ونظامه شكره جميع أقوامه ولما كان الصباح رجعوا على ماكانوا عليه من الحرب والكفاح وما زالوا فى قتال وصدام مدة طويلة من الأيام ولما طال المطال اتفقوا على توقيف الحرب والقتال وأخذوا هدنة شهرين لراحة الفريقين فاتفق فى بعض الأيام بينما كان الزير خارج الخيام معه جماعة من الخدام وإذا برجل يقود مهر أدهم كامل الصفات فاستحسنه الزير غاية الاستحسان وقال لقائده : ما هو أهل هذا الحصان ياحلو الشمائل إيه من الخيول الأصايل قد أتيت به من أبعد الحلل لأهديه للأمير مهلهل فتعجب الزير من الإتفاق الغريب وقال لقد نلت مرادك من قريب فأنا هومهلهل الذى أنت قاصده فأخذ منه الجواد وأمر له بألف دينار وبلغه مقاصده فدعا له بطول السمر والبقاء وعلو الشأن والارتقاء وسار من يومه إلى قومه فاعتنى الزير بذلك الحصان وفضله على جميع الخيول الجياد واتفق فى ذلك النهار إنه التقى برجل اختيار وهو راكب على دابة سوداء مثل الظلام ووراها كرابن سبعة

أيام وهو يبرطـع خلفها وتارة من قـدام فلما رآه الزير أعـجبـه وقال لذلك الشيخ: اتبع هذا الكر فقال بكم فقال: ليس على الكريم شرط فأعطاه الزير مائة دينار وأخذه منه وسلمه إلى السايس فرباه مدة أربع سنوات ثم دخل الزير ذات يوم إلى الاصطبل فنظر الكر وهو متعـافى فـأمر السـايس أن يضع عليه عـدة ولجام فأخرجـه وأسرجه ولجـمه فركب عليه الزيروسـاقه ورجع إلى الوراء فرده إلى اليمين فـراح شمالا واجتهد أن يمشـه فما كان يمشي معه فغضب منه ولكزه برجله في الركـاب فتضايق المشوم من فعاله وضربه بنعاله ضـرط ضرطة من شدة الوجع كأنها صوت مدفع فغضب الزير وتألم وضـربه بالسيف فـأروثه العدم ودخل إلى صـيوانـه فاجتـمع بنوابه وأعيانه وقال : لقد جربت دنى الأصل وأكرمته فضاع فعلى معه وما قدمت هذا المثل أيها السادات الأخيار إلا لتـعلموا أن الحمار يقتنى الحمار ثم أنه ركب ذلك الحصـان فوجده من عـجائب الزمان فـزاد انشراحه فـيه فأمر السايس أن يسوسه ويداويه ثم أنشد يقول:

يقـــول الزير أبـو ليلـي المهلـهل	بلوم الـشـعـــر مــا تغلـي بمالي
أبا غـالي رضـيـت الخـيل تركب	تعـالي واسـمــعي مني مـقــالي
جـمع الخـيـول لـلحـمـر جـوادم	شـبـيـه الصب تخـدمـهـا الموالي
وأمــا الشـقــران طار والصـدق	بغــات الريح تسـبق في المجـال
وأمـا الخـضـر مــركـوب الأمـارا	فــتـركـبــهـا الملـوك وكل والي

وأمــا الــدهم زيدوهم عــلـيــقـــا وسـيــبـوهم لــدهمـات الليــالي

(قــال الراوي) فلما فـرغ الزير من كلامه شكره قومـه على حسن اهتمامه ثم استعد الفريقان للقتال وجرت بينهم عدة وقائع وأهوال انتصر بها المهلهل وكسب أهوالا كثيرة وقتل سادات كثيرة حتى ضعفت بنو بكر وذلت وبعد كثرتها فلت وأضمحلت .

(قــال الراوي) فبينما هم في حالـة الذل والانكسار وإذا بغبار قد علا وثار قـاصدا بلادهم وتلك الديار فـشخصت إليـه الأبصار سـاعة من النهـار إلى أن أرتفع وتمزق وبان من تحتـه ألف فـارس وكلهم بالسـلاح والدوق وفي أولهم فـارس بالحـديد غاطس كـأنه قلة من القلل أو قطعـة فصلت مـن ذيل جبل وعلى رأسه البـيارق والرايات والسناجـق فلما رآه جســاس استبـشروا وأيقن بالفرج بعـد الشقـا والكدر ولما اقترب للعـيان وتأملته الفرسـان وإذا به أسد الآجام الأمير سيبون ابن الأميـر همام وكان المذكور قـد خرج في جـماعـة من فرسـان الصدام للغـزو على بلاد الروم وذلك من عهد وقوع الزير في البحر كمـا سبق الكلام فلما عرفوا وتحققوا اخـرجوا إليـه واستـقبلوه وفـرحـوا بقدومـه إلى الدياروكان ذلك اليـوم عندهم أعظم نهار فـذبحوا الذبائح وطعموا الغـادى والرائح وكان أفراح الخلق أبوه همـام وأمه ضبــاع حيث لم يكن لهـما غـيره سـوى الذى قتل الزير على بير السـباع فلما نزل بصيـوانه بأبطاله وفرسانه خلع عـدته وغير

بذلته ودفت له النوبات وقامت الأفراح والمسرات وعمل جساس وليمة عظيمة لها قدر وقيمة استدعى إليها جميع الأكابر وأمراء القبائل والعشائر وكان شيبون قد وجد السادات والأعيان فى هموم وأحزان فسأل عن ذلك الشأن فقال جساس له : لا تسأل يا ابن أخى عما أصابنا ودهانا من خالك الزير المهان فإنه لم يكتف بقتل أخيك شيبان حتى جعلنامثلا بين العربان على طول الزمان فإنه أفنى رجالنا وأهلك أبطالنا وقد حرمنا هجوع الليل وهدمنا القوى والحيل كل هذا وهو لايقبل منا دية ولامال ولا فدية وقد أعلمناك بالقضية وأوقفناك على باطن الطوية فلما سمع شيبون هذا الكلام صار الضيا فى عينيه كالظلام من عظم ما قاله احمرت عينيه وشتم خاله وأوعدهم بالمساعدة والمعاضدة وأن يكون معهم على قتال خاله يد واحدة ثم نظم هذه القصيد وأرسله لخاله على سبيل الملام والتهديد:

قال شيبون ابن همام الأمير حامي الزينات طعان العدا
مرعب الفرسان في يوم اللقا ساقيا للعدي كاس الردي
ضرب سيفي يقطع السيف المتين ثم يقدح الصخور الجمدا
كل من يبغي قتالي يرتدي ويرتمي فوق الصعيد ممدا
لم يبق لي مقارن في المجال حين يلقوني يولوا شردا
وأنت يا خالي مهلهل يا همام شد عزمك للقتال إلي غدا
لاتقل يا خالي ما أعلمتني يا قليل العقل لاتتمردا
أبرز إلي في الصباح ولاقني ثم أبشر يا مهلهل بالردا

(قـــال الراوي) فلما فـرغ شيبون من شـعره ومقاله خـتم الكتاب وأرسله إلى خـاله مع رجل من أبطاله فلمـا فتـحـه الزير وقرأه وعـرف فحوى معناه أجارت عيناه وغاب عن دنياه وقد شق عليه وتأسف وصفق كـفـا على كف وقـال: إنه مـعـذور في هذه الأمـور لأنه جـاهل مـغـرور فاقتضى أن ينتصح قبل أن يفتضح فأجابه على أبياته يقول؛

(تم الجزء السابع ويليه الجزء الثامن)

الجزء الثامن

من قصة الزير أبو ليلى المهلهل

قال أبو ليلي المهلهل إنني ... مفرج الكرويات في يوم الزحام
يا فتي شيبون يا ابن أختي ضباعا ... تهدني في كتابك يا علام
ثم تطلبني إلي سوق المجال ... وانت قصير علي ضرب الحسام
احتفظ من ان تجهل يا أمير ... الجهل يسقيك كاسات المدام
اطرد الشيطان إبليس اللعين ... وانتصح من قول خالك يا همام
لات خالفني واسمع ما أقول ... يقتلك جهلك وما تبلغ مرام
رد عما أنت فيه لاتزيد ... إن كنت تبغي حربي والصدام
شد عزمك غدا نتلاقي سوي ... من طلوع الفجر إلي وقت الظلام

فلما انتهى الزير من شعره ونظامه أرسل الكتاب إلى ابن اخته شيبون فلما فتحه وعرف ما احتوى عليه من المضمون مزقه ولم يكترث ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح ودقت طبول الحرب والكفاح وركب شيبون وجساس وكذلك الزير الفارس الدعاس والتقوا بأبطالهم ورجالهم وتشددوا فى قتالهم وكان شيبون قد برز إلى ساحة الميدان وتبعه

الأبطال والفـرسان والتقـى بفرسان تغـلب وفعل بهم العـجب فمـا صدم فارسا إلا أعطبـه وعن ظهر جواده أقلبه ثم صـاح وحمل بقلب أقوى من جبل وطلب براز خـاله المهلهل وكان الزير لما شاهـد أفعال ابن أختـه وما فعل بأبطـاله ورفقتـه حمل عليـه واحمرت أمـاق عينيـه وقال له: اذهب ياوجه العرب قبل أن تهلك وتعـطب فقال إلى أين أذهب يا خالى وأنت غاية بغـيتى وآمالى فوالله لأقيـلك فى هذا اليوم وأطفى أخـبارك من بين القوم لأنك طغيت وتجبرت وافتريت فاغتاظ الزير من هذا الكلام والتهديد والتقاه بقلب شديد وجرى بينهما فى القتال وقائع وأهوال تشيب الأطفال ولما طال المطال قال له الزير أمام الأبطال ارجع يا بن أخـتى بأمان قبل أن يحل بك الهوان وتلحق بأخـيك شيبـان فارجع إلى أهلك وأمك وأرسل لى أبطال قومك مع جساس عمك فلم يجبـه شيبون بكلام بل كان يقاتله كسبع الأجام وكان الزير كلما حكم عليه الضرب فى الحرب تمنع عن أذاه شفقة عليه وإكراماً لخـاطر والديه ومازال يقاتله ويداريه وينصحه يالرجوع عمـا فيه إلى أن أقـبل الظلام فعند ذلك توقف القـتال ورجعت الفـرسان والأبطال عن ساحة المجال ثم التقـوا فى اليوم الثانى وكان أول من برز إلى سـاحة الميدان الأمـير شيبون فصاح وطلب براز المهلهل فـالتفاه الزير ونهاه عن قتاله فلم ينتـصح بمقاله بل تقدم إليه وهجم عليه وأشار يقـول متهدداً إياه أمام الفرسان والفحول:

أيال شـيـبـون أين همـام ا لأمـيـر   فـارس الفـرسـان في يوم النكيـر
اسـتـمـع يا زيـر قـولي وافـهـم   لابد من قـتـالك يا وغـدا حـقـيـر
مـا بقــا لك مـخـلـص منى ولا   من حـسـامي اليـوم لو إنك تطيـر
ثم آخـذ ثار أعـمـامي الجـمـيع   كم بطل صنديد صـيـرته حقيـر
ليس لك قلب عـلي اختك يحن   وأولاد عـمك ذاقـوا منك النكيـر
كم قـتـلت منهم خلق كـثـيـر   كم يتـمـت كل طـفـل صـغـيـر
سـوف تري حـربي يا مـهـلهل   في لقـاء الأبطال مـالي نـظيـر
قـد أخـبـروني يوم جـئـت بأنك   يا قليل العـقـل تركت للحـمـيـر
مـا يقني الحـمـار إلا الحـمـار   مـا أنا مـثلك ولاعـقلي صـغـيـر
هات لي سيفك ورمحك والثياب   هات أبو حـجـلان كالطيـر بطيـر
حتي أقتلك من حـسـامي والقنا   وتطلب الجيـر ومـثلي من يحيـر
إن كنت لاتنـصـح فـهـذا حـربنا   ويكون النـصـر من رب القـدير

فلما سمع الزير هذا الكلام وقع عليه أشد من ضرب الحسان فأجابه يقول:

فـال أبـو ليلي المـهلهل ثـم قـال   أنت يا شـيـبـون مـا عـاد لك بعيـر
هرجت يا شيبون ما في قولك كـثير   الجحش لاتحطل كـمايحمل بعير
أو سقـيت الجحش من سكـر وسمن   ولو خلطت له السـوبر بالـشعـير
لاعاش أصله ما ينفـع منه الجميل   أكيـد هو مجنون من يقني الحمير
وأنت يا شيبـون لو لم تكن حمار   ما رجـعـت اليوم إلي حربي تغـير
فـإني قـد عفـوت عنك البـارحـة   من أمك وأبـو ك نعم النـصـيـر

وأنت تعلم إنني سبع الرجال قتلت منكم اثني عشر ألف أمير
هذا من غير التوابع والغريب تاه فيهن العدد ناس كثير
كم نصيحة نصحتك لاتنتصح جاهل سوف تقع في وسط نير
لم يبق لي ذنب إن أتاك مني ضرب يهدي الأبدان ماعاد لك مجير
دونك الميدان يا شيبون قم وقو عزمك لايكون باعك قصير

(قال الراوي) فلم يلتفت شيبون إلى كلامه ولا اكترث بالتوبيخ والملام بل حمل عليه حملة أسد الغاب وأخذ معه فى الطعان والضرب فالتقاه مهلهل بالعجل بقلب أقوى من الجبل واشتد بينهما القتال وعظمت الأهوال حتى تعبت من تحتها الخيل وارتخى منهما العزم والحيل ومالا على بعضهما كل الميل وكان الزير يطاوله ويحاوله واستمرا يقاتلان ثلاث ساعات من الزمان حتى استعظمت من قتالهما الفرسان وشخصت إليهما عيون الشعال وكان الأمير شيبون يود أن يقتل خاله ويعدمه الحياة ويفتخر بقتله على أهله وأقرباه إلى أن اغتنم الفرصة عليه فهز الرمح وطعنه بين ثديه فخلى المهلهل منها فراحت خائبة بعد ما كانت صائبة فزاد الزير غضباً وتوقد قلبه والتهب وصمم على أن يسقيه كاس العطب فجذب سيف حكمون وقال: اليوم أريك يا مجنون كيف الضرب يكون لأني نصحتك فما انتصحت ولقد خسرت وما ربحت ثم تقدم إليه وهجم عليه وضربه على مفرق رأسه فشقه إلى تكة لباسه فوقع على

الأرض يختبط بعضه ببعض فلمارآه المهلهل وهو قتيل يتململ تبدم على ما فعل فتحسر وهطلت الدموع من عينيه فلما قتل الأمير شيبون احمرت من بنى مرة العيون وزادت عليهم الحسرات وأيقنوا بالهلاك والشتات ولكنهم أخفوا الكيد وأظهروا الصبر والجلد وقاتلوا قتال الأسود وطلبوا الرايات والبنود فالتقاهم الزير بالعساكر وضرب فيهم بالسيف البواتر وأحاط بهم إحاطة الخواتم بالخناصر وقتل منهم مقتلة عظيمة وأصاب غنائم جسيمة فلما رأى جساس ضعف حاله وقتل فرسانه فولى يطلب الهرب خوفا من العطب وتبعه فرسان وقد أبصروا أن ذلك اليوم العجيب من قتال بنى تغلب فرجع عنهم الزير وهو حرنان على فقد ابن اخته الأميرشيبون فنزل فى الصيوان مع الأمراء والأعيان لم يكن له دأب إلا البكاء والانتحاب ولما أتى وجلس وأنشد هذه الأبيات وهومن الحزن على آخر نفس .

الزير أنشد شعراً من ضمايره ... العزب بالسيف ليس العز بالمال

شيبون أرسل نهار الحرب يطلبني ... يريد حربي وقتلي دون أبطال

نصحته عن قتالي ولم يطاوعني ... بارزته فتجندل في الأرض بالحال

المال يبني بيوتاً لاعماد لها ... والفقر يهدم بيوت العطى الغالي

دع المقادير تجري في أعنتها ... ولاتبيتن إلا خالي البال

ما بين لحظة عين أنت راقبها ... يغير الله من حال إلي حال

فكن مع الناس كالميزان معتدلا ... ولاتقولن ذا عمي وذا خالي

عم الذي أنت مغرور بنعمته خال الذي أنت من ضراره خال
لايقطع الرأس إلا من يركبه ولاتريد المنايا كثرة المال

(قال الراوي) فلما فرغ الزير من كلامه وانطرح على فراشه من شدة حزنه على ابن أخته ولما بلغ قتل شيبون أبوه همام وأمه ضباع احترق قلبها عليه لأنه كان ابنها الوحيد بعد أخيه شيبان وكانت الفرسان قد أتت بجثته إليهما فبكيا بكاء شديدا ومزقا عليه الثياب وبعد ذلك دفنوه فى التراب وفى اليوم الثانى ركب الأمير لقتال الزير وتبعه جساس وباقى الأبطال والفرسان وبلغ المهلهل الخبر فركب فى أبطاله وفرسانه ولما التقى الفريقان وتقاتل الجمعان برز الأمير همام إلى معركة الصدام وطلب براز الزير المهلهل وكان قد غير صفاته ووضع لثاماً على وجهه حتى لايعرفه أحد فبرز إليه وهو لا يعلم بأنه الأمير همام فاقتتلا ساعة من الزمان وكان همام قد ضرب الزير بالحسام قاصداً أن يسقيه كاس الحمام فخلى الزير منها فراحت خائبة ثم هجم عليه وطعنه بالرمح فى صدره خرج يلمع من ظهره فوقع عن ظهر الجواد كأنه طود من الأطواد فالتفت على الزير وقال له وهو على آخر رمق أه يا مهلهل لقد قتلت ابن أختك نهار أمس واليوم تقتل صهرك همام فلما سمع الزير هذا ا لكلام تنغص عيشه وزاد همه وكدر وقال له يا همام قال نعم قال ما عهدتنى أنك لاتقاتلنى أبداً وأننا نكون أصحاب على طول المدى فلماذا خاطرت بنفسك وطلبت قتالى

وأنت تعلـم بأنك لست من رجـالى فـقـال لـقـد جـرى القلـم بما حكم فانقضت حـياتى ودنت وفاتى وهذا الأمر مـقدر بأمر رب البشـر وما داما لأمركذلـك يا فارس المعارك فكف أذاك ودواهيك واجعلنى فـدى أخيك فـقال والله يعـز على فقـدك ولا عاد يطيـب لى عيش من بعـدك لكننى لا أكف الحرب والصـدام حتى لايبق من بنى بكر شـيخ ولا غلام ثم إنه من بعـد هذا الكلام هجم على المراكب فـفرقـها وطعن فى أبطالهـا فمـزقهـا فتأخرت عنه الفرسان ورجعت إلى الأوطان وهى فى حالة الذل والهوان ولما بلغ ضباع قتل بعلها غابت عن عـقلها وقد عظم مصابها وسارت إلى بنى تغلب ودخـلت على اخـيـها الـزيروقلبـهـا يلتـهب وقـالت له بكلام الغضب هكذا تفـعل يا أخبث العرب تقـتل أولادى وبعلى وتحرمنى أهلى وتتركنى حزينة طول الدهر أقاسـى الذل والقهرهكذا تكون الإخوان الذين يدعون الفضل والإحسان فـوحق الإله القادر الفاحص القلوب والضمائر أن مـوتى ألذ عندى من الحيـاة وأفـضل فأنت نسـيت الجـميل والمعـروف وقابلنى بالغدر والمتلوف بعه إن أخلصـتك من الحريق وكشفت عنك ذلك الضـيق فلمـا سـمع الزير منهـا ذلك الخطاب أظهـر الحـزن والاكتـئـاب وتلقاها بـالإكرام والترحـاب ثم اعتذر لـها بالغلط وأخذ يطـيب خاطرها ويعزيهـا عما فـرط وأمرها بأن تسكن عنده يخدمـها وجواشيـها فامـتثلت كلامه وقامت فى بيت أخيها.

(قــال الراوي) فلما عظم الأمر على جساس وبنى بكر وكـثرت فيهـا السبى والقتل أرسلوا يستنـجدون أهل اليمامة فـأمدوهم برجل منهم يقال له الـفندين سهل وكان من جـبابرة الزمـان وفرسـان الأوان لايبالى بالأهوال ولايخاف كـثرة الرجـال وكان يلقى نفسـه على المخاطر ويصـيد الكواسر فسار إلى مساعدة القوم من ذلك الزير وقد انتخب من الشجعان سبعون فارساً مثل العقبان يقـاربون فى الشجاعة والفروسية والهمة العليا وكانت أهله قـد كتبت إليهم تقـول قد أمددناكم بعشـرة آلاف فارس من الفـحول وبهم تنالوا مـن الأعداء القـصد والمأمـول فلمـا قدمـوا إلى تلك الأوطان ورآهم جسـاس وباقى الأبطال فاعتـراهم الانذهال لأنهم لم يروا أكـثر من سـبعـين تحت راية الفند الأسـد العربند فـقالوا: أين جـماعـتك الباقـين فقال الفند أنا بسبـعة آلاف فارس وأصحـابى ثلاثة آلاف مداعس فتبـسموا من هذا الكلام والتقـوهم بالإكرام والاحترام فـذبحوا لهم النوق والأغنام ونصبـوا لهم المضارب والخيام ثـم استعدوا للحـرب وسمع بهم المهلهل وتزيد فـى الخيل والرجـال وزحف من يومـه فى فـرسـان قومـه فالتقته بنو بكر فى مكان يدعى عقبـة الريحان فلما اقترب العسكران قال الحارس بن عـباد وكان من الفرسـان الأجواد إلى جساس قـائد القواد هل تطيعنـى أيها الأميـر فيمـا أقول وأشـير فقـال ما بدا لك فـإنى لا أخاف مقـالك قال إعلم أن القـوم مستـخفـين بقتـالنا وذلك لضعفـنـا وقلة عدد

رجالنا فقاتلهم بالنساء مع الرجال فتبلغ منهم القصد والآمال فقال جساس وقد اعتراه الانذهال ما معنى هذا المقال وكيف قتال النساء مع الرجال قال إنك تحلق رؤوس الفرسان وتجمع والنسوان اللواتى تصفن بالشجاعة وقوة الجنان فتحملهن الماء بالقرب وتعطى كل منهن مطرقة من خشب وتصفهن تخلف الرجال وقت الحرب والقتال فإن هذا المجال يزيد الأبطال نشاطاً فى ساحة المجال فإذا خرج منكم أحدالناس يعرفنه من حلق رأسه فتسقينه الماء فينعشه وإذا مررن بعدوكم عرفته فتقتله فاستصوب جساس هذا الرأى واستحسنه وفى عاجل الحال جمع النساء والرجال وعرض عليهم هذا الحال فأجابوا أمره بالامتثال ولم يبق يومئذ من بكرأحد إلا حلق واستعد إلا رجلا من الفرسان اسمه ربيعة بن مروان كان زميماً قصيراً وفارساً خطيراً فقال يا قوم إنى زميم قصير وإذا حلقت رأسي أسير معيرة عند الكبير والصغير فدعونى من هذا يا سيدات العرب فأنا أبلغكم الأرب وأقتل خمسة فوارس من تغلب فأجابوه إلى ما طلب.

(قال الراوي) ولما التقت العساكر بالعساكر وتضاربت السيوف والخناجر وانقلبت تغلب على بكر كليوث الآجام وألهبوهم بضرب السيوف على الهام فارتدت بنو بكر طالبة الانهزام فأشهر جساس فى يده الحسام وصاح فيهم بصوت كالرعد والغمام وقال يا ويلكم ارجعوا وقاتلوا بقوة وعزيمة فإن الموت أفضل من الهزيمة فاجتمعت بنو بكر بعد

الانقلاب إلى الحرب والقتال وضموا خيولهم فى كتيبة واحدة وطلبوا المكافحة والمجادلة وصاح الفند بن سهل والقى نفسه على القتال وهو ينخى الأبطال ويصيح على الرجال فـفرق المواكب وأظهر بقتاله العجائب.

فلما رأى المهلهل أفعاله برز إليه وطلب قتاله فالتقاه الفند بقلب كالحديد وهجم عليه هجم الصناديد وما زال فى قتال شديد وحرب ما عليه مزيد إلى أن صار وقت الزوال فتوقفا على الحرب والقتال وافترقت العساكر عن بعضها البعض ونزلت فى جوانب تلك الأرض .

(قال الراوي) وكان ربيعة لم يحلق رأسه من دون بنى بكر لقد قاتل قتالا شديدا حتى أثقلته الجراح من ضرب السيوف وطعن الرماح فوقع طريحا بين القتى على وجه الفلا فمرت عليه نساء بنى بكر فوجدته ذات لمة طويلة فحسبته من بنى تغلب فضربته بالمطارق حتى أوردته موارد العطب فضربت به الأمثال وتحدثت بهَ ألسنة الرجال.

(قال الراوي) ولما أصبح الصباح وأشرق بنوره ولاح ركبت الفوارس ظهور الخيول واعتقلوا بالسيوف والنصول وتقدموا إلى ساحة الميدان بالضرب والطعان وكان المهلهل فى الجحفل كأنه قلة من القلل أو قطعة فصلت من ذيل جبل فصاح وحمل على جيوش الأعداء كليث الآجام وضرب فيهم بالحسام وتبعه أمرؤ القيس بن أبان وكان صنديدا

واشتد بين الفريقين القتال وكثر القيل والقال وتقطعت الأوصال وجرى الدم وسال وكان يوماً شديد الأهوال لم يسمع مثله فى الأجيال كثر فيه القتال والجراح وتمددت الفرسان على وجه البطاح وارتجت الأرض من قعقعة السلاح وصهيل الخيول وهول الكفاح وكان الفند قد حل مواكب المهلهل وقاتل حتى استقتل وفعلت فرسانه مثلما فعل وبذل جساس فى ذلك اليوم غاية الجهد وهجم بقومه على الرايات والبنود هجوم كواسر الأسود واشتد على المهلهل القتال وأحاطت به الأعداء من اليمين والشمال وهو يقاتل ويمانع وينصح رجاله على الثبات ويدافع حتى جرح فى ثلاثة مواضع.

فلما زادت عليه الحال وازدحمت حوله الرجال تأخر عن ساحة المجال خوفا من الهلاك والوبال وانكسرت بنو تغلب. وفى ذلك النهار اشتد انكسار وتفرقت فى البرارى والقفار واستظهرت بنو بكر غاية الاستظهار وقتلت منها جماعة الأمراء والأعيان وصناديد الفرسان ومن جملتهم ليث الميدان زينة الشجعان أمرؤ القيس بن إيان وكان من الأعيان صيته محمود مشكور وهو غير أمرؤ القيس الشاعر المشهور فبكى المهلهل عليه وكان يحبه ويميل إليه ورجعت بنو بكر إلى الديار وهى بغاية الفرح والاستبشار على ذلك الفعال.

(قـال الراوي) أما المهلهل فقـد زاد حنقه على بنى بكر وبات تلك الليلة على مـقـال الجمـر ثم جـمع الفرسـان والأبطال وتجـهز للحـرب والقتال فـالتقته بنـو بكر بقلوب كالجبال وجـرت بينهم وقائع وأهوال لم يسمع بمثلها فى سالف الأجيال واستمر الحال على هذا المنوال مدة عشرة أيام وكان المهلهل قد انتصر فى أكثر الوقائع على جـماعة كثيرة من فرسان المعـامع ولما كثـر بين الفريقـين القتل واتفـقوا على تـوقيف الحـرب مدة شهرين افترقت الفوارس عن بعضها ونزلت كل فرقة بأرضها.

(قـــال الراوي) لما قتل كـليب كما تقـدم الكلام كانت أمـه الجليلة حاملة بهذا الغـلام فلما طردها الزير إلى بيت أبيها وسـكنت عند جساس أخيـها فولدت غـلاماً فسـمته الهجـرس ولقبوه النـاس بالجرو فكانت مع أخواله بنى مرة وأولادهم وكان خاله يحسـن ويشفق عليه وكان الغلام قد أحب خاله الأمير جسـاس دون باقى الناس فلا يدعوه إلا أبا ونشأ الغلام ذا عقب وأدب وهو محبوب من جميع العـرب لفصاحته ونزاهته وقوته وشجـاعته فكان يركب ظهـور الخيل ويتعلم عليـها الفروسيـة فى النهار والليل فبرع واشتهر وعلى شبان القبيلة افتخر فلما بلغ عمره خمسة عشر عاما زاد شهـرة وارتفع مقاماً فرآه جـساس فى بعض الأيام وهو كأنه ليث الآجام والشر طائر من عينيه ولايقـدر أحد عليه فانذهل واندهش وخاف منه وارتعش وكان كثيراً ما يتأمل فى أمره ويخاف من سطوته وشره لأنه قتل أباه بالأمس وتركه يتيما طول الدهر.

(قال الراوي) واتفق ذات يوم أن الجرو ركب فى جماعة من الشبان وأخذوا يتعاطون بالجريد فى الميدان وكان من جملة الغلمان عجيب ابن الأمير جساس وكان شديد البأس فطعن عجيب الجرو طعنة فمال عنها فراحت خائبة ثم إن الجرو تقدم نحو عجيب وطعنه بجريدة أصابته فألقته عن ظهر الجواد إلى الأرض فنهض غضباناً فشتم الجرو وأهانه بالكلام وقال هكذا تفعل يا بن اللئام بأبناء السادات الكرام وأشار يهدد بهذا الشعر:

يقول عجيب من قلب موجع ألا يا رفقتي حالي عجيب
ضربني الجرو منه جريدة فأرماني وصيرني كشيب
ولم يعلم بأني خير ماجد ولد جساس قوم مستهبب
لولاعمتي لقطعت رأسه وأطرحه علي الغبرا قليب
فهذا ولد كليب الأعادي ولاضد الكلاب إلا القصيب
دعوه يروح عنا لايماطل ويذهب سرعة قبل المغيب

(قال الراوي) فلما فرغ عجيب من شعره ونظامه وفهم الجرو فحوى كلامه أجابه على شعره يقول :

يقول الجرو اسمع يا بن خالي كلامه ليس يسمعه أديب
تقول اليوم تقتلني بسيفك وتتركني علي الغبرا قليب

إذا ابصـــرتـني يومـــاً فـــريداً	فـقـتلتني بسيفك يـا عـجيب
فـانزل عن جـوادك يا ابن خـالي	وافـعـل مـا تريده عن قـــريب
وافـعل مـا تريده اليـوم فـينا	فـإني لا أخـافك يا عـجـيب

(قال الراوي) فلما فرغ الجرو من كلامه وإذا بسلطان أخو جساس أقبل عليهمـا فى ذلك الوقت فوجد الدم يسيل من ابن أخيـه جساس فلما علم بواقعة الحـال اغتاظ غيظاً شديدا وشتم الجرو وقـال والله لولا كرامة أمك لقطعت رأسك وأخـمدت أنفـاسك فـقال يا خـال ها أنا بين يديك فافعل مـا تريد ثم هطلت عيناه بالدموع وتنهد من فؤاد مـوجوع وسار إلى عند أمـه وأعلمـها بما جـرى وكـان طلب منهـا الرحـيل من تلك الأوطان فتكدرت أمـه وأجابتـه إلى ذلك الشأن ثم إنهمـا صبرا حـتى أظلم الليل فتـركا المضارب والخـيام وسـارا تحت جنح الظلام فى جماعـة من العبـيد والخدام وجدا فى قطع البـرارى والآكام مسافة عـشرة أيام واتفق فى اليوم الحادى عشر إنهما التقيا بشيخ فى ذلك البر الأقفر وهو يقطع البر للمسيح على فـرس تسابق الريح وكـان بمعيـته عـشرة أبطال من صناديد الـرجال وكان قد خـرج لصيد الوحوش والغزلان وهو راجع إلى الأوطان فـتقدم الجرو إليه وسلم عليه فرد الشيخ سـلامه وقال له أيها الفتى الماجد من أين أتيت وإلى أين قـاصد؟ فقـال طردنى أهلي وربيت يتيم وأنا طـالب إنسان

كريم حتى التجىء إليه وأقيم عنده فقال الشيخ إذا كان الأمر كما تقول فشرفنى إلى أطلالى فأنا أفديك بروحى ومالى وأشار إليه يقول:

يقول الأمير منجد من قصيد ألا يا قاصداً نيل المآرب
فشرف منزلي وأمر عبيدك يرون الأغر والجنائب
بكم قد حلت البركة علينا وزال عما الشر والمتاعب
فمثلي ما تلاقو أين سرتم وعندي تبلغوا كل المطالب
أنا منجد فمن نسل الأكارم أبي وائل وما فينا معاقب
ألوف ألوف تخدمني وتخضع لأمري في المشارق والمغارب
وأنت بقيت بعد اليوم ابني ولست اليوم في قولي بكاذب

(قال الراوى) وكان هذا الشيخ اسمه منجد ابن الأمير وائل وهو خال كليب والزير البطل الحلاحل وقد كنا ذكرنا عنه فى أول الكلام بأنه بعد قتل ربيعة أبو كليب استخدم مع إخوته الثلاثة عند التبع فى بلاد الشام ولما قتل التبع ولّى وهرب وسكن فى آخر بلاد العرب خوفا من كليب أن يقتله كما قتل إخوته لأنه كان يبغضة دون أهله وعشيرته فلما فرغ المنجد من شعره ونظامه وفهم الجرو فحوى كلامه فرح واستبشر ورجع إلى عند أمه على الأثر وأعلمها بما جرى وكان ثم إنهم ساروا معه إلى الأوطان ونصبوا المضارب والخيام فأكرمهم منجد غاية الإكرام وأنزلهم أعز مقام

وكان لمنجد المذكور عشرة أولاد من الذكور كأنهم البدور فأتلفوا الجرو وأحبوه وكانوا لايفارقوه وكانت أمه الجليلة قد عرفت الأمير منجد حق المعرفة ولكنها كتمت الأمر عن زيد وعمر خوفاً من العواقب وطول النوائب فاجتمعت بابنها الجرو وقالت: إذا سألك أحد عن اسمك فقل اسمى الهجرس لاتقول الجرو فقال: إن الاسمين واحد فما هو مرادك بذلك فقالت وإن يكون الهجرس كلب الصياد فإنه أصلح من الجرو ابن الكلب وأنت أمير وأبوك كان من الفرسان المشاهير ومن ذلك اليوم تسمى الهجرس وغلب علينا هذا اللقب بين العرب وكانت أمه فى قلق عظيم خوفاً عليه فاجتمعت ذات يوم بشيخ عبيدها وكان اسمه صباح وأشارت تقول من فؤاد متبول :

تقول الجليلة بدمع سجام ... أيا صبيح اسمع الكلام
فهذا الشيخ الذي تراه ... مكيد الأعادي بضرب الحمام
يسمي منجد صميدع عنيد ... ولد وائل وافي الزمام
فهو أمير وابن أمير وحوله ... عساكر كثيرة كفيض الغمام
فهذا حال كليب الأمير ... مع سالم الزير قوم همام
فهو خالهم قد عرفته سريع ... مكيد الأعادي بضرب الحسام
وهو خال زوجي لكن عدو ... كيف العمل الآن صرنا نضام
وأصل العداوة كليب الأمير ... قتل إخوته في دمشق الشام



حسان التابعى الملك اليمانى   والجليلة بنت مرة

قـتـل اليـمـامـة أخـذ ثار أبوها　　وأهلك أخـوه منجـد وشـام
ونـحـن الآن نزلـنا عـليـه　　عـرفـتـه وقـد اعـتـراني سـقـام
إني أخـاف علـي ابني حـقـيق　　يهـينه ويدعي دمـه سـجـام
عـدوك إيـاك تركـن اليـه　　ولـو إنه سـقـاك المدام

(قـال الراوي) فلما فرغت من شـعرها ونظامها فهم صبيح فحوى كلامـها قال أين تتـوجه الآن وقد صـار لنا مدة من الزمـان والصواب أن نكتم أمرنا على كل إنسان فبينما يفرجـها علينا الرحمن الرحيم واستمروا مدة طويلة فى تلك القبيلة وهم فى عز وإقبال وأرغد عيش وأحسن حال إلى أن كان فى بعض الأيام أغـار على الأمير منجـد بعض الملوك العربان فى ثمانين ألف عنان فالتقاه منجد بعـسكر جرار فانكسر عدة مرات حتى آل أمره إلى الدمار.

فلما شـاهد الجرو تلك الأحـوال وما وقع بمنجـد من الأهوال برز إلى ساحة المجـال وقاتل الشجعـان والأبطال وأظهر الغرائب العجـائب ففرق الصفوف والمواكب وكسر ذلك العسكر وفعل فعالا تبقى وتذكر ما دامت الشمس والقـمر عند رجوعه من مـعركة القـتال بالنصر والإقبـال فشكره منجد على تـلك الفعال وقـال له مثلك تكون الرجال فـوالله لقد حـميت الحـريم وطردت الغريم وخلدت لك ذكـراً جـميـلاً على طول الدوام عند

وصولـهمـا سراية الأحكام وجلوسـهمـا فى الديوان قال منجـد بحـضور السادات والأعـيان: مثلك تكون الفرسـان فاعلمنى عن حسـبك ونسبك ومن يكون قومك فلما سمع الجرو فحوى كلامه أجابه بهذا القصيد:

أيا فـــخــر مـاجـــد في الرجـــال فـاسمـع يا ملك فحـوي كـلامي
أنا اسـمي اليـتـيم يـا مـسـمي ولاأعــــرف أبي ولا أخـــوالي
وإني قـــد ســـألت أبي مـــراراً فــتــسكت لاترد إليّ ســؤالي
تقـــول أبوك شـــاليش بـن مـــرة قــــتــلـه الزيـر في يـوم النـزال
فـــأطلب من إلـه العـــرش ربي لأخـــذ الثـــار منه بالـقــتـــال

(قال الراوي) فلما فرغ الهجرس من كـلامه زاد منجد فى احترامه ونهض على الأقدام وأعتقه أمام السادات الكرام وقال له أنت من بنى مرة أصحاب الشجاعة والقدرة فعربك من عربى ونسبك من نسبى فو الله ما ضاع نظرى فيك فاطلب من الله أن يحفظك ويبقيك وينصرك على جميع حسادك وأعاديك. من ذلك الوقت زاد فى إكرامـه ورفع مقامه على جميع أقوامه، وأقامه ملكا على تلك الديار وصـار فى مزيد الوقار والاعتبار عند الكبار والصغار وكـان لمنجد بنت بديعة الجمال متـصفة بالآداب والكمال كـأنهـا هلال ذات عقـل ثاقب ورأى صائـب لايوجد مـثلهـا فى العـرب والأعاجم اسـمهـا بدر باسم فزوجـه إياها وتمتع الجرو بـحسنهـا وأقام فى أرغد عيش وأحسن حال وهو يحكم على تلك الأطلال وقـد أحبته جميع الرجال .

(قــال الراوي) هذا ماكان من الهجرس والجليلة وما جرى لهما فى تلك القبيلة وأما جساس فإنه بعد رحيل أخته من الديار زادت به الأكدار وكان كثيرا ما يتذكرها فى الليل والنهار فـاتفق فى بعض الأيام بينما هو جالس فى الخيام دخل عليه بعض الشعراء فسلم عليه وعلى باقى الأمراء وأخذ يمدحه بهذا الشعر والنظام على ما جرت به العادة فى تلك الأيام:

قــال جــابر في بيــوت صــادق	أنت يا جســـاس رب المكرمـات
سـمعت بصيـتك أنا يا ذا الأميـر	في الكرم والجود يا فـخر الذوات
أنت ملـك البـــلاد جـمـيـعــهـــا	حاكمـاً في الأرض من كل الجهات
قـــاتل الضــــد فـي يوم الوغـــا	مكرم للضـــيف سنة المحـمـلات
أنت يا جـســـاس مـلك البـــلاد	مع إخوتك وشقايقك السـيدات
لولاكم مـا كنت جيت لأرضكم	ما كنت فارقت العيال مع البنات
وتركت أخـــتي يا مـلك أولادها	وزوج أختي يا ملك ذا العام مات
أولاد أخـتي يا ملك سبـعة ذكـور	عـند أولادي وأهـلي تـبـــــات
جور هذا الدهر في الدنيـا عجيب	كم لـه في كـل يوم تـقلبـــات

(قال الراوي) فلما فرغ جابر من شعره ونظامه وفهم جساس فحوى كلامه أمر له بألف دينار واعتبره غـاية الاعتبار ثم التفت إليه أخوه سلطان وقال له أمام السادات والأعيان: أسـمعت كلام هذا الشاعر الذى يدور فى القبـائل والعشـائر ويمـدح السـادات والأكـابر أمـلا فى المكاسب وبلوغ

المآرب كيف أنه ذكر أخته فى شعره ولم ينسها طول دهره فكيف نحن نكون سلاطين الزمان وملوك العصر والأوان ونترك أختنا أن تغتصب منا وتبعد ولا نعلم إلى أين ذهبت؟ وأى قبيلة طلبت؟ فماذا تقول عنا دول الممالك إذا سمعت عنا ذلك فمن الواجب أن نقتفى أخبارها الآن ونعيدها معزوزة إلى الأوطان ثم إنه بكى أمام جلسائه وبكت إخوته لبكائه وندم سلطان على ما فعل واستعظم ذلك العمل ثم التفت جساس إلى ذلك الشاعر وقال له أنت تطوف حلل العرب وتمدح الملوك وأصحاب الرتب فأريد أن تستقصى له عن أخبار الجرو وأختى الجليلة وتعلمنى إلى أى حلة قصدوا عن اسم القبيلة فإن أتيتنى بصحة الخبر بلغتك القصد والوطر فأجابه الشاعر وامتثل ثم سار على عجل يطوف القبائل والحلل ويستقصى عنها الأخبار من الكبار والصغار حتى سمع بخبرهما ووقف على حقيقة أمرهما فقصدهما إلى ذلك المكان واجتمع بهما فى الصيوان وحدثهما بما سمع فى حقهما من جساس وسلطان ثم أشار يمدح الجرو ويقول وهو فرحان على بلوغ القصد:

يقول جبر من قلب حزين	فدمعي سال من وسط الأماق
أدور علي القبائل والعشائر	لأحظى بالمكاسب والنياق
فأصغي يا أمير إلي كلامي	فأنت أجل فرسان السباق
فصيتك شاع في كل القبائل	فمن يمن إلي أرض العراق

وما لك في البرايا من شبيه ‏ ‏ ‏ ولجمك فاق سام المجد راق
سألت الله أن يحفظ جيالك ‏ ‏ ‏ عل طول المدي والدهر باق
رحنا من حماة لعند خالك ‏ ‏ ‏ ملك جساس سلطان الآفاق
فأهدانا وقام أنعم علينا ‏ ‏ ‏ وقلبه من بعادك باحتراق
وأرسلني لأكشف أين أنتم ‏ ‏ ‏ ليحظي فيكم من بعد الفراق

(قال الراوي) وكانت الجليلة تسمع هذا الشعر وهى خلف الحجاب والستر فما هان عليها أن تسمع بذكر إخوتها كانوا سبباً لغربتها وفرقتها من حلها فأمرت كبير العبيد أن يوقف عن إتمام القصيد وأن يكتم خبرهما عن هذا وذلك خوفاً من الفضيحة والإنهاك ثم أمرت له بألف دينار وأعطاه الجرو مثل ذلك المقدار ففرح الشاعر واستبشر ورجع على الأثر وعلم جساس بذلك الخبر فأرسل فى الحال أخوه سلطان فى جماعة من الأبطال ليأتوا بأخته الجليلة وابنها الجرو من تلك الأطلال فما اقترب سلطان إلى تلك الأوطان أرسل بعض الفرسان ليعلم منجد بقدومه إلى أوطانه فخرج فى الحال فى جماعة من فرسانه فالتقاه أحسن ملتقى لأنهم كانو أقارب وأصدقاء وأنزله فى سراية الأحكام وذبح له النوق والأغنام وأكرمه غاية الإكرام وفى ثانى الأيام اجتمع سلطان بأخته الجليلة وولدها الجرو واعتذر لهما بما فرط منه وطلب منهما الرجوع إلى الديار وشدد عليهما فى ذلك غاية التشديد فأجابه إلى ما طلب وأعلم الجرو والأمير

منجد بأنه يريد الرجوع إلى أهله وعشيرته مع أم زوجته ومن يلوذ به من جماعته لأن نفسه اشتاقت إلى الوطن فقال منجد: والله يا أمير يعز علينا فراقك ولازالت أرواحنا فى كل وقت تشتاقك ولكننا لانقدر أن نمنعك عن أهلك وأصحابك وبنى عمك وأحبابك ثم أعطاه مائة ناقة محملة من نفائس الأقمشة والذخائر ومائة جواد وغير ذلك من المعادن والجواهر ومائة عبد ومائة جارية وأركب ابنته زوجة الهجرس على هودج كبير وسار لوداعهم مسافة نصف يوم ثم رجع إلى الديار وسار الهجرس مع أمه وزوجته يقطعون القفار حتى وصلوا إلى منازل بنى مرة فالتقاهم جساس بالفرح والمسرة وأمر بذبح الذبائح وإطعام الغادى والرائح وأشار إلى الجرو يقول:

لما قال الفتي جساس صادق أيا مرحبا بك يا بن أختي
ففيكم حلت البركة علينا وضاء الحي في قربك إلينا
وأمك يا فتي عيني وروحي وعمرك يا جليلة ما فرحت
فإنك غدا كالسبع الكاسر فإن الجرو للأعداء كاسر
بيوت الحرب والأهوال كاسر إله العرش إرجعه ظافر
فلا تعتب علي سلطان خالك ولا قوله سيخطر قط ببالك
فلا ابني ولانحن مثالك أنا سأحكمك من فوق تختي
أنا أبكي علي المرحوم أبكي قتله الزير في ربعك وحيك

فــقم اركب يـا روح خــيـلك وأخــذ من المهـلهل أي مــأخــذ
ســألتـك الله أن تأخــذ بثـارك بقـــتله تكشف عنـك عــارك
مــرادي تقـتلـه وتأخـذ بثـارك وتحـــرقــه بنـارك يا بن أخـــتي

(قــال الراوي) فلما فرغ جساس من شـعره ونظامه تبسم الجرو من كلامه وقـال له كن مطمئن الخاطر يا خال هذا ما كان من الجـرو وجساس وأما الزير الفارس الدعاس فإنه بينـما كان راقد ذات ليلة إذ رأى فى منامه ولذيذ أحلامه أخاه الأمير كليب وهو يعـاتبه بهذه الأبيات على أخذ الثار وكشف العار ويقول وعمر السامعين يطول :

تـنام الـليـل كلـه يا مـــــهـلهـل وثاري مـــا قــدرت علـي وفــاة
وعظمي ذات حـتي صـار كـحـلا وجــســاس بن مــرة في الحـيــاة

فأجابه الزير يقول:

أمـيـر كـليب مـا قـصــرت يومـا بأخــذ الثــار من قــوم البــغــاة
فــقم اسـأل بـناتك يا حــبـيـبي علي طـعني وضـــربي بالعـــداة

(قـال الراوي) فاستيقظت بنات كليب من المنام وأيقظن عمهن بهذا الشعر والنظام :

يقــولون الـيـتــامي يا مـــهـلهل أتانـا كليب يـســتـنـجـد أخـــاه
كلـيب قـــام من وسط المـقـــادير وصـار كـلـيب في وسط الحـيـاة

(قــال الراوي) كان الزير قد استيقظ من منامه فـرأى البنات حواليه فقال لهـن: رأيت أباكم فى المنام ثم حـدثهن بما سـمعـه وراه بالكمـال والتـمـام فـبكين بكاء شـديداً فـقال الـزير: إن هذا المنام يدل على عـجب وحادث يـقع عن قريب فـاستـدعى بعض الرمالين إليه وقص ذلك المنام عليه فـضرب الرمل والرمـال ورسم الأشكال وولد البنات من الأمـهات حتى عرف حقيقة الخبر فقـال له لك البشرى يا فارس الصدام فإن جساساً سـوف يقتل من بعـد أيام وذلك من يد شـخص يظهر من لحـمك ودمك وأشار يقول :

يقـول بشـير اسـمع يا مـهلهل | أيا ســالم فـأبشـر زال همك
أتاك الـنصـر من رب البـرايا | إله العـرش بالخـيرات عـمك
وقـد ظهـر رسـول الرمل عندي | سيظهر شخص من لحمك ودمك
فـيقـتل في الوغـا جـساس حـالا | وأنـت برجــه ويـزول همـك
وتهـلك بـعـده أولاد مـــرة | وتسقـيهم جـميـعاً كـأس سمك

(قـــال الراوي) فلمـا سمع المهلهـل هذا الشعـر من الرمال فـرح واستبـشر وقال له: إن تم ذلك الكلام أبشـر منى ببلوغ المرام ثم إنه أحسن إليـه ووعده بكـل جمـيل ولما أصـبح الصبـاح وأشـرق بنوره ولاح ركب المهلهل إلى الحرب والكفاح وتبعه الأبطال والفـرسان وركب أيضاً الأمير جساس بالرجـال والشجعان واقتتلوا طول ذلك الـنهار وقتل المهلهل منهم

عدداً كثير المقدار وما زالوا فى أشد القتال إلى أن دقوا طبول الانفصال فافترقت الطوائف عن بعضها ونزلت كل فرقة فى أرضها. وأما الهجرس فإنه لم يركب مع جساس فى ذلك اليوم فاجتمع جساس بأخته الجليلةفى المساء وقال لها: إن ابنك لم يقاتل معنا ولا نعلم ما هو السبب فاسأليه وأعلمينى بما يقول فسألته أمه عن عدم خروجه إلى الحرب فقال لها: اعلمى يا أماه أنه لايلقاني قتال لى الزير سوى حسان خال جساس إلا خرج إن وهبنى إياه فأنا اعطيه رأس المهلهل فإن قبل بهذا الطلب بلغته غاية الأرب فرجعت الجليلة على الأثر وأعلمت أخاها جساس بهذا الخبر فوهبه الحصان وقال له إن قتلت هذا الشيطان تكون علينا ملك ونحن لك غلمانا وأعوانا ففرح الجرو بذلك وضمن لجساس قتل الزير. أما الفرسان والقواد ولما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح ركب الجرو الحصان المذكور وتبعه كل فارس مشهور وكان الزير قد ركب وطلب براز الفرسان وقال أين جساس الجبان؟ فليبرز إلىَّ الميدان فبرز الجرو إليه وهجم عليه وأشار يقول وعمر السامعين يطول:

يقول الهجرس يا مهلهل إن عزرائيل أقبل
أين تعدي اليوم مني سوف تلقاني وتقتل
لاتحسبني بظنك إني كمن قد جاك

(قال الراوي) فلما فرغ الهجرس من شعره حمل عليه وكان المهلهل قد مال قلبه إليه وتحركت جميع أعضائه بإذن الله وهذا الهجرس قد قصد قتله وقلعانه ليوفى إلى جساس ضمانه وكان الزير يبطل مضاربه بحسن اختياره ولا كان قلبه يطاوعه على قتله ودماره وما زالا على تلك الحال وهما فى عراك وقتال إلى أن دقت طبول الانفصال وعاد العسكران عن ساحة المجال ورجع المهلهل إلى الأطلال واجتمع ببنات أخيه كليب وأعلمهن بحديث الغلام ماجرى بينهما فى معركة الصدام وكيف أنه أشبه الناس بأبيهما كليب فى الصورة والقتال ثم قال لليمامة أعلميني هل كانت أمك الجليلة حاملة لما ذهبت إلى بيت أبيها فقالت نعم ياعمى كان لها نحو شهرين ولكن ماهو معنى هذا السؤال فأنشد وقال:

يقول الزير أبو ليلي المهلهل مريع الخيل إن تصدت إلينا
يمامة اسمعي مني كلامي أيا ست الملاح المحسنينا
برزت اليوم للميدان حتي أقاتل آل مرة أجمعينا
فبارزني غلام غريب له عزم كما الصخر المتينا
كمثل أباكم وجها وحريا فذكرني ليالي الماضينا
فقد قاتلته في كل لطف وهو يطعن طعان القاتلينا
فحملاته وطعانه قوية تقد الصخر والزرد المتينا

فلما انتهي من شعره أجابته اليمامة تقول:

ألا يا عم اسمع ما أقوله لنتفهم سالم الخبر اليقنا
فأمي حاملة من يوم راحت وحق الله رب العالمينا
ولست أدري إيش جابت أبنت أم غلام يا فطينا
ثلاثة إشارات لي في كليب إشارات بعقلي راسخينا
ركب يوماً بقرب النوم مرة وقال أيا يمامة أنظرينا
من التفاح أعطاني ثلاثة وقال بذي الثلاثة أتضربينا
فإنك سوف تحتاجي إليهم إذا ظهر لنا حقا بنونا
ضربته بواحدة يا عم راحت بضرب رقابه راجت طحينا
وثاني واحدة في رمحه وثالثهم خطفها باليمينا
عدا أنزل وأضربه ثلاثة كفل أبي أيا عمي الحنونا
يكون أخي إذا سوي نظرة وإن خالف يكون غريب فينا
عسي الله يدركنا بلطفه وينصرنا إله العالمينا

(قال الراوي) فلما فرغت اليمامة من شعرها ونظامها وعمها يسمع فحوى كلامها قال لها فعل أبو ك ذلك قالت قبل موته بشهرين عندما كنت على بير السباع وقد صممت الآن أن أرافقك إلى الميدان وأضربه بالتفاح فى ساحة الكفاح وأن أفعل كما فعل أبى يكون لاشك أخى وبه أبلغ أربى .

(تم الجزء الثامن ويليه الجزء التاسع)

الجزء التاسع

من قصة الزير أبو ليلى المهلهل

وفي ثاني الأيام ركب الزير للحرب والصدام وركبت معه اليمامة وقد أخذت معها ثلاثة وكان الجرو قد ركب أيضاً بالأبطال فصال وجال وطلب الزير الحرب والقتال فبرزت إليه اليمامة بالعجل وقالت أنا أقاتلك اليوم دون المهلهل فاستعظم الجرو ذلك ولم يعلم السبب ثم أن اليمامة أخذت تفاحة ولوحتها بيدها وضربته بها فأخذها برجله مع الركاب فطحنها طحنا ثم إنها ضربته بالثانية فأخذها على سنان الرمح ثم أخذت الثالثة وقالت اللهم ياخالق الخلق امح الباطل واكشف الحق فأخذها بيده ووضعها في جيبه فلما شاهدت الحال أيقنت أنه أخوها لا محالة فنزلت عن ظهر الجواد وتقدمت إليه وألقت نفسها عليه وقالت أهلا وسهلا ياأخي ابن أبي وأمي فأنت والله ابن كليب دون شك ولا ريب وقد رئيت في دارالعدا والحمد للهالذي عرفناك بعد طول المدى فقال لها أنا ابن شاليش أيتها السيدة الحرة وأمي هي الجليلة بنت الأمير مرة فقالت أنت ابن الأمير كليب ثم أنشدت تقول:

قـالت يمامـة مـن ضـمـايرها   دمع العيـون على الخـدين هنان
اسمع أخي قصتي وافـهم معانيها   يا قـاهر العـدا في وسط مـيـدان
أبوك خـانه جـسـاس أيا سندي   بطعنـة ياعظيم القـدر والشـأن
شاليـش خالك كل الناس تعرفه   أهل الأعارب قاضـيها ومن دان
وعـمك الزير فـخـرالناس كلهم   وفارس الخيل من عـجم وعربان
فـاسأل لامك ثم سـرك اكتـمـه   وارجع إلينا فأنت اليـوم في أمان

(قـال الراوى) فلما فرغـت اليمامة من شعـرها تأكدت عنده تلك القضـية لأن قلبـه كان لا يميل إلى جـساس ولا إلى أحد مـن بني مرة ولا سيمـا أنه قد حن قلبه إلى اليـمامة فقـال لها سراً لقد صـدقت بقولك هذا فـأذهبي الآن وعند الصـباح اتـبعكم إلى الأوطـان ثم توقفت عـن القتـال ورجع إلى عند أمه في الحـال وأخبرنا بذلك الشـأن وأن تعلمه من هو أبوه من الفرسان وحلف لها بالإله الديان أنها إن كتمت عنه حـقيقة الخبر قتلها وجعلها عبـرة لمن اعتبر فلما علمت أمه بأن الخبـر قد اتصل إليه وأن الأمر ما عاد يخفي عليـه أعلمته بالقصة من أولها إلى آخرها وأوقـفته في باطنها وظاهرها وأشارت إليه تقول من فؤاد مبتول:

الجـليلة قـــالـت أبيـــات   نار قـلبي بالحــشــا زادت لـظا
إستــمع ياولدي فـيـمـا أقـوله   يا ضـيـا عـيني ويا كـل المنى
أنت روحي أفـتـهم مـني الكلام   قـول صـادق ليس فـيـه من خـفـا

إن أبوك كليب صور المحصنات   قاهر الأبطال في يوم الوغى
وإخوته خمسون أعمامك جميع   كلهم فرسان طعانة قنا
أربعة من الست ياابني حقيقي   كل واحد سبع ربي الفلا
منهم المسمى أبوك كليب كان   والفتى الزير المهلهل يامنى
والفتى المسمى عدي درعان   هذه الأربعة أتوا منها سوا
ثم ست وأربعين خلافهم   من الجواري والسراري والاما
كلهم يا أمير أعمامك لهم   كل واحد ألف يطعن بالوغا
وأبوك كليب سار على الجميع   بالفروسية مع جود وسخا
جاء جساس خالك باق فيه   وتركني بعده مثل الاما
وطردني عمك الزير بعده   فرحت إلي أهلي دون الملا
قد كنت حامل فيك بعد أبيك   فولدتك في تلك الحما
رحت سميتك على اسم الكلاب   سرت كأنك سبع رابي بالفلا
وأنا والله من خوفي عليك   قلت أخي شاليش إنه لك أبا
وأنا أعلمتك أفعل ما تريد   ما بقيت أخاف يافخر الملا

(قال الراوى) فلما فرغت الجليلة من هذا الشعر بكى الجرو بكاء شديد ولام أمه على كتمان الأمر ثم إنه صبر إلى الليل فركب وسار بالعجل إلى عند المهلهل وصحبه العبد أبو شهوان الذي كان أرسله إليه عمه فارس الفرسان وفي أثناء الطريق أراه العبد قصر أبيه وقبره المصفح

بالذهب فلما رآه بكى وانتحب وعند وصوله إلى عند عمه دخل عليه وقبل يديه وعينيه واجتمعت جميع شقايقه ومن يلوذ به من أهله وأقاربه فوقعوا عليه وترحبوا به وكان الزير أفرح الخلق به ولما استقر به الجلوس وطابت من القوم النفوس قال الجرو الحمد لله رب الكائنات الذي جمع شملنا بعد الشتات فوالله العظيم رب موسى وإبراهيم لابد لي من قتل جساس وأجعله مثلا بين الناس لأنه فجعني بأبي تاجي وفخري وتركني يتيما طول دهري فقال له لابد من قتله على رؤوس الأشهاد وأنت تكون الحاكم بعد أبيك على هذه البلاد ثم أنشدوا قال:

يقول الزير أبو ليلى المهلهل صفا عيشي وقتي ما تعكر
أتاني السعد من رب البرايا وزال النحس لما السعد أقبل
فقبل ظهوره كنا حزانا نقضي الليل في قلق ونسهر
على فقد الفتى الماجد كليبا ثوى غدرا له جساس فنظر
وفي دمه كتب بالبلاطة وصايا عشر أبيات أو أكثر
يوصيني بقوله لا تصالح فسالم أنت إن صالحت تخسر
واطرد الجليلة من حمانا عدوة كعبها ما كان أخضر
طردناها وهي بالجرو حامل ومن يقدر على رد المقدر
أنا فيهم فتكت بحد سيفي وأنت القصد منهم بالمشهد
وإني ما بكيت على كليب أخذت بثاره بالسيف مجهز
فأبكي حيث ما خلف ذكورا بنات الكل ما له طفل يذكر

ولما خـــــالقـي أنـعم عـلـينـا	وجـانا الجـرو كالسـبع الغـضنفـر
صـفـاعيـشي وقـد نلت المقـاصـد	وزال الـنـحس عــنـا ثـــم أدبـر
ويعـد يـا ابني إسـمـع كـلامي	أنا عـمك وأنت الليـث قـسـور
فـقم أجلس عـلى كـرسي أبوك	وفي أحـوال إخـواتك تبـصـر

(قال الراوى) فلما فرغ الزير من الشعر والنظام قال الجرو وأطال الله بقاك ونصرك على جميع حسادك وأعدائك وبلغت قصدك ومناك إنني والله ياعم في قلق وغم فلا تزول أحزاني وأنال أربي حتى آخذ بثار أبي وأقطع رأس جساس واجعله مثلا بين الناس فشكره جميع أهله وأعمامه وبعد ذلك قال له الزير: ما هو الرأي عندنا يابن أختي قال الرأي عندي إني أغار عليكم نهار غدو آخذ نوقكم وجمالكم إلى جساس وأقول له بأني أتيت اليوم بأموالهم ومواشيهم وغداً آتي إليك برأس الزير ثم لاحاريك وتكون أنت واضع قربة من الدم تحت جانبك فاطعنك بالرمح فخذه تحت إبطك وألقى نفسك على الأرض فتنشق القربة ويهرق الدم وأنا أصيح على جساس وأقول له قد قتلت عدوك ياخال أنزل إليه وأقطع رأسه لقد زال الكدر وبلغنا اليوم الوطر وعندما يأتي إليك فتقوم إليه بالعجل وتعدمه الحياة لأنه لم يعلم بقدومي عليكم وبهذه الوسيلة تتم الحيلة وتتخلص من هذه الورطة الوبيلة فاستصوب الزير رأيه ثم أنه

ودعـهم وسـار وحـده إلى ديار بني مـرة وعند الصبـاح ركب الجـرو في جمـاعة من الفرسـان وساق مـواشي بني قيس من الرعيـان باتفاق الأمـير مهلهل ليث الميدان فـأخرج الأمير جسـاس وسادات من بني مرة وشكروا الجرو على هذه الغنيمة

(قـال الراوى) فاتفق في تلك الليلـة بأن جساس رأي حلماً غـريبا وهو أنه أبصر ذاتـه بأنه كان قد ربى عنده جـرو وذهب وكان يوده ويحـبه فلما انتهى وترعـرع وتصاحب مع سبع كاسر فـألفه إلى أن كان في بعض الأيام أغـار السبع على مـواشي بني مـرة وهجم على نسـائهم وأولادهم وجعل يفـترس كبارهم وصـغارهم وكان الذئب يسـاعده عليهم فاغـتاظ جساس من فعال الأسد فسل السيف وهجم عليه يريد قتله وإعدامه فوثب عليه الـذئب من ورائه ونهشـه فألقاه صـريعاً على الأرض فـفاق جـساس مـرعوباً من هذا الحلم فنهـض في الحال وسـار إلى الديوان وجمع إخـوته وباقي السادات والأعيان وأعلمهم بذلك المنام فـقالوا هذه أضغاث أحلام ومـا زالوا يهـونون عـليـه حـتى راق وزال عنه القلق والـكدر ولما أصـبح الصباح ركب الزير يطلب الحرب والكفاح وركب الأمير جساس وهو في قلق ووسواس وكـان الجرو قد أوعـد بهلاك القوم وقـتل المهلهل فى ذلك اليـوم ولما ألتقى الفـريقان برز الجـرو إلى ساحـة الميدان فـبرز إليـه المهلهل فالتقاه الجـرو وصال وجال وطعنه بالرمح طعنة كاذبة فسحـبها المهلهل من

تحت إبطه فراحت خائبة وألقى نفسه على الأرض من فوق ظهر الحصان خديعة على عيون الفرسان ليظهر لهم أنه قد مات وحلت به الآفات فعند ذلك صاح الجرو الله أكبر على من طغى وجبر فقد نلنا المراد بقتل الزير الذي أهلك العباد ثم أنه صاح على جساس وقال له: أنزل ياخال وأقطع رأس عدوك فقد قتلته وكفيتك شره فلما رآه يختبط بدمه نزل عن ظهر القميرة وهو يظن أنه قد بلغ غاية مراده ولما اقترب منه نهض الزير على قدميه وقبضه من لحيته وهجم الجرو أيضاً عليه ووضع الرمح بين كتفيه فعند ذلك علم جساس أنها حيلة قد تمت عليه وتأكد عنده صحة ذلك المنام فأخذ يخاطب الجرو بهذا الشعر والنظام:

قال جساس الذي شاهد وفاة ... يا سياج البيض في طعن القنا
إنني بك يابن أختي مستجير ... فاجرني يابن أختي من القنا

فأجابه الجرو بهذه الأبيات:

أيا خال اقصر عن ملامك ... دني أجلك وقد وافى حمامك
تقول أجرني يا بن أختي ... ألا ياجرو اعطينا زمانك
قتلت كليب ظلما وعدوانا ... تظنوا بأنني أسمع كلامك
وبعد كليب أصبحت حاكم ... تسامي في الملا أيضاً كلامك
طغيت وجرت في حكمك علينا ... فأذني لم تعد تسمع كلامك
تريد اليوم منا أن نجيرك ... فهذا ما تشوفه في منامك

(قـال الراوى) فلما فرغ الجرو من كلامه جـعل جساس يتوسل إليه بأن يعفو عنه وقال: بالله عليك أن تصـفح عني فإن الذي مضي قد مضي، وهل إذا قتلتني يعيش كليب ويقوم فاتركني لوجه الله الواحد القيوم. فقال الجرو :لابد من قتلك كما قتلت أبي حتي أكون قد بلغت اربي، فلما أطال بينهمـا الخطاب قال لهمـا الزير: أراكما قد أطلتـما الكلام والعتـاب فعند ذلك طعنه الجرو بالرمح في صدره فخـرج يلمع من ظهره وتقدم إليه الزير بالسـيف علي رأسه فـقطعه، ثم وضع فـمه علي عنقـه وجعل يمصـه حتي شرب جـميع دمه، وكـان الجرو ينهش في لحـمه حتي بلغ مـراده، وشفي فؤاده، وبعد ذلك أعطي الرأس إلي الجرو ليأخذه إلي شقايقه فسلمه الجرو إلي بعض عبيده وهجم مع قومـه في باقي الأبطال علي جموع بني مرة في الحال وأذاقوهم الوابل وبلغوا منهم الآمال، وكانت بنو مرة لما علمت بقتل جساس أيقـنت بالموت الأحمر لأنه كان القـائد الأكبر وعليه الاعـتماد في الحرب والطراد فـولت الأدبار وطلبت الهـزيمة والفرار، وكان المهـلهل قد قـتل منهم في ذلك النهـار خلقـا كثـيرا بـهذا المقـدار فـمنهم أمراء وقـواد وسـادات أمجـاد، وأمـا الذين سلموا منـهم فإنهم طلبـوا الزمـام من الزير والجرو فـأجاروهم وعـفوا عنهم بشـرط أن يكونوا مثل الـعبيـد لا ينقلون سلاح ولا يحضـرون حرباً ولا كفاحًا، ولا يوقـدون نارًا لا ليلاً ولا نهاراً، ولا يعرف لهم قبر ميت في جوار ولا في مقبرة، ولا في دار إلا مشتتين في

البراري والقفار يقضوا حياتهم بضرب الطبل ونفخ المزمار وإن غابت نساءهم طول النهار لا يسألها فين كانت بل يسألها إيش جابت، وليس لهم صفة سوي الرقص والخلاعة. فقبلوا علي هذا الشرط بكل رضا وقناعة، وبعد هذه الشروط تسلطن الجرو علي كل القبائل نظير أبيه وطاعته العباد وشاع ذكره في البلاد، وفرحت بنات كليب كل الفرح وزال عنهم الغم والترح وخلعن عنهم ثياب السواد، وكان ذلك النهار عندهم من أعظم الأعياد، وكان الجرو قد تزوج بثلاث بنات وولد له ولدان فسمي الأول تغلب، والثاني مالك، ولما بلغا سن الرجولية زوجهما بتين شقيقتين وهما بنات الأمير هلال حاكم حماة وزوج أخته اليمامة للأمير مفلح ابن الأمير مذكور وهذا ما جري بينهم، وهكذا اتصل الحسب والنسب وخمدت نيران الحروب بين قبائل العرب وكان أفرح الناس الأمير مهلهل وكان الجرو قد عرض عليه الزواج فامتنع ، وكان منعكفًا علي الجلوس في الخيام، وأكل الطعام وشرب المدام، وأقام له عشرون عبداً في رسم خدمته، وكان يرقد وينام وهو لابس آلة الحرب والصدام لأنه كان قد اعتاد عليه مدة الحروب والشهور التي استمرت أربعين سنة وكسور كما في التاريخ مذكور هذا، ما كان من أمر المهلهل في تلك الأيام وسوف يقع له حديث وكلام، وأما الجرو فإنه قد زوج أربعة من شقايقه إلي جماعة من الأمراء، وصنع لهم ولائم وأفراح مدة طويلة، وأما ولداه مالك وتغلب فإنهما بقيا

مدة خمسة عشر سنة ولم يرزقا بأولاد من بنات الأمير هلال المذكور، وبعد نهاية المدة طلبت نساؤهما زيارة أهلهما في حماة فطلب أزواجهما من أبيهما الجرو أن يأذن لهما بذلك فأمر لهما فساروا مع نسائهما إلي تلك الأطراف ولما بلغ الأمير هلال بقدوم أصهاره بنسائهما خرج للتفاهم مع ولده الأمير مفلح، وخرجت معهما اليمامة زوجة الأمير مفلح المذكور، وخرج أيضا أكابر المدينة، فالتقوهم بالترحاب والإكرام وأنزلوهم في أحسن مكان، وقاموا في تلك الأوطان مدة من الزمان وهم في سرور وأفراح وبسط وانشراح، ولما صمم الأمير مالك وتغلب علي الرجوع إلي الأطلال مات الأمير مفلح مع أبيه الأمير هلال فأقاما يحكمان في تلك الديار وانقادت لأمرهما أهل تلك البلاد، وكانا محبوبان من جميع العباد وكانت اليمامة بعد وفاة بعلها ذهبت إلى عند أهلها.

(قال الراوي) فاتفق ذات يوم الأمير مالك قال لأخيه تغلب: إعلم يا أخي أنه قد مضي علينا مدة من الزمان ولم نرزق بولد ذكر حتي يبقي لنا ذكر يذكر بين البشر، فدعنا نتزوج الآن علي نساءنا فلعل الله يرزقنا بأولاد وإلا انقطع نسلنا من بين العباد. فقال تغلب: من الصواب أن نصلي إلي الله في هذه الليلة ونتضرع إليه أن يرزقنا أولاداً من نسائنا لأنه علي كل شئ قدير ، فأمتثل أخوه إلي رأيه وصليا تلك الليلة بحرارة قلب وأشار تغلب يقول وعمر السامعين يطول:

يقول الفتي تغلب علي ما جري بدمع جري فوق الخدود نهود
أقول وفي قلبي من البين لوعة وبي حسرات ظي الفؤاد تثور
لفراق أبينا الجرو والزير عمنا عليهم قلبي والحشا مكسور
يارب يا رحمن يا سامع الدعا عليك اتكالنا يا جابر المكسور
سألناك ربي بالخليل وابنه بحق الذي إليه العبيد تزور
فيارب يا رحمن اجبر قلوبنا بجاه عيسي وموسي الفاضل المشهور
بجاه داود مع يحيي مع الخضر وبالعرش والكرسي وبحر النور
ترزقنا بولدين يحيوا ذكرانا أيَا من ترزق كل وحش كسور

(قال الراوى) وكان الأمير تغلب ينشد هذه الأبيات وأخوه مالك يقول آمين يا رب العالمين، فاستجاب الله دعواهما ولم يخيب شكواهما فما مضت مدة يسيرة وبرهة قصيرة حتي حبلت نساءهما، ولما تمت أيامهما ولدن الاثنان في يوم واحد فولدت زوجة مالك بنتًا، وزوجة تغلب ولداً ذكراً، فقامت في الحي الأفراح والمسرات، وكان جناب الأميرين في الصيد والقنص فأرسلوا لهما بعض العبيد يبشرهما بذلك وكان اسمه سرور فلما أقبل إليهما العبد قالا له علامك يا مسرور أبشير أم نذير. فقال: إنني بشير وأشار إليهما بهذه الأبيات:

قال الداعي المسمي سرور يا سادتي أتيتكم قاصد بشير
يا أمير مالك أتاك بنت كالقمر ووجهها كالشمس والبدر المنير

وأنت يا تغلب أتاك غلام يفرح القلب المتيم يا أمير
أتيت إليكم حالاً بلا بطا فوق حمرا كأنها طير يطير
أريد منكم يا كرام بشارتي أجبروا بالله قلبي الكسير

(قال الراوي) فلما سمعا كلام العبد فرحا فرحًا شديداً واعتقا العبد وأعطوه ألف دينار، ولما حضرا إلي الحي أمر بذبح الذبائح، وأولما الولائم وأقاما الفرح والسرور مدة شهرين كاملين وأرسلا حالاً يعلما أباهما وعمهما الزير ويبشرهما بذلك وسميا الغلام الأوس والبنت مي وتعاهدا الأخوان علي زواج البنت بالغلام إذا كبر، ولما بلغ الجرو والمهلهل ذلك الخبر فرحا جداً وشكرا الله علي هذه النعمة العظيمة، وركب الجرو في جمع غفير من قومه وأبطاله وسار جهة أولاده لأنه كان له غاية الاشتياق لمشاهدتهما، ولما اقترب من تلك الديار وبلغا ولديه قدومه خرجا لملاقاته في موكب عظيم، وعند وصوله سلما عليه ووقعا علي يديه يقبلانها فقبلهما بين عينيهما ودعا لهما ثم سألاه عن عمهما فقال: إنه في خير وعافية، وإنه ما زال في خيامه وهو ملازم طعامه مع مدامه، ثم سار إلي المدينة وكان ذلك اليوم أعظم من يوم الزينة، ونزل الجرو في القصر الكبيروقف بخدمته الصغير والكبير، والمأمور والأمير، وأقام في تلك الديار مدة شهرين كوامل وكان في آخر هذه المدة مرض ابنه تغلب فأقام

عشرة أيام في الفراش ومـات فحزن عليه الجرو حزنًا عظيـمًا وعملوا عليه مناحة عظيمة ودفنوه بكل احتـرام ووقار، ولما عزم الجرو علي الرجوع إلي بلاده استـدعي ولده مالك وأوصـاه بالرعيـة وأن يكون عادلاً في حـكمه، وأن يزوج ابنتـه مي بالأوس ابن أخـيـه، وبعـد ذلك سـار وحـده في قطع القفـار إلي أن وصل إلي أطلاله واجتمع بأهله وعـياله، وأما الأمير مالك فإنه اعـتني بتربية ابنته وابن أخـيه كما أوصـاه جناب أبيه حتي كبـرا وبلغا درجة الـكمال، وكـان الأوس يركـب ظهور الخـيل ويتعلم الفـروسيـة مع الفرسان، واستمر علي ذلك مدة من الزمان حتي صار من صناديد الرجال وشاع ذكره في كل مكان وكانت إبنه عـمه مي من أجمل النساء والرجال وكان الأوس يحبها محبة عظيمة فكانا كروحين في جسد واحد فلما شاع ذكرها في قبائل الأعراب وتواردت علي أبيها الخطاب وكان قد سمع بها الصنديد بن الأكوع وهو ابن عم الملـك تبع حسان فعـشقها علي السـماع وكـان من الملوك العظام فأرسل وزيره لـيخطبـها من أبيـها فلمـا وصل الوزير وعلم مالك بالخبر فقال والله هو نعم الصهر وبه أنال الفخر علي طول الدهر غيـر أنه لاخفاك أطال الله عـمرك وبقاك بأن ابـنتي مخطوبة لابن عمها الأوس ونحن الآن مبـاشرين بأمر العرس فلا يمكنني أن أنقض الكتاب وهذا الذي يمنعني عـن إجراء الإيجاب فقـال له الوزير: اكتب لي الجواب فكتب لي هذه الأبيات:

يقول الفتي مالك علي ماجري له بدمع جري فوق الخدود صدود
أيا غادياً مني علي متن ضامر تسابق لضرب المرهف المبرور
تهدي هداك الله خذلي رسالتي أعطيه مكتوبي تنال سعودي
إذا جيت للصنديد فقل له بأني علي طول الزمان ودود
ومي تري مخطوبة لابن عمها ومعها تربي والأنام شهود
فحاشي لمثلي أن يخون أقاربه وأفسح زمامي ثم أكر عنود
تري الأوس روحي يا أمير ومهجتي وهو عندنا أحلي من المولود
فلو كنت أعطيها لغير ابن عمها لكنت أنت اليوم أولي بالمقصود

ثم إن الزير أخذ هذا الجواب ورجع إلي عند الصنديد وأعطاه إياه فلما وقف علي حقيقة الحال خرج عن دائرة الاعتدال فغير زيه وتنكر وركب جواده وسار إلي تلك الديار وحده وعند وصوله إلي مضارب الأمير مالك لم يجده هناك ولم يكن في الحي إلا النساء والبناء فسأل بعض النساء عن غياب الرجال فقالت منهم من سار إلي القبائل ليعزموا الناس إلي العروس والفرح ومن ذهب مع الأمير مالك للصيد والقنص ففرح بهذا الاتفاق وتقدم لنحو الصيوان وأركز رمحه ووقف علي الباب ونادي هيا يا أصحاب البيت فقد أتاكم ضيف من أبعد مكان وكانت مي داخل الخيام وحدها فما ردت جواباً وما أبدت خطاباً ولما أبطأت عليه الجواب وعرف أن الصيوان خاليا من الرجال أنشد يقول:

قــال الفـتـي الغـريـب الذي شكا ولي قلـب من بين الجـوانح ذاب
أتيت قـاصـد مـالكا في حـاجـة ولي سـاعـة واقف أنا في البـاب
يا أهل هذا البـيت أين أميـركم؟ وأين مـضي من الديار وغـاب؟
يا ربة البـيـت الذي داخل الحـمي مــا بالكم لا تردوا الجــواب
ألا فـاخـبـروني يا بنات بحـالكم قلبي غـدا من أجلكم مـرتاب
إذا كان أهل الحي غابوا جـميعهم أمـا فـيكم كريمة ذات حـجاب؟
فـتـقـر ضـيـفـا قـد أتي غـريـبـة وتسـتـرأهاليـهـا مع الـغـيـاب
أكـيد مـا كل النسا تستر الفـتي ولا كل من يحـوي الردية صـاب

(قــال الراوى) فلما سمعت مي شعـره ونظامه وعرفت نقـصده ومـرامه أخـذتها الغـيـرة والمروءة لتستر عـرض أهلهـا من القيل والقـال وأشارت تقول:

تقـول فـتـاة الحي مـي التي شكت ألا فـاسـمع للـقـول يا نجـاب
يا مـرحـبـا بالضـيـف لما زارنا لك الخـيـر والإكـرام والتـرحـاب
أنزل مكانك حـتي أحضر لـك الغدا وتـأكل مـن وادنا وتـشــرب
أنا بنت مـالك راح للصيـد والدي مع ابن عـمي الأوس والاحـبـاب
أنزل حـتي يـرجـعـوا رجـالنا ويأتوا لنحـو الحي بعـد غـيـاب
فكم جـاء إلينـا يا أمـيـر مـثـالكم خـلائق كثـيـرة ما لـهن حسـاب
نحن نحب الضيـف إذا جاء محلنا أنزل واجـلس جــانب الأطـنـاب

(قــال الراوى) فلمافـرغت من شعرها ونظامـها وقع الصنديد في حبها وغرامها ورفع ستار الخيمـة بسنان رمحه فوجد صبية بديعة الجمال فزاد به الوجد والبلبـال فصاحت عليه من خلف الستـار وقالت: علامك تنظر بنات الملوك يا غدار ثم ردت منديلها علي وجـهها وقالت له لاشك أنك قليل الحـياء كـامح فإن كنت ضـعيفـاً كمـا تقول فـانزل كي آتيك بالغداء وإلا فـما هذه الوقاحة ثم قـالت لجاريتها إطلعي افـرشي له حتي يجلس ويتغـذي لبينما يأتى أبي من المرية فـخرجت الجارية إلي وسـألته كي ينزل في الصيوان فقـال لها إنه عيب علي أن أنزل عند الحريم وأنا سيـد عظيم لئلا أدعي بكامح وهذا مـن أعظم القبائح ومـا أتيت إلي هذه الديار إلا لأمر ضروري هذا فلم يسمع لها كلام وقال لابد من أخذك إلي الاطلال وهناك أتزوج بك بالحـلال لأني أتيت من بلاد بعيـدة لأجل هذه الغاية الوحيـدة وقد نلت مرادي وحصلت علي هـوى فؤادي ثم إنه قام تلك الليلة في تلك المكان وهو مـسرور فرحان ولما كان الـصباح ركب ظهر الحصان وأردفها خلفه وصـار يقطع القفار ويوصل سير الليل بسير النهـار حتـي وصل الديار ولما سمـعت أكـابر قـومه بقـدومـه ظافرا غـانما اجتمـعوا إليه وهنئوه بالسلامـة وسألوه عن سفرته وما جـري له في غربته فقال : إني عند وصولي إلي تلك الأطلال هجمت علي الفرسان والأبطال ومـددت أكـثرهم عـلي بساط الـرمال وفـعلت فـعـالا تذكـر علي طول

الأجيال وقتلت الأمير مالك وابن أخيه وأتيت بالعروس إلي هنا وقد بلغت غاية المني فلما سمعت مي منه هذا الكلام كان عليها أشد من ضرب الحسام فنهضت علي الأقدام وقالت له أمام الأعيان لقد نطقت بالزور والبهتان فوحق الإله الديان لوكان أبي وابن عمي حاضران لما كنت رجعت سالما إلي أوطانك ولاجتمعت بأهلك وخلانك ولكنك خطفتني بالاحتيال وهربت في الحال قبل أن ندرك الرجال ويحل بك الوبال ثم إنها بعد هذا الكلام بكت بدمع سجام ولما سمع الحاضرون فحوي كلامها خافوا من العواقب وعلموا بأن كلام الصنديد ليس له صحة فهو في حديثه كاذب وأما الصنديد فإنه اغتاظ من هذا الكلام فنهض ولطمها علي وجهها وقال هكذا تتكلمين يا بنت اللئام أمام السادات الكرام ثم سل سيفه وعمدوا وأراد أن يعدمها الحياة فعند ذلك وثب الوزير وباقي الأمراء بالعجل وردوه عن ذلك العمل وقالوا له أنت أميرأتجعل عقلك كعقل النسوان فما تقول عنك ملوك الممالك إذا سمعت بذلك وما زالوا يتوسلون بالكلام حتي لان وكان له سجان أقسي من الصوان فاستدعاه إليه فحضر وكان اسمه عمران بن الأزور فقال خذ هذه الملعونة إلي بيتك وسلمها إلي زوجتك لتقيدها بالحديد وتعذبها العذاب الشديد وتلبسها ثياب الشعر وتضربها خمس مرات في النهار وتطعمها خمس أرغفة من الشعير فقال يا مولاي إن هذه الصبية لا تستحق الضرب والانتقام ولاتستاهل غير الإعزاز والإكرام وهي كأنها البدرالتمام فقال لها: كيف العمل وما نحن إلا عبيد الملك الصنديد فعند ذلك نزعت عنها ثيابها الحريرية وألبستها ثوبا من شعر الخنزير وأرادت

أن تضربها بالسياط علي قدميها فوقعت علي رجليها وجعلت تبكي وتثني عليها ثم أنشدت من فؤاد متبول:

بالله أن ترثي إلي أحــــوالي فالدهر فرق صحبتي وعيالي
يا وحـــدتي يا ذلتي يا غـربتي قد صرت بعــد العز بالأغلال
قد كنا في جاه ورفعة منصب والله ربي عـــالم الأحـــوال
فترفقي هذا النهار بحالتي فلعل ربي يستجيب الحال
إني كريمة من أكابر معشر فاقوا الوري بالجاه والإفضال
ويعدني بعد العناء إلي الوطن وأري جميع الأهل والإخوان
ولهم وقائع في البلاد جميعها بين الملوك وزمـــــرة الأبطال

(قال الراوى) فلما فرغت من شعرها ونظامها ورق قلبها وقالت لها: قري نفسيا وطيبي قلبا سأصنع معروفاً لوجه الله تعالي ثم إنها جاءت بجلد جاموس يابس فصلته ثوبا وألبستها إياه من تحت الثياب وقالت إني متي ضربتك فإنك لا تشعرين بألم الضرب وما قصدت بذلك إلا ليسمع الملك صوت الضرب وأنت تصيحين وتستغيثين وأنا أقدم لك ما تحتاجين إليه من المأكل والمشرب ومتي دخل الليل تخلعين ثوب الجلد وترقدين براحة بال إلي أن يأتي الله بالفرج فشكرتها مي علي معروفها ودعت لها بطول العمر وأوعدتها بالجميل والخير هذا ما كان من مي وما جري لها أما كان من أبيها فإنه عند رجوعه من الصيد سمع الصياح والبكاء فسأل عن ذلك فأخبرته زوجته بواقعة الحال فغاب عن الصواب من شدة الغيظ وأما الأوس ابن عم الصبية فإنه غشي عليه لأنه كان يحبها

محبة عظيمة ولما أفاق من غشوته أنشد يقول:

يقول الأوس بن تغلب قصيد ألا يا مي من هذا دهاك
أتاك المص في غيبة أبيك ولم يعلم بمن يسعي وراك
ألايا بنت عمي لو تدري بي علي فقدك أنا محزون باكي
تري في أي أرض قد حللت فما قلبي غدا يطلب سواك
فلا بد لي غزو دياره بالعجل واقتله وافرح في لقاك
وأبذل كل مجهودي لأجلك وروحي بعد ذلك هي فداك
لما قال الفتي الأوس بن تغلب فقلبي قد تعلق في هواك

(قال الراوى) فلما فرغ الأوس من هذا الشعر والنظام وقع مغشياعليه وبقي طول ذلك الليل في وهم وغم وقلق شديد ما عليه من مزيد فجعل عمه يلاطفه بالكلام ويقول له طيب قلبك يا ولدي فما يصلح الحزن إلا إلي النساء فاصبر لبينما ترسل من يكشف لنا خبر ذلك الرجل وبعدذلك نسير إلي دياره فنخربها ونسبي حريمه وعياله فقال الأوس: من يذهب غيري ؟ فوالله لا سرت إلا وحدي ولا أريد رفيق ولامعين سوي رب العالمين ثم نهض فاعتد جلاده وركب ظهر جواده وودعهم وسار وجد في قطع القفار ودموعه تجري علي خديه كالأنهار وهو لايدري إلي أين يذهب وإلي أي حلة يقصد من قبائل العرب إلي أن وصل إلي واد عميق ضيق الطريق كثير الأشجار والوحش والأحجار فبينما هو يتأمل ذلك المكان وإذا قد ظهر عليه أحد الفرسان وهو بالسلاح الكامل والفروسية عليه علائم ودلائم فلما رأى الأوس منفردا وحده مال إليه

وقـصده وقـال له انزل يا جـبـان عن ظهـرالحصـان واخلع مـا عليك من الثيـاب وفز بنفسك في هذه الهضـاب قبل أن أسقيك كـأس العطب فأنا جمرة بن غمرة بن غمرة فارس العرب.

فلما سـمع الأوس هذا الكلام صار الضيـا في عينيـه كالظلام وهجم عليـه في الحال وصدمـه صدمـة تزعزع الجـبال فـالتقـاه جمـرة في الحال والتحمـا في ساحة المجال واشتد بينـهما القتال وتجاولا سـاعة من الزمان وهم في ضراب وطعان تقشعر منه الأبدان فـاختلفا بينهما طعنتين قاتلتين وكان السابق الأوس بن تغلب فجادت في صدره خرجت تلمع من ظهره فوقع قتيلا وفي دمه جديلا فأخذ عدته وجواده وجد في المسير وهو يقطع البراري والآكام مدة خمسـة أيام واتفق في اليوم الخامس أنه التقي بفارس وهو يجد في قطع القـفاركالسهم الطيـار فتقدم إليه وسلم عـليه وقال له إلي أين سـائر وإلي من تنسب من القبـائل والعشـائر؟ فقـال إنني من بني عبس وعدنان أصحاب الفضل والإحـسان وإني سائر إلي ديار بني عامر لأستدعي حامينا عنتر فارس الخيل لأنه سـار منه عشرة أيام ليحضر وليمة دعاه إليـها عـامر بن الطفيل وفي غـيبـته غزانا عـمرو بن مـعد يكرب في خمسة آلاف فارس فحاربنا محاربة شديدة وجري بيننا وبينه وقائع عديدة فأرسلني مولاي قـيس بن زهير لأستدعـيه للحضور قبل أن يظفـر عمرو المذكور فقـال الأوس وقد تعجب ومن هو عنتر بن شـديد فارس الصدام الذي اشتـهرذكره في هذه الأيام بطعن الرمح وبضرب الحـسام وقهر كـبار الجـبابرة وحـارب الملوك والأكـاسـرة والقيـاصـرة وافتـخـرعلي الأبطال

والفرسان في ساحة الميدان فلما سمع الأوس هذا الخبر وانبهر ثم ودعه وجد في قطع البر الأقفر وما زال يقطع البراري والآكام مدة سبعة أيام حتي أشرف علي جماعة من العبيد ترعي الأغنام فحياهم بالسلام وأخذ يسألهم بهذا الشعر والنظام:

يقول الفتي المضني الفائض ما به ... فدمعي جري فوق الخدود سائح
ألايا عبيد الخير بالله اشفعوا ... لصب بعيد الدار ولهان نازح
فجيع وجيع مستهام ملوع ... تركه البين مضني كثير الجرايح
لقد ضاع لي حرة عفيفة من الحنا ... فهل من يبشر بها يا فوالح
ويخبرني لأي البلاد توجهت ... من أجلها ناري تزيد اللقايح
لقد أحرقت قلبي ولبي ومهجتي ... وكل عظامي أوثقتهم جرايح

(قال الراوى) فلما فرغ من كلامه تقدم إليه كبير الرعيان وكان اسمه مرجان وقال له :اعلم يا غلام أنه من برهة عشرة أيام سبي أميرنا الصنديد ابنة اسمها مي لايوجد أجمل منها في نساء هذا ا الحي فأراد أن يتزوجها فامتنعت عنه فلم تميل إليه فقيدها بقيود من حديد وهوكل يوم يعذبها عذاب شديد فعسي تكون الحرة التى ذكرتها في نظمك أفرج الله همك وغمك فلماسمع الأوس هذا الكلام استبشر ببلوغ المرام ونزل عن ظهر الحصان وقبل العبد مرجان وأوعده بالجميل والإحسان فبينما هو بالحديث والكلام وإذا بسعد ابن أخت الصنديد قد أشرف في ذلك الوقت ليتفقد المراعي فنظر الأوس فاستغربه فسأل بعض العبيد فقال هذا ابن عم الصبية مي التي عند خالك الصنديد قد جاء ليكشف

أخبارهاويرجع بهاإلي ديارها فلمـا سمع هذا الكلام رجع إلي عـند خاله وأعلمه بما سمع ورأي وأشار إليه يقول:

قـال سـعـد قـد أتيتك عـارا   يا خـال مني فـاسمع الأخـبـارا
البنت التي غـربتـهـامن أهلـهـا   من خلفـهـا فـارس أتاك جـهـارا
يا خـال فارس في اللقـا مجـرب   وعـيـونه يا خـال تقـدح نارا
إن كـان راقت لك ليـالي الصفـا   فـبـصـفـوها تأتـي لك الأكـدارا
قـد جـاء إلي عند العـبيـد يسـأل   أنبؤوه فـجـاء كـالأسـد هدارا
لماسـمعت أتيت نحـوك عـاجل   هذا الـذي ياخـال تم وصـار

(قـال الراوى) فلما فـرغ سعد من شـعره ونظامه وفـهم الصنديد فحوي كلامه قال له فارس واحد قال نعم أيهـا السيد الماجد فشتمه خاله وقـال ارجع وخذ روحـه من بين جنبيـه فإنه لايليق بـي أن أركب لقتـال صعلوك من صعاليك العرب فخرج سعد من عند خاله وقصد الأوس.

فلما اجتمع به وصاح فيه وحمل عليـه فالتقاه كالأسد وضربه بالحسام المهند فألقاه علي الأرض قتيلا فأخذ سلبه وثيابه ولما بلغ خاله الخبرطار من عينيـه الشرر فـركب ظهر جواده واعـتد بعـدة جلاده وقصـد الأوس حتي التقي به وانطبق عليه كليث الآيام وأخذ مـعه في القتال والكفاح ولم تكن إلا ساعـة حتي أثخنه بالجراح فـولي وطلب لنفسه الهـرب فتبعه الأوس مثل السـرحان حتي وصل إلي الصيوان واحتمي عند النسـوان فلما دخل

علي الحريم قالت له زوجته سعدا علامك داخل وأنت مرعوب كل هذا لأجل الابنة التي خطفتها وما نلت المرغوب فقالت إنك تستحق أكثر من ذلك ثم وبختـه بالكلام وقـالت له أنت تدعي الفروسـية علي كـل واحد وتهرب من أمـام أمرد هذا والأوس يصيح علـيه ويقول اخـرج يالئيم من بين الحـريم حتي أجـازيك علي تلك الفـعال يا غـدار يا مـحتـال فخـاف الصنديد وقال لزوجته سعدا أعطيه ابنة عـمه واكفينا همنا وهمه فخرجت زوجته إليـه وقبلته وطلبت منه العفـووالسماح فأعطاهم الأمـان فجاؤا له بابنة عمه مي بـعدأن ألبسوها الثيـاب الفاخرة وذبحوا لهـا الذبائح وقدموا لها الأطعـمة المتكاثرة ولما اجتمع بهـا زال عن قلبه الكـدر من كثـرة فرحه أخذ يسكب العبر وهكذا فعلت مي وكان ذلك النهار عندها كيوم العيد حيث التقت بحبيبها الوحيد.

(قـال الراوى) فبـاتا تلك الليلة في الحلة وعند الصبـاح أركب مي في هودج وسارمعـه جماعة من العـبيد وتوجه قاصـدا دياره ولما اقترب من بلاده أرسل يبـشر عـمه الأمـير مـالك بقـدومه وشـاع الخبر في الحي فخرجت النسـاء والبنات وأكابر السادات ولما اجتـمعوا ببعـضهم البعض نزل الأمـير مالـك فسلم علي الأوس وابنتـه وشكر ابن أخيـه علي أفعـاله وعند وصوله إلي الخيام حدثهم بحديث عنتر وماسمع عنه من الخبر فقال عمه واللـه سمعنا بذكره وأنه من أفـرس فرسان عصره وبعـد ذلك ذبحوا الذبائح وأولموا الـولائم ثم زفـوا الأوس علي ابنـة عـمـه فكانت لـيلة من أعظم الليالي حضرها جمـهور من السادات والموالي فزادت أفراح الأوس

بتلك العروس وحظي بذلك الحسن والجمال وعاش معهما بأرغد عيش وأحسن حال وبعد ذلك وضعت له غلاماً سماه مالك وله حديث طويل فاتفق بعد عشرة أيام أن الأوس ضعف ضعفا شديدا فمات فحزن الأوس عليه ودفنه بالاحترام والوقار وبكت عليه الكبار والصغار وكان موصوفا باللطف والايناس ومحبوبا من جميع الناس وأرسل الأوس وأعلم جده بذلك الخبر فحزن وتكدر فقالت أختك اليمامة أرسل يا أخي وأحضر ابن عمك الأوس مع أهله ليجمع شملنا بشمله أجابها إلي ذلك وفي الحال أرسل رجلا من بني عمه ليحكم مكانه فجاء الأوس مع أهله وسكن عند الجرو جده وراق لهم الزمان وأما ما كان البطل الهمام صاحب الذكر الشهير المدعو بسالم الزير فإنه كان قد أخناه الدهر وضعفت قواه وهو مع ذلك مواظب علي أكل الطعام وشرب المدام وكان لاينام إلا وهو لابس عدة الحرب والصدام وما زالوا علي تلك الحال حتي برز له أسنان جدد وصار عقله مثل عقل الولد وكانت بنات أخيه تخدمه وتداويه فاجتمع يوما بالجرو وقال له يا ابن أخي قد ضاقت أخلاقي من الوحدة والانفراد فأريد منك ترسلني مع بعض الأتباع للتنزه في البلاد فأجابه إلي ما طلب وأركبه في هودج وأعطاه عبدان برسم الخدمة وجميع ما يحتاج إليه من لوازم السفر فودعه المهلهل وما زال يجول حتي اقترب من بلاد الصعيد وكان العبدان قد تعبا من مشقة الطريق وهما يلاقيان من التعب أشد الضيق فصمماعلي قتله وإعدامه بالكلية وإنما يقولان لأهله قد أدركته المنية فعرف الزير منهما فقال: قددنا

همامي وليس إلا القبر أمامي فإذا أدركتني منيتي أريد منكما أن تبلغا أهلي وصيتي قالا: وما هي وصيتك؟ فعاهدهما علي حفظها وتأييدها فحلفا له بأعظم الأقسام بأنهما يبلغونها بالكمال والتمام فقال إذا وصلتم الحي فاقرئا أهلي مني السلام وأنشدوهم هذا البيت وقولا لهم إني في القبر قد اختبيت.

من مبلغ الأقوام أن مهلهلا   لله دركما ودر أبيكما

وكرره عليهم حتي حفظاه ولمادخل الليل ذبحوه ودفناه تحت التراب ورجعا إلي ديارهما ودخلا علي سيدهما الجرو وأعلماه بموت عمه الزير فبكا بكاء شديدا هو ومن حضر ثم إن العبدان اقتربا من الجرو وأنشداه البيت المذكور.

فلماسمع الجرو هذا استغربه حيث لامعني له فاستدعي بأخته اليمامة وكانت من أزكي نساء العرب وعلمها عمها وأنشدها ذلك البيت فلطمت علي وجهها وبكت قالت :إن عمي لايقول أبيات ناقصة بل أراد أن يقول:

من مبلغ الأقوام أن مهلهلا   أضحي قتيل الفلاة مجندلا
لله دركما ودر أبيكما   لايبرح العبدان حتي يقتلا

ثم إنهما قبضا علي العبدان والقوهما تحت العذاب والضرب الشديد إلي أن أقرا بأنهما قتلاه ودفناه فقتلهما الجرو وفي الحال وهكذا انتهت حياة الزير وقدأخذ ثأره في حياته وبعد مماته وبعد وفاة الزير وضعت امرأة

الأوس غلامـا فسـموه عامـرا وعندما بلغ سـن الرجولية تزوج بـامرأة من أشراف العرب فولدت له في نفس الليلة التي مات فيها جده الجرو فدعاه هلال وهو جـد بني هلال وكان من أعـقل العـرب ولما كبـر الأميـر هلال تزوج بامرأة ذات حـسن وجمـال فولدت له غـلاما دعامـا لمنذر واتفق أن هلالا زار مكة في بعض السنين فـي أربعمـائة فارس كـرار وكان وقـتئـذ ظهور النبي المختـار وعند وصوله ضرب الخيـام وطلب هو ورجاله جول البيت الحرام ثم تشرف بمقابلة النبي المشار إليـه وقبله بين عينيه فأمره النبي أن ينزل في وادي العـبـاس وكـان النبي ﷺ في تلـك الأيام يحـارب بعض العشـائر فعاونه الأميـر هلال وأمده بالعسـاكر وقاتل معـه القوم في ذلك اليـوم وكانت فـاطمة الزهراء راكـبة علي هودجـها فلمـا رأت هول القتـال زجرت جملهـا لتخرج عن مـشاهدة القتـال فشردتهـا في البراري والفلوات وعند رجوعها دعت علي الذي كان السبب في البلاء والشتات فـقال لهـا أبوها: ادعي لهم بالانتصـار فـإنهم بني هلال الأخيـار وهم لنا جملة الأحبـاب والأنصار ، فنفذت فيـهم دعوتها بالتشتيت والنصر علي طول الدهر.

(تمت قصة الزير أبو ليلي المهلهل بعون الله تعالي)